
كمال النجمي
القلم
والأسلاك الشائكة



KITAB AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٥٥ - شوال - مارس ١٩٩٧ NO. 555- MA-1997

فاكس FAX-3625469

أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - الأردن ٣٠٠٠ فلس- الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالا .

القلم والأسلاك الشائكة

بقلـــــم

كمال النجمى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مقدمة

في هذا الكتاب نلتقي بعدد غير قليل من الشخصيات المصرية البارزة في الصحافة والأدب والشعر والفن والسياسة ، ونتحدث عن حياتهم وحكاياتهم ، وعن غرامياتهم أحيانا .. إلا أننا نكاد نقف مع كل منهم عند حدود الأسلاك الشائكة التي أحاط بها نفسه، أو أحاطته بها دنياه، ونكتفي بالنظر إليه كما رسم نفسه للناس ، أو كما رسمه الناس لأنفسهم من خلال ما يطالعهم به من فكرٍ أو أدب أو أي نشاط له بين الناس ، إلا أن لنا في كل حال وجهة نظر لا نخفيها .

ولهذا يتفاوت الكلام على شخصيات هذا الكتاب، فمن حكاية إلى نقد، إلى تحليل، أو تعليل ، أو تصوير في المرآة !

وقد آثرنا أن يكون عنوان المقالة الأولى في الكتاب هو اسم الكتاب نفسه، لأن لمغزى هذا العنوان صدى يتردد في أكثر ما يحتويه هذا الكتاب .

وكنا قد اتخذناه عنوانا لمقالتنا في الهلال - يونيو ١٩٨٩ - عن الكاتب الصحفي الكبير المرحوم أحمد بهاء الدين، وهي فاتحة هذا الكتاب ..

ولم نجد عندنا لبهاء الدين في محنة المرض التى كان يكابدها عند نشر هذه المقالة أيامئذ ، إلا أن نجعلها تحية لذكراه على صدر كتابنا هذا لا نملك سواها ، وهى جهد المقل ..

ونرجو أن تسنح لك - يا عزيزى القارئ - جولة فى هذا الكتاب تعقد خلالها أواصر الصداقة مع الشخصيات الممتازة التى تجتمع فيه، ولعلك لاقيتهم كلهم أو لاقيت بعضهم من قبل لقاء شخصيا أو لقاء على الورق أو في سبحات الفكر .

فهلم معنا إلى لقاء معهم يتجدد على هذه الصفحات .

كمال النجمى

أحمد بهاء الدين
القلـــم..
والأسلاك الشائكة

أحمد بهاء الدين هو الكاتب الصحفى المصرى العربى الثائر الذى لم تنقطع ثورته طوال أربعين عاما فى سبيل الحرية والديمقراطية والتقدم لكل الأمة العربية.. ولكنه حرص دائما على توضيح معالم ثورته هذه والوقوف بها عند حدود أسوار الأسلاك الشائكة المقامة فى البلدان الناطقة بالضاد حول الصحافة والصحفيين، وحول كل حرف مطبوع، أو صوت مسموع ! .

إن قلمه الثائر كثيرا ما يلامس أشواك السور، ولكنه لا يفكر أن يقفز فوقه ، لأنه يكتب فى صحف علنية لا فى منشورات سرية ، وهو يلتزم حدود النشر فى اتساعها وضيقها متذمرا، ولكن فى تسليم للمقادير ، مع قدرة فائقة على القفز بالتعبير اللبق فوق المحاذير ..

هذه الصورة للأستاذ بهاء الدين ، هى فى الأصل من لمسات

ريشته، نقلنا خطوطها بأمانة ، لأنها - كما تبدو لنا - هى صورته التى تحكيه قلبا وقالبا ، وتحدد ملامحه كاتبا صحفيا ، ومفكرا سياسيا ، وداعية للحرية والديمقراطية والتقدم من أبرز دعاة هذا المضمار فى الصحافة المصرية والعربية طوال النصف الثانى من القرن العشرين ..

لكن هذه الصورة - على صدقها - لا تفصح عن فضيلة نادرة يتحلى بها هذا الكاتب الداعية، وهى - «الثبات على المبدأ» .. فهو من الكتاب القلائل الذين لم تزحزحهم تقلبات الدنيا عن توجهاتهم المبدئية ، فلبث منذ اشتغل بالكتابة الصحفية يقبض بيده على الجمر فى سبيل ألاَّ يتنكر لطريقته ورؤيته وفكره ..

ما أشبهه فى هذا المجال بأساتذة الصحافة المصرية القدماء الذين كان «الثبات على المبدأ» فضيلة فيهم ، تدل على مروءتهم كما تدل على فكرهم وعملهم ، ولا تناقض مرونتهم وسماحتهم وتقبلهم للمتغيرات وتعبيرهم عنها بدقة وبراعة ..

ولما انتقل من «روز اليوسف» إلى «أخبار اليوم» لم ينزع رداء «الأحرارية» السياسية والفكرية ، ويدخل فى ثوب «اليمينية» التى كانت تمثلها أخبار اليوم حينذاك ، بل استمسك بفضيلته التى تدل على مروءته، وواصل فكره وعمله بلا أدنى تبديل، حرا مستقلا ، فردا فى حريته واستقلاله .

وبعد تأميم الصحافة احتفظ باستقلاله، وثابر على دعوته إلى الحرية والديمقراطية والتقدم من وراء أسوار الأسلاك الشائكة دون أن تثبط الأسوار عزيمته فيتنازل عن شئ من جوهر دعوته، وإن كان قد خلع القديم ولبس الجديد مرة بعد مرة ..

وفي سنة ١٩٦٤ أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارا بتعيينه رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ورئيسا لتحرير مجلة المصور ، فتحولت «المصور» إلى منبر للحرية والديمقراطية والتقدم، وكاد بهاء الدين أن يكون في تلك الأيام أقل الصحفيين الكبار حديثا عن الرئيس والثورة والاشتراكية ، مع أن الرئيس والثورة والاشتراكية لم تكن كلمات يعاب الحديث عنها، ولكن فضيلة هذا الكاتب ومروءته أبتا عليه أن ينسى أنه يكتب من وراء أسوار الأسلاك الشائكة، وأن الحرية والديمقراطية غائبتان وإن كان التقدم حاضرا بعض الحضور .

وفي تلك السنة أفرج عبد الناصر عمن كانوا في سجونه من الماركسيين واليساريين، وعمل بعضهم في دار الهلال وكتبوا في مجلة «المصور» .. فأذكر أنني كنت أتأمل كتاباتهم وكتابات بهاء وأسأل نفسي: كيف يكون بهاء الدين رزينا حصيفا صادقا إلى هذا الحد في تأييد النظام ونقده، بينا ينطلق القادمون من سجون عبد الناصر إلى تأييده بلا قيد ولا شرط تقريبا ؟!

لعل عذرهم أنهم جاءوا من وراء الأسوار ، فشعروا أنهم أصبحوا في سعة من الحرية فلهجت ألسنتهم بتلك الأمداح العجيبة، وخيل إليهم أن عبدالناصر الذى يبنى الاتحاد الاشتراكى ، يبنى فى الوقت نفسه «صرح الاشتراكية» ! ..

إن كثيرا من محبى الاشتراكية ودعاتها أيامئذ فقدوا قدرتهم على الرؤية ، ولكن بهاء الدين الذى كان اشتراكيا أيضا - وإن لم يكن ماركسيا - لبث هادئ التفكير، ثاقب البصر، مدركا ما يجرى حوله بكل تفاصيله ، وبلا تزويق أو تلفيق، وبكثير من التوتر والرغبة فى قول ما لا يقال ...

ولقد كان بصره الثاقب يريه أحيانا ما لا يستطيع أن يراه الكثيرون، ففى سنة ١٩٥٥ ، عرضت احدى دور السينما فى القاهرة فيلم «سقوط برلين» السوفييتى الذى يؤدى فيه ممثلون بارعون أدوار ستالين وتشرشل وروزفلت وغيرهم .. فكتب بهاء يبدى دهشته من «تقديس» شخصية ستالين فى هذا الفيلم، ويبين أن تقديس الزعيم مخالف لمبادئ الاشتراكية والديمقراطية ، كأنما أراد بهاء أن يقول للذين كانوا يقدسون الزعيم عبد الناصر إنهم مخطئون ! .

كانت كلمة بهاء عن تقديس ستالين، أول كلمة تنشر باللغة العربية فى هذا المعنى ، ولم يسبقه أحد إلى التنديد بتقديس أو عبادة شخصية

ستالين ولم يكن أحد يعرف أن خروشوف سيقف بعد عام كامل في مؤتمر الحزب ليقول هذا الكلام نفسه ! .

لم يكن يهمني في ذلك الوقت هجوم بهاء على تقديس الفرد أو الزعيم، ولكني كنت قد شاهدت فيلم «سقوط برلين» فأعجبني كعمل فني رائع عن الحرب العالمية الثانية، فكتبت كلمة في مجلة «العالم العربي» التي كان سيد قطب قد ترك رياسة تحريرها وتسلمها منه زميلنا أسعد حسني رحمه الله ..

ناقشت في كلمتي مسألة شخصية ستالين كما ظهرت في الفيلم وقلت إن السوفييت يرونها هكذا فلا شأن لنا بما يرون، وإنما الشأن كله بما تضمنه الفيلم من روعة فنية .

ويبدو أن كلمتي - كعادتي في الكتابة أيام الشباب - كانت علي شئ كثير من الحدة ، فامتشق بهاء قلمه ورد عليها بمقال ضخم جعل له عنوانا هائلا هو : «الإرهاب» .. وتحدث في هذا المقال ما شاء عن الإرهاب الذي يشنه «بعضهم » على المفكرين المستقلين أمثاله ! ..

أذهلني هذا المقال فأنا لم أكن قط منتميا إلى حلقة فكرية أو سياسية أو فنية ، وكنت مستقلا فردي النزعة مثل بهاء، فسألت صديقي أسعد حسني عما وراء هذا المقال العنيف ، فاتصل بصديقه المرحوم الصحفي الفنان حسن فؤاد ووجده خالي الذهن من كل شئ ، فاتصلت

بصديقنا الأستاذ محمد عودة، فصحبني إلى بهاء في مكتبه بدار روز اليوسف حيث تبين له أنني مثله رجل شديد الاستقلال أكتب في الحدود التي تتيحها الأسوار الشائكة وإن كنت أحاول أحيانا أن أقفز فوقها !..

فانظر - أعزك الله أيها القارئ - كيف أدرك بهاء بقوة بصيرته واستقلال رأيه أن السوفييت غارقون في تقديس الزعيم، قبل أن يعلنوا هم براءتهم من تقديسه بعام على الأقل .. وانظر كيف أدرك أن «الإرهاب الفكري» يمكن أن يواكب الدعوة إلى الاشتراكية، وذلك قبل أن يقول عبدالناصر حرفا واحدا عن الاشتراكية ! ..

إن هذا الاستقلال الذي حافظ عليه بهاء قبل الثورة ثم في عهد عبدالناصر، كان خليقا أن يورده موارد لا يسيغ ماءها ، لولا أن بهاء كانت له دائما - كما قدمنا - قدرة فذة على القفز بالتعبير اللبق فوق جميع المحاذير ! ..

وأذكر أن المرحوم أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام حتى سنة ١٩٤٨ كان يلقب الصحفي الكبير المرحوم محمد التابعي «بالكاتب اللبق» .. حين ينشر بعض مقالاته في الأهرام ، وإنما أراد أنطون الجميل باشا - وكنت أعرف أساليبه لصلتي به - أن يتجنب تلقيب التابعي بالكاتب الكبير ، فهدته لباقته المبدعة إلى تلقيبه بالكاتب اللبق ! ..

ولكن بهاء الدين، الكاتب اللبق، هو أيضا كاتب كبير، وإنه ليبلغ فى كتابته أجواء فى البلاغة لا يبلغها إلا أكابر الكتاب الذين أنفقوا أعمارهم فى دراسة العربية واستيعاب أسرارها .

وهو لا يبلغ هذا الحد من البلاغة بأساليب قديمة، بل بأساليب بالغة الحداثة ، ولا يبلغه بقوة اللفظ، بل يبلغه بقوة الروح ، كأنه جمال الدين الأفغانى الذى كان يبلغ بقوة روحه فى الكتابة مالا تتيحه لسواه من أئمة العربية قوة ألفاظهم وبراعة أساليبهم .

ولبلاغة بهاء جاذبية خاصة، هى التى لفتت إليه حتى غير البلغاء، أعنى الزعماء والرؤساء، ومنهم الرئيسان جمال عبدالناصر وأنور السادات .

ومع ذلك لم تستطع جاذبية قلم بهاء أن تبعده عن الخيل التى تجمح عادة فى وجوه المارين بطريق السلاطين، فناله من جماحها أذى كبير، يعجب له كل العجب من يعرف قصته ! ..

فإن بهاء رجل هادئ لا تثيره الأمور بسهولة ، ومع ذلك لم يصمد فى الطريق السلطانى ، وناله منه ارهاق شديد أدى إلى ارتفاع السكر والضغط وجلطة فى أحد الشرايين قبل بضعة عشر عاما حتى اقترح عليه الأطباء أن يتقاعد طلبا للراحة وهو فى تلك السن الصغيرة .

ولكنه لم يتقاعد ، وعاد إلى ثورته الدائمة فى سبيل الحرية والديمقراطية والتقدم، جالسا القرفصاء، سعيدا بجلسته، يوشك أن يبتسم، وإن كان جالسا على سطح صفيح ساخن ...

واقتضت لباقته أن يصمت في أواخر عهد الرئيس السادات رحمه الله، فلا يكتب مدحا ولا قدحا ، ولكن الصمت لم يكن مقبولا، وكان المطلوب هو التأييد الصريح، وإلا فلا كتابة ولا صمت .. وكان ذلك كما قال بهاء فى بعض أحاديثه : «أخطر صور الرقابة التى عرفتها مصر»..

ولم يستطرد بهاء بطبيعة الحال ليقول إن هذه الصورة البالغة الخطورة من صور الرقابة، كانت موجودة أيضا فى عهد الرئيس عبدالناصر، وإن السادات إنما ورثها عن عبدالناصر كما ورث أمورا خطيرة أخرى ! ..

وكانت هذه هى الأزمة الثانية التى تنتاب بهاء فى عهد الرئيس السادات، بعد أزمته سنة ١٩٧٢ عندما نقله السادات مع تسعين صحفيا إلى مصلحة الاستعلامات ، فلما اعترض بهاء على هذه الاهانة التى لحقت بزملائه التسعين الابرياء .. جاءه خطاب الفصل من العمل ! ..

ظل بهاء مفصولا من العمل إلى ما قبل حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ إذ

أعاده السادات إلى العمل ، وطلب إليه أن يشترك فى كتابة «ورقة أكتوبر» المشهورة ! ..

استأنف الكاتب اللبق الكبير عمله، واشترك في ورقة أكتوبر ، ثم وجد نفسه رئيسا لتحرير الأهرام، وحوله زملاؤه الذين كانوا مفصولين معه من مصلحة الاستعلامات ومن الصحافة المصرية جملة وتفصيلا .

ولبث مدة بين العمل والاستشفاء، ثم هاجر إلى الكويت طلبا للاستجمام والعمل الهادئ في بلد هادئ ومجلة شهرية ليس وراءها هزات سياسية ولا يرتفع سور الأسلاك الشائكة حولها إلى أعلى من قمة الرأس ! ..

وهكذا مضى إلى تلك الرحلة الطويلة ذلك الرجل الذى لم يذهب فى صباه إلى أية رحلة مدرسية، ولو إلى الأهرام وأبى الهول فقط ، وتعززت بهجرته فكرة تعدد مراكز الاشعاع الثقافى فى العالم العربى ..

ولكنهم قالوا : إنما ذهب فى رحلتــه تلك يطلب الثـراء فى بلاد البترول!..

ولو كان الثراء مطلب بهاء لبادر إليه قبل ذلك بعشر سنوات أو عشرين، وكانوا يلحون عليه فى الذهاب إليهم ، ولو كان الثراء مطلبه لظفر به منذ كان مرشحا للوزارة فى عهد «الوحدة» بين مصر وسوريا،

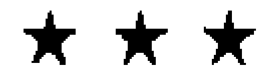
فأبى له افتقاره إلى «الإنتهازية» أن يدخل من باب الوزارة ، وهو باب يفضي بمن شاء إلى الثراء ! ..

إن أحمد بهاء الدين قد بلغ الآن المكانة التى تجعله فى عيون قرائه ومحبيه أشبه بالضوء المعلق فى الفضاء ، يراه الناس يلمع من بعيد ، كأنه رمز للمعانى التى تجسمت فى اسمه الذى رن في أسماعهم ويرق فى عيونهم عشرات السنين ، بلا انقطاع حتى عند انقطاعه ..

واسمه فى أية صحيفة مصرية أو عربية شهادة لها بأنها استطاعت أن تقنعه ، وأن توفق بين أوضاعها وبين استقلاله الدائم وعمله الدائب في سبيل الحرية والديمقراطية والتقدم ولو عن طريق لباقته البليغة التى تتجاوز الشكل إلى الجوهر، وتأخذ كل قارئ - مهما يكن اتجاهه - صديقا لها، مقتنعا بها أو متحفظا عليها ! ..

وقد قيل فى بداية ظهور بهاء الدين وشهرته إنه ابن النجاح السريع الذى يشبه ضربة الحظ ..

وقد مضت على ذلك خمسة وثلاثون عاما، وانتهت ضربة الحظ الأولى، وبقى كوكب النجاح يدور بنفس سرعته ! ..



وبعد .. فهذه الكلمة كتبناها قبل عام واحد من اعتكافه مع مرضه الطويل الذى انتهى بوفاته - رحمه الله - سنة ١٩٩٦ وهذه الكلمة نضعها كزهرة على مثواه ، وهو فى خلوده يسطع كوكبا يدور بنفس سرعته ، مقيما وراحلا ! ..

مكرم عبيد
خريج المدرسة القنائية

السياسى الكبير المرحوم مكرم عبيد باشا ، قرأت كتابا عن حياته وجهاده ومكانته السياسية والأدبية فى عصره ، وما بقى منه للجيل الحاضر والأجيال القادمة ..

مؤلفة الكتاب هى السيدة منى مكرم عبيد ابنة شقيق هذا السياسى الكبير الذى ترك دويا فى عصره مازال يتردد صداه فى الأسماع .

يتضمن الكتاب مقالات لبعض المشاهير من السياسيين والأدباء والصحفيين كتبوها قديما أو حديثا عن حياة مكرم عبيد وعمله الوطنى والسياسى، ومكانته فى الخطابة والكتابة، وأثره فى الوحدة الوطنية المصرية، وفى الاتجاهات العروبية فى مصر والبلاد العربية .

من أبرع مقالات هؤلاء الكتاب ، مقالة للأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - تضىء ناحية لم يتطرق اليها أحد ممن كتبوا عن مكرم عبيد باشا فى حياته وبعد مماته ، وهى ناحية تكوينه الثقافى والأدبى الذاتى الذى جعل منه خطيبا مصقعا ، وكاتبا بليغا ، مع أنه لم

يدرس الأدب العربي دراسة منتظمة ، لا في الأزهر بطبيعة الحال، ولا في دار العلوم ولا في مدرسة المعلمين العليا ، بل لم يتح له أن يتلقى دراسته العالية باللغة العربية ، لأنه تخرج في جامعة أكسفورد الإنجليزية سنة ١٩٠٨ ، ثم جامعة ليون الفرنسية سنة ١٩١٢ ، وعين سنة ١٩١٥ سكرتيرا للمستشار القانوني الإنجليزي في الحكومة المصرية ، فلبث لا يتكلم ولا يكتب إلا بالإنجليزية إلى سنة ١٩١٩ إذ حفزته الثورة الوطنية إلى ترك هذا العمل الذي كان يعيش فيه مغتربا عن لغة بلاده ، بل لغة أهله وقرابته الادنين في مسقط رأسه «قنا» بالصعيد الأعلى ..

وفي سنة ١٩٢٠ضمه سعد زغلول باشا إلى «الوفد المصري» الذي وكلته الأمة المصرية للمطالبة بحقها في الحرية والاستقلال بزعامة سعد، فبزغ مكرم عبيد – فجأة – خطيبا عربيا فصيحا، وكاتبا أديبا مبينا، وهو الذي عاش مغتربا عن لسانه العربي طوال دراسته في انجلترا وفرنسا، ثم خلال عمله مستشارا لكبار الموظفين الانجليز في الحكومة المصرية حتى ظن من عرفوه في تلك الفترة أنه قطع ما بينه وبين لغة أهله وعشيرته إلى الأبد ..

فكيف لم تتمخض هذه الغربة الطويلة عن رجل متفرنج أو مستعجم معوج اللسان عاجز عن البيان بلغة العرب ، وكيف انجلى

غبار تلك السنين الطوال عن خطيب من أخطب الخطباء، وأديب من أبين الأدباء؟!

ما تفسير ذلك ؟!

لقد استوفى الأستاذ العقاد جواب هذا السؤال فى مقالته البارعة عن مكرم عبيد التى حرصت السيدة منى عبيد على نشرها فى كتابها القيم .. وكانت هذه المقالة قد نشرت منذ قرابة خمسين عاما في كتاب «المكرميات» الذى جمع فيه الصحفى الكبير المرحوم أحمد قاسم جودة طائفة من خطب مكرم عبيد وأقواله ... وجاءت السيدة منى عبيد فضمت هذه المقالة الهامة إلى كتابها الذى كأنه جزء ثان من «المكرميات» بعد الجزء الأول الذى أصدره المرحوم أحمد قاسم جودة ..

قال العقاد عن سر الفصاحة والبيان فى خطابة مكرم عبيد وكتابته:

« .. فصاحب المكرميات بحق، وليد مدرسة عريقة فى قديمها وحديثها .. ومن عرف هذه الحقيقة ، عرف لماذا يعنى صاحب المكرميات بجمع هذه المحسنات فى نثره ، فلا تخلو خطبه أو فصوله من سجع تتلوه تورية، ويمتزج بها جناس هنا وطباق هناك، ولايزال موفقا فى اختيارها كل التوفيق حيثما ذهب طوع السليقة فى هذه الخطب والفصول .. فلا يسع القارئ الذى يتابعها إلا أن يرى فيها الأسلوب الطبيعى المعقول لمن ورث ذخائر المدرسة القنائية من يوم احتفظت بروح

النثر والشعر كما صاغها البهاء زهير وابن مطروح والقاضى الفاضل والعماد» ..

هكذا تحدث العقاد عن مكرم عبيد ابن مدينة قنا وابن المدرسة القنائية فى الأدب والشعر .. فما هى هذه المدرسة القنائية ؟!

يقول العقاد :

«كان أول اشتغالى بوظائف الحكومة فى إقليم قنا ، وهو أقرب الأقاليم إلى بلدتى أسوان، فرأيت فى قنا عجبا بين البلاد المصرية فى ذلك الحين ، وأعنى به تلك الحركة الأدبية التى تعد تالية لحركة القاهرة نفسها فى أوائل القرن العشرين، لأننا لم نعرف مدينة بين مدن هذا القطر جمعت من الأدباء والشعراء من يضارعون أدباء قنا وشعراءها فى الكثرة والجودة فلم يكن عددهم فيها يقل عن عشرين ، ولم يكن لمجالسها حديث فيما هو أفضل عند أهلها من النظم الرائق والنثر البليغ» ..

لم يستطرد العقاد فى بيان سبب ذلك، فنستطرد نيابة عنه قائلين إن السبب هو أن مدينة قنا هى عاصمة الاقليم العريق الذى كان يلي إقليم القاهرة وإقليم دمياط فى الأهمية طوال القرون الوسطى ..

وهذا الإقليم اشتهرت فيه مدينته الكبرى «قوص» التى كانت فى

القرون الوسطى أكبر المدن المصرية بعد القاهرة ودمياط ، وربما كانت أكبر من دمياط .. وقد أحصت كتب الأدب والتاريخ مئات الشعراء والأدباء والعلماء، انتسبوا إلى قوص أو إلى الكور المزدهرة القريبة منها، ثم انتقلت حكومة الاقليم من قوص إلى قنا بعد أن انقطع طريق الحج القديم بين قوص وعيذاب التي كانت ميناء على البحر الأحمر تواجه ميناء جدة على ساحل الحجاز .

يقول العقاد :

«بقي للأدب منزلته فى ذلك الإقليم زمنا طويلا حتى جاء العصر الحديث فوصل ما انقطع منه باجتماع عشرات من الدارسين والمتعلمين فى عاصمة الإقليم الحديثة، وهى قنا، بلدة صاحب «المكرميات» فكانت مثابة القضاة والمحامين والمعلمين والمهندسين والفضلاء من كل فن ومشرب، ولم يكن لهم شاغل يشغلهم باللهو والسمر فى غير الأدب وأحاديثه ، والكتب وطرائفها .. فلا عجب أن تكون بقديمها وجديدها صاحبة الحركة الأدبية الثانية بعد حركة القاهرة من أوائل القرن العشرين » ..

« .. وصاحب المكرميات بحق هو وليد تلك المدرسة العريقة فى قديمها وحديثها ، فلا يسع القارئ الذى يتابع المكرميات إلا أن يرى فيها ذخائر المدرسة القنائية فى النثر والشعر» ..

قلت : لم يستطع أحد أن يتكلم عن سر فصاحة مكرم عبيد وبلاغته بمثل هذا الذي تكلم العقاد به، فالعقاد نفسه، من أبناء المدرسة القنائية التي كانت ظلالها تمتد إلى ما وراء حدود «مديرية قنا» حتى تبلغ أدفو وأسوان جنوبا ، وجرجا وطهطا شمالا ..

وإلى عقد العشرينات من هذا القرن كان الأدباء الموظفون الذين ينقلون من القاهرة إلى قنا، يجدون فيها بيئة أدبية حية واسعة ، لا تقل حيوية واتساعا عن البيئة الأدبية في القاهرة ، وقد اعترف بذلك عدد من كبار هؤلاء الأدباء ومنهم الشاعر اللغوى الفقيه العلامة حفنى ناصف - رحمه الله - وله قصيدة مشهورة فى الشكوى من حرارة جو قنا صيفا، كانت مقررة على تلاميذ المدارس ، وكنا نحفظها فى صبانا ..

ومن مشاهير الموظفين الشعراء الذين نقلوا من القاهرة إلى قنا الشاعر عبد الحليم المصرى الذى كان ينافس شوقى وحافظ منذ ثمانين عاما، وله مساجلات مع شعراء قنا ..

وآخر موظف مشهور نقل من القاهرة إلى قنا ورأيناه هناك ولاقيناه كثيرا ، كان المرحوم الشيخ حسن البنا .. نقلته وزارة المعارف سنة ١٩٤١ مدرسا بمدرسة قنا الابتدائية ابعادا له عن القاهرة بايعاز من السلطات البريطانية ، وكانت الحرب العالمية الثانية محتدمة حينذاك ..

ولو ذهبنا نحصى العلماء والأدباء والشعراء والزجالين الموظفين القاهريين الذين أقاموا فى قنا زمنا وعاشوا بين ظهرانى زملائهم الأدباء القنائيين ، لما اتسع لنا المجال، وأذكر أننى جلست مرة مع صديقنا الزجال الكبير محمد عبد المنعم «أبو بثينة» - وكان هو نفسه أحد أدباء القاهرة الذين أقاموا مدة فى قنا - فعددنا فى جلستنا هذه أسماء سبعين أو ثمانين أديبا قاهريا عاشوا فى قنا بين أوائل القرن العشرين وأربعيناته ..

هؤلاء جميعا وردوا ماء المدرسة القنائية، وهى ليست مدرسة مشيدة بالحجر أو الآجر ، ولكنها اسم مستعار للحركة الأدبية والفكرية الزاخرة التى كانت تسود إقليم قنا وما يلى هذا الإقليم جنوبا وشمالا ..

فى هذا الجو الفكرى والأدبى الذى ورثته مدينة قنا من مدينة قوص العظيمة ، نشأ مكرم عبيد وعاش إلى سن العشرين تقريبا ، فكان غذاء عقله ووجدانه ولسانه من هذه المدرسة الفذة التى كانت حصنا للأدب العربى وعلوم الدين الإسلامى والتاريخ والفن، على أعلى مستوى عرفته مصر والبلاد العربية منذ أواخر دولة المماليك البرجية إلى أوائل القرن العشرين ..

وتخرج مكرم عبيد فى هذه المدرسة العريقة كما تخرج فيها كل من خالط أساطينها وأساتذتها وتلاميذها ومريديها ، بلا تفرقة بين مسلم

ومسيحى .. فكان مكرم عبيد من أثقف أبنائها فكرا، وأبصرهم بالبيان العربى كتابة وخطابة ..

ولم يكن مكرم عبيد فى ذلك بدعا بين المسيحيين القنائيين فى هذا المجال، فإن بعض ذوى قرباه ساروا على هذا النهج ، مثل الأستاذ اسحاق عبيد الذى كنت أحفظ فى صباي أبياتا فى امتداحه نظمها والدى - رحمه الله - وكان له صديقا :

قلت للفضل : كيف آل عبيد
قال : قوم زكت لهم أعراق
حببتهم إلى النفوس نفوس
زينتها الآداب والأخلاق
ووفاء للمجد ما خاس فيه
موعد منهم ولاميثاق
هم رجال الاخلاص فى القوم إما
زين الغدر للرجال النفاق
مبدأ ثابت يخفض الطرف «م»
حياء حياله الانشقاق

وجهاد يفت فى عضد الخصم «م»

ويقـــوى فى نوره الاتفـاق

قلت : ما هـذه الدعـــابة فيهم ؟!

قال : ظـرف تسيغه الأذواق

قلت : صفهم ولا تطل ، قال : حبا

هم غصـون زهـت لها أوراق

ونجـوم يكشـــف الخطـب منـها

إن تداعـــت ظلماؤه إشراق

قلت : هل «وليـــم» المجـاهد منهم

قال : منهم ، ومنـهم اسحاق

هذه الأبيات قيلت سنة ١٩٣٤ وكان والدى قد سافر من بلدتنا نجع حمادى إلى قنا ليلقى قصيدة رثاء فى حفل تأبين الشاعر الفقيه المتصوف المرحوم حسين محمد الحكيم، فنزل الوالد فى ضيافة صديقه اسحاق عبيد كما اعتاد أن يفعل كلما زار قنا، ثم حضرا معا حفل تأبين شيخ الصوفية وألقى فيه والدى قصيدته ، كما ألقى أحد الأدباء قصيدة بعث بها العقاد من القاهرة ، وكان العقاد صديقا للمرحوم

حسين الحكيم ، جمعهما العمل الحكومي في قنا أيام الصبا والشباب، وإلى ذلك يشير العقاد فى مطلع قصيدته مخاطبا صديقه الفقيد :

رفيق الصبا المعسول أبكيك والصبا

وما كان أغلى ما بكيت وأطيبا

ولا تجد شاعرية العقاد ظاهرة فى شىء من شعره ظهورها فى هذه القصيدة الفياضة بالمشاعر الصادقة .

أما أبيات الوالد - رحمه الله - فى تحية اسحاق عبيد فقد لفت نظرى فيها حين طالعتها فى حينها اسم «وليم» لأنى لم أكن سمعت به ، فأخبرنى الوالد أنه فاتحة الاسم الثلاثى لمكرم عبيد ، وأنه تعمد أن يذكره فى هذه الأبيات لأنه يمتدح بها جميع آل عبيد ، وفيهم إخوة لمكرم ولهم أسماء أيضا ، فلابد من تمييزه .

وإذا كان اسم «وليم» قد ورد هنا فى معرض المدح فإن بعض الكتابات قد أوردته فى معرض آخر عند اشتداد لجاجة الخصومة السياسية بين الأحزاب ، وانشقاق الحركة الوطنية ، وتثاؤب الطائفية فى بداية يقظتها بعد الحرب العالمية الثانية .

أما قبل ذلك ، فكما ترى في هذه الأبيات ، كان الشاعر المسلم يصف أصدقاءه المسيحيين بزكاء الأعراق أو الأصول ، وينسبهم إلي المجد والإخلاص ، والثبات على المبدأ ، والجهاد ، ولم ينس روح الدعابة وخفة الظل فيهم ، وهي الروح التي كانت واضحة في رجلهم الكبير وليم مكرم عبيد ..

وقد رأيت مكرم عبيد في صباي منذ بضعة وخمسين عاما خلال مناسبتين زار فيهما قنا ، فاحتشد طلبة المدرسة الثانوية ، وكنت فيهم لتحيته وسماع كلامه .

ولم أسمعه خطيبا إلا مرة واحدة في «سراي» الشيخ أبي الوفاء الشرقاوي شيخ الصوفية في إقليم قنا وفي الصعيد الأعلى كله ، ومن أساطين المدرسة القنائية في الفقه والتفسير والحديث والشعر والأدب ..

وكانت «سراي» الشيخ الشرقاوي في نجع حمادي - وهي من أكبر مدن إقليم قنا - مثابة للعلماء والأدباء من جميع أنحاء مصر .. وكان الشيخ الشرقاوي ومكرم عبيد يتبادلان المودة والإعجاب ، فقد كان كلاهما علما خفاقا من أعلام قنا والمدرسة القنائية ..

ويرحم الله مكرم عبيد .. قد كان رمزا لوحدة الوطن قبل

أن يعبث الزمن بحرمة الرموز ، وما أجدر أبناء الوطن أن يستأنفوا النضال من أجل أن تبقى رموز وحدتهم مرفوعة ، دليلا على بقاء وجودهم ذاته ، فإن فناء الأمم يجيء في أعقاب اندثار أعلامها ورموزها ..

وقد كان مكرم عبيد رمزا للوحدة لا يتمارى فيه أحد ، ولكنه في أخريات أيامه كان يقول وهو بين اليأس والرجاء : «إننا في معاركنا الداخلية أشبه بالسمك يرتطم في شباك صياد فيحسب نفسه في عراك ! .. فإذا كان هذا هو الجهاد ، أو ما انتهى إليه في نظرنا هدف الجهاد ، فهنيئا بالصيد للصياد» !

وإننا لنرجو ألا نصبح سمكا في شباك الصياد ، وإن كانت أمورنا قد هزلت حتى ثقلت على النفوس ، أو كما قال مكرم عبيد في كلمته التي جمعت البلاغة من أطرافها :

- «لقد هزلت ، حتى ثقلت» ! ..

غراميات العقاد

كانت مغامرات الأستاذ عباس محمود العقاد العاطفية – منذ منتصف العشرينيات – تثير غمزات خفيفة أو ثقيلة في الصحف المعادية للوفد المصرى ، وبخاصة المجلات الهزلية ، لأن العقاد كان من كبار الكتاب الصحفيين المدافعين عن السياسة الوطنية للوفد بزعامة سعد زغلول باشا ، فكان خصوم الوفد يتتبعون الحياة الخاصة لزعمائه وكتابه ابتداء بسعد زغلول ، وانتهاء بكل من يحمل قلما يؤيد به سياسة سعد !

وكانت غراميات العقاد متواضعة لأنه كان فقيرا ، لم يقتن من وراء تأييده للوفد عمارة ولا ضيعة ولا حتى سيارة كما اقتنى غيره ممن جعلوا تأييدهم للأحزاب طريقا إلى الثراء ، فصار بعضهم أصحاب صحف يومية ، وملاك عقارات فى الريف والحضر .. ولبث العقاد بينهم يكتب كل يوم منافحا عن الوطنية والديمقراطية ولا تهفو نفسه إلى امتلاك شئ ، إلا امتلاك الكتب ! .. كانت غريزة التملك عنده لا تتعدى الرغبة فى تملك الكتب وإقامة مكتبة خاصة يناجي فيها عرائس أحلامه الفكرية .

أما الغريزة التى تدفع الرجل دفعا إلى امتلاك المرأة ، فكانت

عند العقاد فى شبابه لا تجد لها طـريقا إلا الزواج على سنة الله ورسوله .. وكان العقاد مصروفا عن ذلك الطريق مكـرها لا بطلا ، لأن مرتبـه لم يكن يفى بغير طعامه وملابسـه ومسكنه وكتبه ، مع أنه كان كاتب الوفد الأول ، وفى الطبقة العليا من أدباء عصره .

وهكذا تخبـط العقاد فى طـريق المرأة ، أو تخبطت المرأة فى طريق العقاد .. أما هو فطريقه إليها تتحكم فيـه المصادفات ، وأما هى فقد تعشو إلى الضوء الباهر المنبعث من اسمه الشـهير فتجئ إليه يدفعها التطلع أو الفضول أو الظن الحسن بما فى يده أو فى جيبه من المال ! ..

وكثير من أبناء جيلى فى الأدب والصحافة لبثوا يسمعون عن غراميات العقاد أربعين عاما أو أكثر ، ولو كانت الكتابة الآن فى مثل هذه الأمور حرة طليقة كما كانت خلال العصور العربية الأولى - فى عهد الجاحظ مثلا ، أو بعد ذلك فى عهد أبى الفرج الأصبهانى إلى آخر عهد الدولة العباسية - لسهل الأمر ، ولكتب كل أديب عاصر العقاد ما سمعه منه أو من صديقاته أو من أصدقائه ، أو ما شاهده بعينيه مما نسميه مغامرات العقاد العاطفية !

على أن الأمر هين ، فالعقاد الذى عاش كالنجم المتلألئ شهرة ومكانة ، كان فى الميدان العاطفى متواضعا - كما سلفت الإشارة -

ولولا قيمته الأدبية العظيمة لما كانت مغامراته هذه تستحق أن يبالى بها أحد .. فأين هى من مغامرات الأديب فلان والشاعر علان والصحفى ترتان ؟!

وأصدقاء العقاد وتلاميذه هم الذين جعلوا من الحبة قبة فى «غراميات العقاد» .. فلم يكد يلحق بالرفيق الأعلى حتى تنافسوا في تعريف القراء بما خفى عليهم من الحياة الخاصة للكاتب العملاق ، وأوشكوا أن يزعموا أنه كان على مذهب دون جوان أو كازانوفا .

وكنا نقرأ ما يكتبون ونتساءل : ما بال أقرب الناس إليه ، وهو عامر العقاد ، لا يكتب عن هذه الغراميات ؟! ..

فلما كتب عامر العقاد – رحمه الله – كتابه «غراميات العقاد» بعد سنوات من الصمت لم يجيء بجديد ، ولم يضف شيئا إلى ما كتبه من قبل أصدقاء وتلاميذ العقاد عن غرامياته ، ولكن كتاب عامر العقاد كانت له أهمية خاصة ، فمؤلف هذا الكتاب هو ابن شقيق العقاد ومدير أعماله وكاتم سره فى العقود الثلاثة الأخيرة من حياته .. عاش بجواره يسمع ويرى ما لا يتاح لغيره أن يسمعه أو يراه .. واطلع على وثائقه الخاصة في حياته وبعد مماته ، واكتملت له بذلك صفة المصدر الموثوق فيما يتعلق بأسرار العقاد التى عرفها الناس ، وأسراره التى

لم يعرفها إلا قليل من «خاصكية» العقاد - على حدّ التعبير المملوكي عن خواص السلطان فقد كان العقاد سلطانا على أولئك الخاصكية - وبهذه الصفة الخاصة جدا ، نشر عامر العقاد - رحمه الله - كتابه الذى سماه «غراميات العقاد» فلم يضف شيئا مذكورا إلى ما رواه أصدقاء العقاد وتلاميذه وخواصه فى كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم وأسمارهم ، بل لعلهم زادوا عليه واستفاضوا فى كشف خبايا هذه «الغراميات» أكثر مما استفاض ، حتى اضطروه اضطرارا إلى أن يقتبس منهم فى كتابه ويستشهد بأقوالهم ، ويسند كلامه إلى كلامهم ، وكأنه ناقل متواضع المعلومات يأخذ من مصادر أصلية غنية بالمعلومات ، مع أنه - فيما كنا نظن - كان المصدر الأصلى الذى يأخذ عنه الناقلون ! ..

وقد سألت عامر العقاد عند صدور كتابه ذاك : لماذا أصدره ؟! .. فقال : أردت أن أنفى غير الصحيح مما كتب أصدقاء العقاد فى هذه الأمور الدقيقة ! .

كأنما ظن عامر - رحمه الله - فى لهفته على توضيح تاريخ عمه العظيم أن الناس لن يصدقوا ما قرأوا عن غرامياته إلا إذا أكدها عامر بنفسه وقال لهم إنه رأى هذه الغراميات بعينيه ، وسمعها أو سمع عنها بأذنيه ، وعرف أسماء بطلاتها الحقيقية غير المستعارة ، ولمس

وثائقها الخطية والمادية بأصابع يديه ! .. عندئذ لا يبقى فى نفس أحد أدنى ريب فى أن العقاد هو صاحب تلك الغراميات المشهورة فى الكتب والصحف وشاشة التليفزيون !

إلا أن عامرا - رحمه الله - أدرك وهو يقلب فى صفحات غراميات عمه أنها صفحات قليلة ، بسيطة ، بل ساذجة لا تستحق أن يؤلف المؤلفون عنها كل هذه الأكداس وكأنها من كبريات قضايا عصر العقاد، ومن مقومات أدب العقاد وفكره وشعره ونثره ! ..

لكن عامرا أراد أن يثير اهتمام الجيل الجديد الذى لا يمكن أن يهتم بسذاجات العقاد فى الحب ، فأضاف إلى غراميات عمه ما تفتقر إليه من غرابة وحرارة فروى فى كتابه أن العقاد كان يخلط بين قسوته فى مقالاته على أعدائه السياسيين وبين طلبه الشفقة والرحمة من حبيباته ، فيخوض في وقت واحد معركة القسوة السياسية ، ومعركة طلب الرحمة الغرامية !!

وقد أثارت هذه الحكاية أنيس منصور فحمل فى إحدى مقالاته على صديقه عامر ونعى عليه أنه قد ظلم عمه ظلم ذوى القربى الذى هو أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند .. كما قال الشاعر القديم ..

وقال أنيس إن العقاد لو كان فى العشق والسياسة على ما

وصفه ابن اخيه لما كان إلا مريضا عاديا من المرضى الذين يتلذذون بتعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم ، ولكان مكانه الصحيح طوال حياته هو مستشفى الأمراض النفسية أو العقلية ، لا قمة الحياة الأدبية ! ..

ويؤكد أنيس أن اقصى ما كان يذهب إليه العقاد هو اللعب أو التلاعب بعواطف من يحب ، وإن لم يكن العقاد لعوبا فى الحب أو فى غير الحب !..

ومهما يكن من شئ فإن العقاد كان فى الموقف الأضعف بالنسبة لمن أحبهن .. ابتداء بالآنسة مى ، وانتهاء بالثلاث الأخريات اللاتى ذكرهن عامر العقاد في كتبه ، إلى غيرهن من المجهولات والمتواضعات اللاتى سمعنا عنهن ورأينا بعضهن .. وهذا ما جعل العقاد دائما مفتقرا إلى عطفهن ، بالرغم مما كانت تصوره له كبرياؤه من أنه قابض بيد من حديد على زمام كل منهن ، جالس إليهن جميعا في مركز القوة الذى لا يتزعزع !

غير أن العقاد العاشق كانت له - على حد تعبير سياسى من أشهر تعبيراته - «يد من حديد فى ذراع من جريد» .. وكان جمعه بين الحديد والجريد فى يده وذراعه يورده موارد الفشل والحسرة فى كثير من الأحيان ، فهجرته «إليس» الشقراء التي سماها «سارة» إلى كثير من الرجال المختلفى الطبائع والأشكال .. ثم هجرته «السمراء»

الفارعة القوام إلى مثل هؤلاء الرجال ، وصارحته بأنها لا تريده إلا واحدا من هؤلاء ، فلما أبى ذلك باعدها مكرها مهزوما ، ثم بكى من هجرانها الذى لم يترك له بصيصا من الأمل فى الوصال ، ولم يُعْقب فى قلبه إلا عقابيل كالجمر يتقلب عليها !

أما الآنسة مى ، فزعموا فى المسلسل التليفزيونى أنها بادلته الحب ، بل بادأته الحب ، وقد علم الله أن هذه الآنسة لم يكن بينها وبين العقاد إلا الحب المشترك للأدب ، وأنها لو فتحت باب الحب لرواد صالونها الأدبى ، لدخل منه عشرات الأدباء وغير الأدباء من كبراء زمانها المفتونين بها ..

لقد أحب العقاد «الآنسة مى» حبا شفويا فى صالونها الأدبى المزدحم بالمعجبين والعاشقين وعلى رأسهم المجنون بها مصطفى صادق الرافعى الذى ردت على جنون حبه بالتفكير فى تقديم بلاغ إلى «النيابة» تشكوه فيه .. ولو كتب العقاد عن حبه لها معشار ما كتبه الرافعى لساقته أيضا إلى النيابة العمومية بتهمة السب والقذف العلنى ! ..

إن حبائب العقاد كن محترفات حب ، على اختلافهن فى أساليب الاحتراف ، ولو تتبعنا واحدة منهن فقط لرأينا لها فى عشرين أو ثلاثين عاما بعد هجرها للعقاد ثلاثين قصة حب وزواج فى مصر وخارج

مصر ، وليت العقاد عاش حتى رأى حبيبته هذه وقد قاربت الثمانين من عمرها المديد السعيد .

وهؤلاء الحبائب المتنقلات حيث شئن من الهوى ، أرغمن العقاد على طلب العطف والحنان من المرأة ، بعد الاكتواء بنيران الغيرة والشك ومحاولات التسامى الرومانتيكى الساذج الذى يلطمه الواقع بعنف وقسوة !

لقد جرت المقادير على العقاد بذلك النوع البدائى القاسى من الحب ، مرة بعد مرة ، فى عصر الحجاب والنقاب ، والرومانسية ، والحبيبات البائعات اللاتى كن فئة فى المجتمع قائمة بذاتها ! ..

ومن هذا النوع الأخير عرف العقاد نساء كثيرات ، وله مع بعضهن «مغامرات» لم يسلم من عواقبها القانونية والاجتماعية الخطيرة إلا بحسن الحظ أحيانا ، وبصعوبة وتضحية أحيانا أخرى ، وكان أساسها دائما قلة تجربته وعجزه عن فهم الفرق بين حبيبات القصائد الشعرية ، وحبيبات السويعات العابرة !

وليس من هؤلاء بعض الأديبات اللاتى كن يجتمعن حوله اجتماع الفراشات حول المصباح الوهاج ، فهؤلاء طبقة من حبائب الندوات والمجالس يذكرهن العقاد ساعة ثم ينساهن .

وليس منهن بعض الأوربيات اللاتى عرفهن معرفة عابرة جدا عن

طريق صديقه الشاعر الفنان عبدالرحمن صدقى الذى كان سكرتيرا أو مديرا لدار الأوبرا .

وليس منهن تلك الأديبة التى تكتب القصص والروايات على كثرة ما يتناقله عنها وعنه الرواة !! ولا المطربة التى نظم لها بعض الأغانى .. وليته ما نظم لها ولا غنت له !

أما «زوجته» التى كانت تعمل بالتمريض - أو ما يشبه هذا العمل - فقد تواترت الروايات عنها ، فلاشك فيها وإن لم يتزوجها بعقد رسمى ..

روى لى قريبه المرحوم الصحفى الأستاذ سيد العقاد ، وكنت عرفته عندما كنت أنشر مقالات فى جريدة المساء فى أوائل الستينيات ، أن العقاد احب تلك السيدة نوعا من الحب ، وأوجب على نفسه نفقتها ، ثم فوجىء بأنها حملت منه فلم يطلب منها اجهاض الحمل ، حتى ولدت بنتا جاءت صورة وجهها كصورة وجه العقاد تماما مع شئ من جمال أنثوى ، وقد نشرت الصحف صورة هذه الفتاة بعد وفاته .

وتعهد العقاد البنت وأمها بالنفقة والرعاية ، وكان من فرط شعوره بالحنان الأبوى نحو بنته هذه ، يغسل ملابسها بيديه ، فلا يترك حتى ملابسها الداخلية ، وهى يومئذ طفلة تتسخ ملابسها

بسرعة وتتلوث بالقاذورات .. فكان العقاد يغسل هذه القاذورات بيديه ، ثم «ينشر الغسيل» بيديه أيضا على الحبال في شرفة الشقة التي تسكنها بنته وأمها ومعهما شخص اضطر العقاد أن يكتب باسمه شهادة ميلاد هذه البنت ، فكان في عمله هذا ناقص الشجاعة ، لا يمكن التماس عذر له في إنكاره ابنته وإضافة اسمها إلى اسم شخص غريب ..

ولكن العقاد فعل ذلك ولا يعلم سره أحد ، غير أنه كتب وصية للفتاة مزقها الآخرون ، وطردوها حين جاءت إليهم عند وفاته تبكى .. ثم دفعها اليأس إلى الانتحار !

روى لى المرحوم سيد العقاد هذه القصة ، وكان وثيق الصلة بالعقاد ، مطلعا على أسراره .. وكم كنت أود لو كان المرحوم سيد العقاد حيا الآن ، إذن لأدلى فى شهادته بالتفاصيل الكثيرة التى لا أتذكرها .

وقال لى سيد العقاد - رحمه الله - إنه يقال إن للعقاد ابنا من إحدى حبائبه هاجر من مصر إلى بلاد الخليج ، وهو شديد الشبه بالعقاد كأخته غير الشقيقة التى ذكرناها .. ولا يعلم إلا الله حقيقة هذا الذى قيل ..

ولا أتعدى فى قصة هذا الابن ، هذه الكلمات وإن كان عندى الكثير

غيرها ، لأن سيد العقاد - مع شديد الأسف - لم يعد موجودا بيننا .. وتقتضى الأمانة أن نقف عند هذه الحدود .. ويرحم الله العقاد .. لقد عذبه أبناؤه أيضا ، وأرغمته الدنيا على أن ينكرهم ، إن صحت رواية المرحوم سيد العقاد ، التى نعرضها ولا نقول فى صاحبها إلا خيرا . ولا نجد مصداقا لها إلا أن نؤكد أن هذا ما سمعناه منه حرفيا .. ولعل من قدامى أصدقاء العقاد وخلطائه من شهد بذلك ، وفيهم من لا يستحل الكذب ووضع الأخبار ، وكان فى مقدمتهم الأستاذ محمد خليفة التونسى .

على أننا فى كل الأحوال نكن للأديب الكبير الراحل ، كل احترام وتقدير ، ولا نقصد إلا إلقاء الضوء على جوانب من حياته - رحمه الله - كما جرت العادة عند الكتابة عن أمثاله من عظماء الرجال ..

ثم لابد لنا أن نعود إلى حكايته مع الآنسة مى ..

فلا عجب أن تكون له حكاية تدور حول اسم هذه الآنسة الأديبة الشهيرة ، فإن جميع قصص الحب المأثورة عن أدباء عصرها - إلى أواخر العشرينيات - تبدأ دائما بقصة هذا الأديب أو ذاك معها هى بالذات ، لأن عصرها كان خاليا من أديبة بارزة جميلة إلا منها !

أما رسائل العقاد إلى مى ، فليس فيها سطر واحد يثبت أن حبا

كان متبادلا بينهما ، أو كان بينهما شروع فى حب ، أو تفكير فى حب ، إلا ما تدل عليه بعض السطور من الحب اليائس الذى حمله العقاد من طرف واحد ، كما حمل مثله الرافعى وإسماعيل صبرى باشا وولى الدين يكن وغيرهم ..

إن العقاد لم يفز من مى ولا بإشارة واحدة تقول له ولو من بعيد جدا إنها فهمت أنه يحبها ، مع أنها بطبيعة الحال كانت تفهم ذلك كل الفهم ..

وعزاء العقاد فى ذلك أن جميع من أحبوا تلك الآنسة العنيدة التى بلغ عنادها حد الشذوذ ، ثم حد الجنون ، قد رجعوا من حبهم يجرون أذيال الخيبة والخذلان ! ..

لقد كانت غراميات العقاد ومغامراته الساذجة التى يقوم بمثلها كل رجل عزب مثله ، زاده الوحيد فى تطلعاته الرومانتيكية المحرومة ..

وحين تزوج ، لم يتزوج عن حب ، ولم يعترف بثمرة الزواج ، مع أن ثمرته ملأت قلبه وأحرقته خوفا عليها وقلقا على مستقبلها .

ولا أحد من العارفين بفن الشعر وفن النثر يقول بأن غراميات العقاد ألهمته أحسن الشعر ولا أحسن القصص ، ولكنها على أية حال فتحت له بابا إلى الإلهام ، فقد كان يستشفى من داء الحب بداء الشعر والكتابة .. .. كقول المتنبى :

قد استشفيت من داء بداء

وأقتل ما أعلك ما شفاكا

وبين المتنبى والعقاد مشابه فى هذا الباب ، فقد كان المتنبى يوصف بأنه رجل «عزهاة» أى ليس بصاحب غزل وصحبة للنساء لانشغاله بأحلامه في المجد والعظمة ، وكذلك كان العقاد ، فهو «عزهاة» كالمتنبى ، ولم تكن مغامراته هذه إلا على هامش حياته ، ولم تستغرق من عمره الذى بلغ خمسة وسبعين عاما ، إلا مدة يسيرة متقطعة الأيام والساعات بين السنين والشهور .. فلو أنصفه من كتبوا عن غرامياته لبينوا للناس هذه الحقيقة ، ليعرفوا أن المرأة دخلت حياة العقاد كما تدخل المرأة حياة كل رجل ، ولكنها لم تقتطع من حياته إلا هنيهات ، سعد ببعضها ، وشقى ببعضها الآخر ، ولكنه فى النهاية كان يعود إلى طبيعته كرجل عزهاة بين أمثاله من الرجال العزاهى الذين يطربون للجد والمجد أكثر مما يطربون للغزل واللهو ومحاورة النساء وانفاق العمر الطويل بين أيديهن ! ..

وقد أعانته طريقة حياته أو أرغمته على أن يأخذ من النساء نصيبا قليلا ، بل ضئيلا ، ولا يدرى أحد أى نصيب كان العقاد يأخذه من النساء لو لم يتحكم فيه ضيق ذات يده ، ثم ضيق ذات العصر الذى عاش فيه ، ثم إخلاصه الشديد لمجد الأدب والفكر ! ..

العقاد
وقصة ابنته المنتحرة

كانت مقالتنا عن «غراميات العقاد» مثار تعليقات ونقدات شتى حين نشرناها في مجلة «الهلال» .. تتابعت علينا ؛ فصار لزاما أن نعود إلى هذه «الغراميات» نجلو ما غمض من كلامنا حولها . ونرد شبهة من هنا أو هناك حول بواعث ما كتبناه عن هذا الجانب «الحساس» الذى استعظم أمر الكلام فيه بعض محبى العقاد ، كأنما كان العقاد راهبا فى دير ، أو عاشقا من بنى عذرة فى سالف الزمان ! ...

وليس أحد ممن أبدوا الغيرة على تاريخ العقاد أو اسمه الكبير ، أغير منا على تاريخه واسمه ، فله علينا يد نحفظها ، وهو عندنا واحد من أبلغ كتاب العربية من لدن بداية النثر الفنى فى عهد عبد الحميد أو ابن المقفع ، أى خلال أكثر من ألف ومائتى سنة ..

ولم نكتب عن غراميات العقاد إلا بعد أن كتب عنها أخلص أصدقائه وأقرب ذوى قرابته ، وحسبك منهم عامر العقاد - ابن أخيه - الذى ألف كتابا عنوانه «غراميات العقاد» .. ومنه استعرنا عنواننا ! .. وطاهر

الجبـــلاوى - صديقه الصدوق وكاتم أسراره - وأنيـــس منصور أشـــهر تلاميـذه وصاحب أعظم الكتابات عنه وأشدها صراحة واستفاضة ..

ولم نقصد بمقالنا السابق إلا إلقاء الضوء على جانب من حياة العقاد ، وقد جرت العادة على عدم اغفال مثل هذا الجانب عند الكتابة عن أمثاله من عظماء الادباء والمفكرين .

والسادة الذين كتبوا إلينا مختلفو القرائح والفهوم والعلوم ، أخذوا من مقالنا على قدر اختلافهم فى هذه المواهب ، فاختلفت كلماتهم ونبراتهم ، ولكن اكثرهم يرى أننا أخطأنا على العقاد ، أو تزيدنا عليه ، أو جحدنا حقه ، فى النقاط التالية :

- علاقته بالأديبة الآنسة مى ، وقولنا انها بادلته حب الادب والفكر ولم تبادله حبا وراء ذلك ، وإنه لو كان طاردها بغرامه لقدمت فيه شكوى إلى النائب العام كما أوشكت أن تفعل ذلك بمجنون غرامها الاول الاديب الكبير مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ورحم العقاد ...

- قولنا إنه اكتوى بنار الحب والغيرة والشك ، وإن حبائبه كن خبيرات بهذا المضمار ، وكان ساذجا فيه ، يخلط بين حبيبات القصائد الشعرية وحبيبات السويعات العابرة .

- حديثنا عن «ابنته» التى انتحرت يأسا عقب وفاته إذ أنكر عليها

الآخرون حقها فى ميراثها منه ، وكان مسجلا فى وصية بخط يده أخفاها أولئك الآخرون ..

- ما وصفنا به العقاد من أنه كان «عزهاة» كأبى الطيب المتنبى ، وأنه كان له فى الحب يد من حديد فى ذراع من جريد .

- قولنا إن العقاد لم يكسب مالا من تأييده للوفد وسعد زغلول باشا، وأنه لم يقتن عمارة ولا بيتا ولا سيارة من تأييده لسعد والوفد ..

- استعظام بعضهم أن «نرمى» العقاد «بتهمة» حب نساء لم يكن زوجات له .. من أمثال سارة وسمراء الفن والمرأة التى أنجبت له ابنته .. وأخريات ! .

وعلى هذه النقاط نتكلم بوجازة ، لأن المقام لا يتسع للاسهاب وإن كان الاسهاب ممكنا..

ونتخذ من أقوال أصدقاء العقاد مصداقا لقولنا ، فلا نقول من عندنا شيئا إلا بسند من قولهم ..

فأما الآنسة مى ، فيقول من كتبوا إلينا انها بادلته الحب ، أو بادأته بالحب ، أو أعلنت عليه الحب كما ظهر ذلك فى المسلسل التليفزيونى الساذج الذى صنعوه عن العقاد .. ولكن الحقيقة غير ذلك ، وكنا نود لو أنها كانت كذلك ، إذن لصنعت للعقاد تاريخا فى الحب غير تاريخه الذى

نعرفه ، ولصنعت للآنسة مى تاريخا فى الحب والحياة ، وقد أجمع معاصروها على أن العقاد كان فى آخر صفوف محبيها أو عاشقيها ، ولم يجعل منه ومنها حبيبين متفاهمين إلا صديقه طاهر الجبلاوى فى كتابه الذى عنوانه «فى صحبة العقاد» . ولم يجد دليلاً على ذلك إلا قصيدة كتبها العقاد تشوقا إلى مى حين سافرت إلى الفاتيكان ، للحج أو للسياحة ! ..

ولو أن كل من كتب شعرا أو نثــرا عن مى كـان فى الواقع - الذى صار الآن ماضيا - متفاهما معها على الحب ، لكان قد سبق الناس جميعا إلى حبها مصطفى صـادق الرافعى الذى ملأ الدنيا وشغل النـاس بكتابته عنها شعرا ونثرا منذ عرفها إلى آخر حياته رحمه الله ! ..

وأقصى ما بلغه العقاد في حب مى ما أشار اليه الجبلاوى بقوله فى كتابه : «كان يداعبها فتقبل منه المداعبة البريئة ، فإذا تعدى هذه الحدود ، أشارت إليه ليقف عند حدوده !» ..

أهذه حال امرأة محبة مع محبوبها ؟! .. لقد كانت الدعابة بين شاب وشابة أو رجل وامرأة فى الأوساط المختلطة ، تجرى مجرى الدعابة بين انسانين متساويين فى الحظ من حرية القول والعمل فى الحدود الاجتماعية المتعارف عليها .. وأقصى ما بلغه العقاد من حب مى هو

هذه الدعابة البريئة التى كان يحاول أحيانا أن يتعدى بها الحدود فتصده باشارة حازمة من يدها أو أصبعها أو قسمات وجهها ! . وما أبلغ هذه الإشارة ، كأنها تقول له : الحب شيء آخر ، ولست أنت صاحبى فيه !

أما كتابته إليها – على نحو ما ذكر الجبلاوى – فلم يجلس فى ندوتها اديب إلا كتب إليها ، وكان بعضهم يعلن شوقه إليها علانية وبعضهم يعلن شوقه إليها إعلانا – وقد ذكرنا أديبنا الكبير الرافعى – ونضيف اليه ولى الدين يكن – وقصائده فى ديوانه تفصح عن شأنه – ونضيف اليهما اسماعيل صبرى باشا الذى ذاع وشاع قوله الجميل عن ندوتها التى كان موعدها الاسبوعى يوم الثلاثاء :

روحى على دور بعض الحى حائمة

كظامىء الطير رفافا على المـــــاء

إن لم أمتع بمي ناظـــريّ غـــدا

أنكرت صبحك يا يـــــوم الثلاثاء

لقد كانت مى أشبه ببعض جوارى العصر العباسى – والتشبيه مع الفارق – اللاتى كن أديبات شاعرات مغنيات ، فكان الشعراء والادباء ينظمون فيهن وينثرون وليس فيهم من يظفر بغير المجالسة والمشاهدة

والمتعة بالنظر والحديث والغناء .. ولم يكن للعقاد فى مى نصيب اكبر من نصيب شاعره المفضل «ابن الرومى» الذى جلس مرة أو مرتين فى صالون الجارية المغنية وحيد فقال فيها قصيدته الرائعة : «يا خليلى تيمتنى وحيد» التى لم يقل مثلها شاعر حتى اليوم فى مغنية ولا أديبة ، ولو كان ابن الرومى قد بعث فى عشرينيات القرن العشرين وقال فى مى قصيدة كقصيدته الرائعة فى وحيد لما ظفر من مى بنصيب أوفى من نصيب العقاد الذى لم يقل فى مى إلا شعره العادى المعروف ..

وقد بلغ من جنون حب الرافعى لمى أنه فكر فى الزواج منها كما يقول عنه تلميذه محمد سعيد العريان فى كتابه الرائع : «حياة الرافعى» اما العقاد فكان الزواج عنده أبعد شىء عن حبيباته .. يقول الجبلاوى أنه «طبع على ألا يشاركه أحد فى حياته ولا يطيق هذه المشاركة» .. فالحب عنده أحلام رومانسية ، كحبه لمى ، أو علاقة رجل بامرأة كسائر علاقاته بالنساء اللاتى تحدث عنهن من اطلعوا على حياته من قريب ..

فأين تقع مى من العقاد ، وأين يقع العقاد من مى ؟! لشتان ما حالها وحاله ، وما أبعده عنها وأبعدها عنه ! ..

أما انه اكتوى فى حب سارة الشقراء والأخرى السمراء بنار الشك والغيرة ، فيقول الجبلاوى ان العقاد بعد أن امتلأت حياته سرورا بحب

سارة بدأ الشك فى سلوكها يساوره .. «رآها مصادفة فى عرض الطريق فلفت نظره تغير نظام ملبسها وتناثر فى خصلات شعرها وقد اشتم رائحة من الطيب لا تستخدمها لغير «غرض» فلم يستطع أن يعلل ما رآه .

وسمع ابنتها الصغيرة التى كانت تلازمها تنبس بكلمات مريبة فدب دبيب الشك فى نفسه وانصرف إلى منزله مكتئبا حزينا فلم تطب له راحة ولم يهدأ له بال وجافى عينه الرقاد» .. وعرض عليه صديق من خلصائه أن يقبل سارة كامرأة ويستمتع بما تهبه من متع الحياة ولهوها فأبت نفسه فهو يريدها خالصة له دون سواه ..

وكان بعد ذلك ما كان من مطاردته لها فى كل مكان ، وقد اشترك صديقه الجبلاوى فى هذه المطاردات حتى ثبت للعقاد أن سارة ذات نشاط واسع وأن قلبها مفتوح للرجال فقهر نفسه على قطع علاقته بها وهو متيم جريح الفؤاد مغلوب على أمره ..

وخُيِّل إليه بعد مدة أنه نسيها ، حتى سمع يوما أغنية على الفونوغراف لمطرب لبنانى يقول فيها بلهجته العامية الشامية :

نار الغرام لم تنطفى .. ولا المحبة بتختفى ..

يقول الجبلاوى إن العقاد لم يكد يسمع مطلع هذه الاغنية حتى بكى وأغلق الفونوغراف ولم يفتحه الا بعد سنوات ! ..

وكان العقاد يقول – وقد تهاجرا وتخاصما – انها حبه الاخير الذى لا حب بعده ، ويتمثل بقول المتنبى :

ولو زلتم ثم لم ابككم

بكيت على حبى الزائل

ولعله كان يتمثل بقول المتنبى أيضا :

يُراد من القلب نسيانكم

ويأبى الطباع على الناقل

أما الفتاة السمراء الجميلة التى عرفها وهى فى سن العشرين وهو فى الخمسين – سنة ١٩٣٩ – فقد أحبها حبا جارفا وظن لقلة خبرته أنها تخصه بحبها دون سواه ممن تعرف من الرجال وهم كثير حولها لأنها تشتغل بالفن ، فلما عرف أن الأمر لم يكن على ما صورته له أوهامه ، فارقها باكيا محطم القلب ، مقهورا بالوحدة والفراغ والهجر المؤلم الموحش بعد الوصال الممتع الصاخب ، فتكررت مع السمراء قصته مع سارة و«ما أشبه الليلة بالبارحة» .. كما قال الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد ..

وظن العقاد لسذاجته أنه انتقم لنفسه منها عندما اقترح على صديقه الرسام الفنان صلاح طاهر أن يرسمها فى صورة «فطيرة حلوة

يتوسطها قدح من العسل الأبيض وقد تجمع حولها الذباب والصرصور ، فأصبحت تعافها النفس » ! ..

كان يخدع قلبه ووجدانه بهذه الصورة التى تعافها النفس لمحبوبته السمراء التى كانت ترضى بالبقاء معه «لو أن صاحبها ممَن يقبل المشاركة في هواه» .. كما يقول الجبلاوى .. «وافترقا على رغم ، وكان العقاد يذكر لي وقع هذا الفراق الذى رضيه كارها ويقول لى : ما ظنك برجل يحس يده وقد قطعت وفصلت عن جسمه وهو يراها بعينه بعيدة عنه ؟!».

ومع ذلك هجاها العقاد – على المكشوف – بقوله متهما إياها بالتنقل حيث شاءت من الهوى ، حتى هانت – في رأيه – على الرجال وعلى نفسها بعد أن هانت عليه :

خذى عشيقين مثلى

لا بل خذى الناس طرا

يلقاك هذا بليل

وذاك يلقاك ظهرا

قد هنت والله هنت

يقول هذا ثم يلجأ إلى سماع الغناء من وقت إلى وقت ، يتداوى به

من داء الغرام ، ويسمع أم كلثوم تغني في اسطوانة لها من شعر اسماعيل صبري باشا وتلحين أحمد صبري النجريدي:

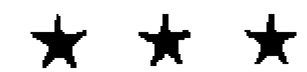
يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى

وهل تبينت داء فى زواياها ؟!

أواه من حرق أودت بمعظمها

ولم تزل تتمشى فى بقاياها

هكذا اكتوى العقاد بنار الحب والغيرة والشك والخيبة والعجز ، وإلى هذا الحد كان مثاليا وطيبا وساذجا فى حب امرأتين خبيرتين بالرجال : سارة والسمراء ! ..



أما حديثنا عن ابنته وكيف كان يغسل ملابسها بيديه وينشرها على حبل الغسيل فى شرفة البيت غير مبال بنظرات الجيران ، فقد أزعج المعجبين بالعقاد «الكاتب الاسلامى» .. وتساءلوا : أليس ما فعله حراما ؟! ، وتساءلوا أيضا : أليس هذا من اختلاق الوضاعين والرواة ؟! ..

ولكن صديقا قديما لنا هو الدكتور عصام الطاهر الطبيب ورجل الأعمال الذى كان يعمل فى الكويت بعث إلينا بقصاصة كبيرة من

إحدى الصحف الكويتية ومعها رسالة يقول فيها : «طالعت ما كتبتموه في الهلال وقرأت بشغف كبير حديثك الممتع عن غراميات العقاد ، فقد أضاف إلى معلوماتى الشيء الكثير ، ذلك أنى من المهتمين بالعقاد وقد كتبت عنه مرات فى صحف الكويت .. وقد وجدتك تطلب من أصدقاء العقاد أن يلقوا الأضواء على حياته الشخصية التى أتيح لهم أن يعرفوها ، وقدرت أنك لابد لم تطلع على ما نشره الأستاذ خليفة التونسى – صديق العقاد – فى مارس سنة ١٩٨٦ بجريدة القبس على ثلاث حلقات ، فرأيت أن أحصل لك عليها وأرسلها اليك مع رسالتى هذه ...» .

وصديقنا الدكتور عصام هو ابن شقيق المجاهد الفلسطينى الصحفى الكاتب المرحوم محمد على الطاهر .. تعلم الطب فى جامعة القاهرة وعرفته حين كان طالبا قبل ثلاثين عاما ، وغابت عنى اخباره طويلا بعد سفره ، وهو الآن رجل أعمال ترك الطب .. واشتغل بالأدب إلى جانب الأعمال ..

جاءتنى قصاصات الاستاذ التونسى فى وقتها لأننى كنت أبحث عن شاهد صدق على ما ذكرته من قصة ابنة العقاد .. وننقل هنا – باختصار – شهادته .. قال :

«لم تكد تمضى ساعة على نعيه حتى رأينا البنت وأمها حضرتا

وهما تلبسان الملابس السوداء ، والبنت تصرخ وتتلهف ، حتى دخلتا غرفة نومه ، فأغلقت وراءهما باب حجرته ولكنى عندما سمعت الفتاة تولول خانتني دموعي ، إذ تصورت كأننى أنا الميت ، وكأن بنتى الكبرى قد أكبت على رأسي تقبله وتعاتبنى لأنى تركتها ، وذلك ما رأيت الفتاة - يقصد بنت العقاد - عليه عند دخولها غرفة نوم الاستاذ ، فأدركتنى الرقة والضعف وسالت منى الدموع» .. و «استمر صراخ الفتاة بضع دقائق فلم أجد بدا من الذهاب اليها وتعزيتها ، وكانت الفتاة مكبة على رأسه تحتضنه وتقبله وتعاتبه فى مرارة : كيف تتركنى وحدى يابابا ؟! كيف هان عليك أن تتركنى وكنت غالية عندك ؟! لن أعيش بعدك! .. كما كانت السيدة - والدة الفتاة - منبطحة على الارض تجول يمينا ويسارا على سجادة الغرفة كأنها أفعى ضربت على رأسها ! .. وقبل خروجها وقفت فى تحد وقالت للشاب عامر : يا عامر افتح هذا الدرج من هذا الدولاب . ولما فتحناه لم نجد سوى بعض الملابس فقالت لى : إن الاستاذ كتب وصيته قبل موته بمدة طويلة وكان يضعها فى هذا الدرج ، وأنه أوصى بايراد سبعة عشر كتابا حددها بأسمائها لتكون لهذه البنت ! .. وخرجنا إلى غرفة الجلوس والفتاة تولول : آه يا بابا لمن تتركني يا بابا ؟! لن أعيش بعدك» ! .. ثم بدأت أفكر فى الخلاص من السيدة والفتاة قبل أن يطلع النهار ويأتى المعزون ، توقيا للفضيحة ،

ولم أجد بدا من الاستعانة بأوثق أصدقاء العقاد محمد طاهر الجبلاوى .. فحضر وعزاهما وحاول التسرية عنهما ثم طلب منهما العودة إلى بيتهما اتقاء للفضيحة» .

وأول كلمة قالها التونسى للشيخ أحمد خادم العقاد عندما قضى العقاد نحبه : هل أعلمت الفتاة – يقصد بنت العقاد – الخبر ؟! . قال خادم العقاد : لا . فسأله التونسى : هل تعرف رقم تليفونها ؟ .. قال : نعم .. فلما أمره التونسى باستدعائها عارض فى ذلك أقارب العقاد ، لكن الخادم نفذ امر الاستاذ التونسى وجاءت البنت وأمها ..»

هذه هى قصة بنت العقاد كما رواها شاهد صدق كان من أعز أصدقائه .. وهو يستشهد فيها بأقرب أصدقاء العقاد وكاتم سره : الجبلاوى . وبألصق الناس بالعقاد وهو خادمه الشيخ أحمد ، وواضح جدا أن جميع أقارب العقاد كانوا يعرفون الفتاة ووالدتها ..

وفى كتاب «صالون العقاد» قال أنيس منصور إن الفتاة ووالدتها ضربتا بالأحذية فى بيت العقاد بعد موته ؟ ..

وبهذه الكلمات التى نقلناها عن أقرب الناس من العقاد نختم الكلام عن ابنته ووالدتها .. والقصة أبلغ من كل كلام ، والبراهين عليها تكفى مائة قضية شرعية لاثبات البنوة برغم كل «الدفوع الشكلية» على حد تعبير أهل القانون .

بقيت النقاط الثلاث الأخيرة . فقولنا إن العقاد كان «عزهاة» كالمتنبى لا يعنى أنه كان ضعيفا فى خلوته بالنساء ، بل معناه أنه كان مشغولا عنهن أغلب وقته بطلب العلم والادب .. ولا توجد أية اشارة إلى ضعفه فيما قلناه من أن العقاد كانت له مع النساء يد من حديد فى ذراع من جريد .. فإن هذه عبارة شهيرة من عباراته السياسية قالها فى المرحوم محمد محمود باشا حين صار رئيسا للوزراء قبل ستين عاما وأعلن أنه سيحكم البلد بيد من حديد ! ..

أما البيت والسيارة فلم يقتن العقاد بيتا من تأييده للوفد ولا اقتنى سيارة ، وانما اشترى السيارة بعد أن صار عضوا فى مجلس الشيوخ على عهد السعديين والاحرار الدستوريين ، وقد رأيته وهو يمر بهذه السيارة فى شوارع القاهرة فى مطالع الأربعينيات وكان له سائق ثم ضاق ذرعا بالسيارة فنفض يديه منها وعاد إلى التنقل بالمترو والتاكسى والترام وكانت المواصلات العامة أيامئذ فى غاية السهولة .. والمتعة .. والمدينة هادئة كأنها تحلم ! .

أما المستنكرون لحب العقاد نساء كثيرات وهو الكاتب الإسلامى ، فلا تعليق لنا على استنكارهم ، ونقول لهم : الله أعلمُ بالسرائر ، وليست حياة الرجال نمطا واحدا ، ولو كان العقاد قد عاش فى العهد الذى يباح فيه شراء مائة جارية من سوق الرقيق ، فماذا تراه كان يفعل ؟!

من الوجهة الدينية : لا أدرى الحكم فى قضية العقاد مع حبائبه ومع المرأة التى ولدت له ابنته التي لاشك فى أنها ابنته ..

وقد مات العقاد وماتت ابنته ومات الذين مزقوا وصيته ، ولم تبق لهم جميعا إلا رحمة الله التى وسعت كل شيء ، وقد أنجب العقاد ابنته سنة ١٩٤٤ أى بعد هجرة حبيبته السمراء ، ولم يشتهر العقاد بالكتابة الإسلامية إلا منذ ذلك الحين تقريبا ، ولا يعرف له أحد «غراميات» بعد ذلك التاريخ .. وكان بينته وبين والدة ابنته - فيما بعد - عقد غير رسمى، هو بمنزلة العقد الرسمى فى نظر الدين ، وشهوده كثيرون ... وليت طاهر الجبلاوى كان حيا ليشهد على ذلك .

فالعقاد معذور من هذه الجهة ، ولكنه فر من ميدان أبوته وربط اسم ابنته باسم شخص من الاشخاص وجنى عليها ذلك فى حياتها ومماتها، وليغفر الله للجميع .. ومن كان منكم بلا خطأ كبير أو صغير فليزم ذوى الأخطاء الكبيرة والصغيرة بما شاء من الأحجار الكبار والصغار ، وليعلن أنه مبرأ معصوم .

كاتب سيىء الحظ

الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى - رحمه الله - كان يؤمن بأن الحظوظ تتفاوت حلاوة ومرارة فى حياة الإنسان وبعد مماته ، فقد يعيش محظوظا ، ثم يموت فلا يتركه الحظ : شهرة وتكريما ، وبقاء فى أذهان الناس ، إلى غير ذلك مما يجلبه حسن الطالع ومواتاة الحظ للإنسان وإن مضى فى الذاهبين ألف سنة أو ألوف السنين .

وكان المازنى - بالتجربة الطويلة - قد لمس باليدين سوء حظه وعرف أن التراب ينقلب ذهبا فى يد عامى جاهل محظوظ ، أما هو - المازنى - فإن الذهب الخالص في يده لا يمكن أن يبقى ذهبا إلا ريثما تتم العملية الكيميائية العجيبة التى تحوله الى تراب .

ثبت هذا يقينا عند الكاتب العظيم - المازنى - فصار شعاره الدائم بيت الشاعر ابن الرومي الذى يقول :

إن للحــظ كيمــياء إذا مـــا

مــس كلــبا أحــاله إنســانا

وكثيرا ما وصف المازنى أو تفكه بغير دهشة وبلا مبالاة كثيرة من

«كيمياء الحظ» التي شاهد عجائب فعلها في أناس عايشهم من أواخر القرن التاسع عشر إلى آخر العقد الرابع من القرن العشرين .

ومن يعرف ذكاء المازني ، يدرك أنه حاول أن يلتمس الحظ الحسن في مظانه من دنياه فأخطأه ، وكان المازني قنوعا ولكنه لم يكن يكره المال ولا ما يجلبه السعي من كرامة لصاحبه ، وحقن لماء وجهه ، وستر لعياله في حياته وبعد رحيله !

ومن المعروف أن أقران المازني من خريجي مدرسة المعلمين العليا . بلغوا أكبر مناصب الحكومة وتلقبوا بألقاب فخمة في ذلك الزمان ، وتمولوا وتأثلوا ، وخرج هو عن سبيلهم هذه فلم يصل إلى شيء مما وصلوا اليه ، ولم يكن بعضهم يبلغ أن يكون مذبة في يد المازني أو أقل من ذلك .

ومن سوء حظه أيضا أنه كان صديقا وزميلا للكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، فحظي العقاد عند الناس ، ولو شاء العقاد لكانت حظوته هذه أكبر وأجلب للمنفعة ، في حين أشاح الحظ عن المازني ، فلم يذكره الأكثرون في حياته وبعد مماته إلا في معرض الحديث عن العقاد، كما يذكرون مثلا اسم الشاعر عبد الرحمن شكرى أو غيره من أصدقائه وغير أصدقائه .. وشتان بين المازني وبين عبد الرحمن شكرى وأمثاله !

وأوشك المازني بعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاما على رحيله أن

ينساه الناس ، بل ان كتب المدارس المصرية تهتم بأدباء لا أهمية لهم في الحقيقة وتكاد لا تجعل للمازنى أهمية ، وهو ذو الأهمية الحقيقية لو أنصفوا .

أما دور النشر المصرية والعربية فلم يفتها أن تعيد طبع مؤلفات أدباء وشعراء كثيرين ، ولم تلتفت إلى المازنى .

ولو راجعت عدد طبعات كتب العقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم لوجدتها كثيرة تملأ السوق ، وهذا حسن جدا ؛ وليس بالحسن ألا يكون للمازنى مع رصفائه وأقرانه هؤلاء كتب أعيد طبعها مثل كتبهم مرة بعد مرة ، دعك من اهمال النقاد والدارسين له ، سواء فى الصحف والمجلات الأدبية ، أو فى المعاهد والكليات المتخصصة فى الأدب العربى ! ..

وقبل عشرين عاما حاول بعض المعجبين بالمازنى إعادة طبع شىء له فطبعوا بعض كتبه مختصرة حافلة بالأغلاط ، رديئة الورق ، سيئة الحظ مثل صاحبها !

وسمعت منذ مدة أن دار النشر التابعة لوزارة الثقافة ستعيد طبع مؤلفات المازنى ، وتجمع مقالاته فى كتب ، ولم أر شيئا من ذلك بعد ، ولكنى تلقيت نسخة جديدة من كتاب «حصاد الهشيم» للمازنى ، ظننتها قديمة لميل ورقها الى الاصفرار والسواد ، وطالعتها فإذا الأغلاط

المطبعية فيها غير قليلة ، وإذا بالكتاب لا فهرس له ، ولادراسة في أوله أو فى آخره عن المازنى تقدمه الى الناس بعد أن مضى على صدور الطبعة الأولى من الكتاب أكثر من خمسين عاما .

ومع ذلك سرنى صدور هذه الطبعة من كتاب المازنى ، وقلت : أول الغيث قطرة وربما كان الكتاب الثانى له أحسن شكلا وورقا وطباعة ، وأقل أخطاء ، ولعلهم يستدركون فيه ما فاتهم فى الأول .. ولعل .. ولعل !

فقد لاحق المازنى سوء حظه حتى عندما تذكره أهل الغيرة والنخوة من العرفاء بالأدب فى أيامنا ، فخرج كتابه على النحو الذى ذكرنا ، ولكنه على أية حال جهد مشكور جدا لدار النشر التى قامت به ، فإن المازنى هو أعظم كاتب مصري من المجددين فى الجيل الماضى ، وإن كان انتاجه ليس كبيرا جدا ، وكتبه ليست كثيرة ؛ فقد استغرقه عمله الصحفى وأكل حياته الثمينة بالثمن البخس !

وساقه الفكر إلى الاستخفاف بالدنيا وإن لم يفته منها بعض الستر وحسن الأحدوثة عند عارفيه .

وأسلمه الاستخفاف بالدنيا الى السخرية منها وإلى السخرية من الناس ومن نفسه مع الناس !

فكان فنه فى السخرية فن طبع كفن الشعراء المطبوعين ، لا تشعر

وأنت تقرؤه أنه تريث لحظة ليؤلف جملة ساخرة أو نكتة أو ما يشبه النكتة ، بل تراه متدفقا بسهولة من يواتيه طبعه بلا تكلف كنبع منبثق فى الصخر ، يمده بحر من الماء العذب كامن وراءه لا ينضب ولا يتوقف !

كذلك كان عظماء الأدباء الساخرين فى الأدب العربى وغيره من آداب العالم ، على اختلاف مذاهبهم وطبائعهم فى السخرية ، وماتتضمن من «خلفيات» تتعلق بالنظر الى الحياة والكون والمجتمع والنفس وما تخلعه موهبة الكاتب على صناعته الساخرة هذه ، وهى أدق صناعات الأدب وأحوجها الى الطبع والفطرة والموهبة .

وإن المازنى ـ فى هذا المضمار ـ ليقف فى الصف الأول بين هؤلاء جميعا شرقا وغربا .. فيما أتيح لنا أن نعلم ونتقصى .

ومن خفيف سخره وظرفه أنه حين قدم الطبعة الأولى لكتابه «حصاد الهشيم» قبل سبعين عاما ، لم يدع الفرصة السانحة تفلت دون أن يقول شيئا فقال لقارئه : «هذه مقالات لا أزعمها ستحدث انقلابا فكريا فى مصر ، أو فيما هو دونها ، ولكنى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى وإن كان فجا ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة ، بأبخس الأثمان ، وتعال نتحاسب .. إن فى الكتاب أكثر من أربعين مقالا تختلف طولا وقصرا .. وعمقا وضحولة ، وما أحسبك ستزعم أنك

تبذل فى ثمنها مثل ما أبذل فى كتابة هذه المقالات من جسمى ونفسى، ومن يومى وأمسى ، ومن عقلى وحسى ، ثم انك تشترى كتابا ، هبه لا يعمر من رأسك ، خرابا ، ولا يصقل لك نفسا ، أو يفتح عينا ، أو ينبه مشاعر ، فهو - على القليل - يصلح أن تقطع به أوقات الفراغ ، وتقتل به ساعات الملل والوحشة ، أو هو على الأقل زينة على مكتبك ، ثم أنت بعد ذلك تستطيع أن تبيعه وتنكب به غيرك ، أو تفككه وتلف فى ورقه ما يلف ، أو توقد به النار على طعام أو شراب أو غير ذلك» .. إن هذه المقدمة الساخرة لا يكتبها إلا المازنى .

الكاتب والأوهام

أكتب عن الكاتب الكبير المرحوم ابراهيم عبد القادر المازنى ، بعد أن قرأت فى الصحف اعلانا صغيرا عن مجموعة كتبه ، تعرض كاملة لأول مرة فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة «١» .

وقد أخرجت دور النشر مجموعات كثيرة لأدباء أقل من المازنى شأنا ، ولكنهم أوفر حظا .. وكان المازنى - حيا وميتا - قليل البخت !

وآثار المازنى أكثر من مجموعة كتاباته فى المعرض . وقد جاءنى

«١» أقيم فى أوائل الثمانينات .

بها أحد الأصدقاء - وحياة المازنى أعرض وأحفل من جميع كتاباته وآثاره .

ومقالاته السياسية لا تقع تحت حصر ، عالم من الكتابة قائم بذاته ، ولو جمعها الناشرون لاكتملت «مجموعته» حقا .. وهذا عمل عجزت عنه دور النشر حتى الآن ، كما عجزت عن نشر مقالات العقاد السياسية إلا قصاصات منها لا تغنى شيئا .. ولا يجهل عارفو العقاد ومعاصروه أهمية مقالاته السياسية وقيمتها الكبيرة للتاريخ والأدب .

كتب المازنى الشعر والمقالة والقصة والحواريات التى تشبه أن تكون محاولات مسرحية قصيرة .. وأوغل فى الأدب الانجليزى ، وترجم منه الكثير ، وخاض فى الأفكار الأوربية متأملا أو ناقلا أو مقتبسا أو معلقا أو ناقدا أو شارحا أو متحيرا يحاول أن يفهم أو لا يبالى أن يفهم !

وأنحى باللائمة على أدباء فى عصره سماهم «المحافظين» أو التقليديين - وكذلك كان يسميهم من على مذهبه في وقته - وركبهم بالسخر.

اتهم المازنى غرماءه المحافظين هؤلاء بأنهم صرعى قوالب لغوية وفكرية ، شعرا ونثرا ، ودعا الى القفز فوقهم .. لأنهم حاجز بين الزمن القديم والزمن الجديد .. وهل ينسى أحد من المخضرمين أو ممن سلك

طريقهم من جيلنا وقرأ كتاباتهم ما اشتجر من عراك فى العشرينات والثلاثينات بين هاتين الطائفتين الكبيرتين من أدباء مصر ؟!

ولكن الزمن الذى يكنس أتربة الذكريات ويحل الجديد دائما محل القديم ، سخر من المازنى وأصحابه سخرية لاذعة ، فلم يكد الزمن يدور قليلا فيبلغ الخمسينات ، حتى وثبت طائفة جديدة من المجددين ، تصف المازنى والعقاد وطه حسين والدكتور هيكل ، ومن اليهم ، بأنهم صاروا من القدماء ، أعداء التقدم الاجتماعي والسياسي والأدبى والفنى وكل ما يعمله الجيل الجديد أو يحلم به فى سبيل حياة أكثر تقدما !

لم يكن المازنى على قيد الحياة حين اشتدت الدعوة الجديدة ، فقد توفي - رحمه الله - سنة ١٩٤٩ وهذه الدعوة فى بداية أمرها ، لا يكاد أحد يتبينها أو يباليها ، ولكن سرعان ما اشتد ساعدها ، وفى الميدان يومئذ العقاد وطه حسين وأمثالهما ، فى بدايات الخمسينات الى أواسط أو أواخر الستينات ، فتصدى هؤلاء «القدماء» للهجمة الجديدة ، وحاولوا الضرب على أصحابها بيد من حديد .. ولعل المازنى لو عاش إلى منتصف الستينات - كزميله العقاد - وشهد هذه الوقعة الفكرية الجديدة لسارع مستسلما ساخرا من خائضيها منتصرين ومنهزمين ، مجددين وغير مجددين .

ولعل أقصى ما كان يشارك به فى هذه المعركة أن يرفع عقيرته

صائحا : عشنا وشفنا أنفسنا نحن دعاة التجديد ، يقال لنا : رجعيون وأعداء للتقدم !

كان المازنى واقعيا جدا ، لا تداخله الأوهام ، بارد العقل وإن احتدمت عاطفته أحيانا واستعرت .. فلم يكن يؤمن بما يسميه بعض الأدباء المتفائلين : «الخلود الأدبى» . هذا الخلود يحلم به بعض الأدباء وهو أضحوكة تدعو للرثاء لهم ، فأى قلة عقل هذه التى تجعل هذا الأديب أو ذاك يحلم بالخلود على ورق الكتب مئات السنين وهو تراب فى القرافة ؟!

وكتبنا مرة عن المازنى أنه كان يمت الى الوجوديين الماديين بأواصر فكرية واضحة ، وإن كان كلامه لا ينم عن اطلاع على الفكر الوجودى المادى أو الوجودى المثالى أو الغيبى .. فإن الوجودية فى عصر المازنى لم تكن مذهبا يلفت أنظار مفكرينا وأدبائنا المطلعين على الفكر الأوربى .. وحسبك أن العقاد وهو أوسع أدبائنا اطلاعا على الفكر الأوربى لم يلتفت الى الوجودية التفاتا فاحصا إلا فى الخمسينات .. بعد أن صار تلميذه أنيس منصور من أعلامها فى مصر .

مع ذلك يمكن أن يقال إن فكر المازنى يحتوى عناصر وجودية .. فالوجودية ذات أصول قديمة ترجع إلى السوفسطائيين قبل سقراط .. وكان سقراط نفسه سوفسطائيا ، وإن كانت حكمته الواقعية تجعله فى

نظرنا كأنه من حكماء العرب في الجاهلية .. والفكر الإنساني على أية حال أرحب من أن تكون جذوره الوجودية وغير الوجودية مقصورة على تراث الاغريق !

هكذا يبدو لنا المازني وجودي الفكر بلا مذهب وجودي مادي أو ديني .. فلم يكن له تحصيل يذكر في هذا المذهب من كتبه ومراجعه الأوربية أو غيرها .. ولم يمر به إلاّ مرّ الكرام ضمن قراءاته الأخرى المترامية الاطراف !

وهذا - فيما نظن - من الفروق الواضحة بين المازني وصديقه العقاد، مع أن العقاد تعاطى الفلسفة بشراهة ، ودخل في دهاليزها .. ولكنه بعد أن تجول طويلا في الفكر والحياة ، شرع يتحول شيئا بعد شيء الى الفكر الديني ، حتى صار بعد حين معدودا بين المفكرين الدينيين ، وكان بعض معاصريه من قبل يرمونه بمعاداة الدين والطعن في إعجاز القرآن .

ومن ذلك ما يذكره الأديب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي حول كلام له مع العقاد عن إعجاز القرآن ، فإن العقاد - كما يقول الرافعي - صرح خلال هذا الحوار بنفي الاعجاز .. فاتهمه الرافعي بالكفر البواح ، وقال في رسالة الى صديقه الأديب محمود أبو رية ان تحت يده «مستندا» بخط العقاد يسجل فيه أنه لا يعتقد في إعجاز

القرآن ! وقال الرافعى حرفيا: «إن الرجل ـ يعني العقاد ـ صرح لى أنه لا يعتقد بالقرآن ولا بالنبوة ولا بالوحى» !

لا دليل في يدنا على كلام الرافعي .. ولكن الثابت أن العقاد صار بعد ذلك من ذادة الاسلام ، واتخذت كتبه الاسلامية مكانا فى الأدب العربى الحديث .. وسقط الاتهام عن العقاد ، وليس بلاؤه في الإسلام أقل من بلاء الرافعي نفسه ، رحمهما الله جميعا !

كان المازنى أسلس قيادا من العقاد ، مع اتفاقهما فى بداية أمرهما حول التجديد وحرب المحافظين أو التقليديين .. وكان المازني فى كتابته أكثر اعلانا لتمرده على القديم كله ، حتي ليمس بتمرده هذا هوامش أو حواشى عن الدين هنا وهناك .. ولكن سخريته بكل شىء ، ولامبالاته كانت لاتفوته أبدا ، فعندما ذهب اليه الرافعى وأطلعه على «غلطة» فى مقالة للعقاد حول إعجاز القرآن ، كان قد نشرها فى الصحف ، قال المازنى للرافعي ضاحكا : «إن الانس والجن لايمكنهم انقاذ العقاد من هذه الغلطة» !

نذكر هذا الكلام كله عن المعركة بين المجددين والمحافظين على حد التسمية التى كانت شائعة في حينها ـ لأن المازنى الذى كان مجددا باستيعاب الفكر الأوربى وترجمته وتلخيصه وتفهيمه للقراء والنسج على منواله ، كان فى الوقت نفسه من أكابر «المحافظين» أو «التقليديين» فى

لغته وأسلوب كتابته .. وكان هذا الاسلوب بفصاحته وسجعه «نعم سجعه الذى يشبه سجع ابن العميد ـ لا يفترق فى جوهره ومظهره عن كتابات القرون الغابرة !

كان أسلوب المازنى ـ فى مجموعه ـ يذكرنا بأسلوب الجاحظ وأدباء العصر العباسى الأول من ابن المقفع الى ابراهيم بن المدير وعمرو بن مسعدة ومحمد بن عبد الملك الزيات والمبرد وأمثالهم ممن لا يحصون لكثرة براعاتهم وكثرة اسمائهم .. وكان حين يسجع يغبر فى وجه ابن العميد والصاحب ابن عباد والقاضى الفاضل ..!

وكان هذا التناقض بين أسلوب كتابته وفكر كتابته يبدو عجيبا ، ولكن الجميع أقروا كلهم بأنه استطاع أن يؤدى بهذا الاسلوب جميع ما أراد أن يؤديه الى قراء زمانه من المعانى الدقيقة المختلفة المتنوعة فى الفكر الأوربى المعاصر .

لم يكن المازنى يتعمد أن يكتب بلغة الأسلاف ، بل كانت هذه لغته الأدبية التى تجرى منه مجرى الطبع ، وتسيل من قلمه بلا تكلف ؛ فقد استوعب لغة الأدب العربى استيعابا رسخ فى سليقته وطبيعته رسوخا عظيما يندر أن يحصل لأديب فى عصرنا ، فجرت تركيبات التعبير الكلاسيكى على قلمه فى كل ما كتب ، وصار مطبوعا عليها ، كأنه نشأ بين أهلها .. والحقيقة قريبة من ذلك كل القرب لأنه نشأ على كتب أهلها

ففصح لسانه كأنه نشأ فى البادية .

ولما حاول التخفيف من هذه الطبيعة البيانية أو اللغوية فى مقالاته الفكاهية فى مجلة الرسالة وغيرها ـ فى أخريات سنيه ـ غلب فيه الطبع محاولة التطبع – فجاءت مقالاته فكهة بارعة الفكاهة ، خفيفة اللفظ ، ولكن فى مثل خفة لفظ الجاحظ تقريبا حين يتفكه ويبرع فى الفكاهة ، لا فرق إلا مسحة من الكلام العصرى الذى لابد منه ، وألفاظ لم تكن موجودة فى حضارة بغداد قبل ألف سنة .

بهذا الاسلوب العربى الحسيب النسيب «المحافظ» كتب المازنى شعره ونثره على اختلاف أغراضهما ، وشارك زملاءه المجددين فى الدفاع عن التجديد ، وساهم فى محاربة شوقى وحافظ ومصطفى صادق الرافعى والمنفلوطى وغيرهم !

ولم يكن المازنى ـ فى الحقيقة ـ وحده فى قضية الاسلوب هذه ، فإن مجددى عصره جميعا ـ ماعدا سلامة موسى ـ لم يروا فى اللغة العربية والبيان العربى ما يحول دون تجديد الافكار وأساليب الأدب وتنويعها وتطويعها لتطورات عصرهم .

رأسه قطعة من أوربا

فـى كتابه «هـؤلاء علمونى» يعـود الكاتب سـلامة موسـى الى رفع الشـعار المشـهور الذى ارتفع فى أواخـر القـرن التاسع عشـر ، مكـتوبا عليه بحـروف بارزة «مصر قطعة من أوربا» ..

وإذا أتيـح لك أن تتم قراءة الكتاب «١» وهو كتاب شائق فعلا ـ فلعلك تقول لنفسك بعد أن تنحـيه جانبا : ان سلامة موسى قد أنجز فى حياته شيئا واحدا مؤكدا ، هو أنه جعل من نفسه أو من رأسه قطعة من أوربا .

فليـس فى كتـابه هذا إلا تأثير أوربا فى رأسه أو فى نفسه ، ولكنه يدعو قـراء كتابه ـ أو يدعو بعضـهم على الأقل ـ أن يتعلموا من هـؤلاء المؤلفـين أو المفكـرين أو العلمـاء العشـرين الذين تعلم هو نفسـه مـن قراءة كتبهم ، وشـعر أن من حقهم عليه أن يقـول : «هؤلاء علمونى» !

وإذا بحـثت عن مـؤلف أو مـفكـر مـصـرى واحـد بين هـؤلاء المؤلفـين العشـرين ، فلن تجد .. فهـل كـان سلامة موسى يحاول

«١» صدر هذا الكتاب فى أوائل الستينات وعلقنا عليه بهذه المقالة .

الحجر على ذهن القـارىء المصرى بتعيين الكتـب التى لابـد له من قـراءتها وليـس بينـها كتـاب مصرى ولا كتاب عربى واحد ؟!

إن سلامة موسى ، بعـد أن يستـبـعـد تماما كل الكتب المصـرية والعربية ويحجر عليها وعلى كاتبيها من قدماء ومحدثين ، يصارح قراء كتـابه بأن هناك جريمة تعلو على جمـيع الجرائم .. «هى الحجـر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ . هذه هى الخيانة الكبرى للإنسانية»

فلماذا استبعد سلامة موسى ، عقب كلمته الصريحة هذه ، كل الكتب المؤلفة بالعربية فى مئات السنين ؟!

ألأنها تعبر عما يسميه «المجتمع الزراعى الراكد» .. وقد وقف سلامة موسى دائما موقف التنديد من هذا المجتمع الذي يتكاثر فيه ـ كما يقول ـ «مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد .. أما المجتمع الصناعى أو التـجارى المتـغـيـر فـإنه يبعث المؤلف على بحث الاخلاق والعـقـائد والافكار» ! ..

لا تصعب على أحد مناقشة هذا الرأى ، فإن أكثر دعاة التاريخ والماضى والفلسفات الرجعية والتقاليد كانوا ومازالوا موجودين في المجتمعات الصناعية ، من ألمانيا النازية الى أمريكا ، الى اسرائيل وغيرها ..

وأكثر دعاة التحرر والانطلاق يعيشون أمام عيوننا الآن فى مجتمعات مازالت زراعية أو نامية أو حتى بدائية .. ولم تكن هذه «الظاهرة» شديدة الوضوح فى عصر سلامة موسى .. فما عساه يقول عنها لو عاد الى الحياة فرآها بعينيه !

إن العبرة ليست بالصناعة ولا بالزراعة ، بل بالحركة الاجتماعية فى البلد وهدفها .

هذه الحركة الهادفة الى التقدم هى التى تجعل من الصناعة والزراعة معا حافزا للفكر العلمى الذى لا يحتقر التاريخ ولا يرمى الماضى فى القمامة ، ولا يقف حيالهما موقفا عصبيا حانقا رافضا كل موقف سواه .

ولكننا نعتذر لسلامة موسى الآن من بعض أفكاره هذه ، فلو عاش لفكر فى العدول عنها ، أو لعدل عنها فعلا ، فقد كان ـ برغم الرفض ـ محبا للتعلم من الحياة ، حبه للتعلم من الكتب ، وقد أثبتت الحياة أن أفكاره لم تكن كلها غير قابلة للنقض ، وقال بلسانه فى حديثه عن أولئك الذين علموه أن بعض مؤلفاتهم قد أفسدت ذهنه نحو أربعين سنة ، وأفقدته «الحنان والرقة والعطف» على الناس .. وكان يظن بفقده هذه المشاعر الإنسانية أنه قد أصبح «علميا» .. ثم اتضح له ـ بعد أربعين عاما ـ فساد هذا الطريق «العلمى» !

هذه المحنة الفكرية والوجدانية التي كابدها سلامة موسى عشرات السنين وأذبل فيها زهرة عمره تدعونا للنظر اليه بالعدالة المناسبة لهذه المحنة القاسية التى كانت فى حقيقتها مرضا فكريا ونفسيا لم يبرأ منه إلا بصعوبة فى أخريات حياته .

وهو يتهم المؤلف الألمانى «فيسمان» بأنه أفسد مشاعره الإنسانية الطبيعية طوال هذه السنين ، وأصابه بمركبات نفسية «تتلوها مركبات اجتماعية» .. وأقنعة بأن «تنازع البقاء» يجب أن يغمر المجتمع كما يغمر الغابة الوحشية .. فالعاجز والعليل والضعيف يقتلهم الأقوياء والأصحاء بلا حرج ،، والزنوج والهنود الحمر يزولون من الوجود مادامت هناك شعوب أقوى منهم ،، ثم قرأ سلامة موسى الفيلسوف الألمانى «نيتشة» فالتهمه التهاما لأنه ـ على حد قوله ـ «كان يدعو الى إبادة الضعفاء» ،، «ومضت سنوات كنت أحس عندما أرى إنسانا يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع والأجيال القادمة» !

هكذا عاش سلامة موسى أربعين سنة ، فكانت كتابته صدى هذا العنف الفكرى الذى يعيش فيه ولكنه ـ للعجب ـ كتب فى هذه الحقبة طائفة من أفكاره التي يمكن أن نعدها ميراثه الحقيقى لأن أفكاره الأخرى لم يكن مصدرها الا تلك المحنة ، أو ذلك الداء !

تحدث سلامة موسى فى كتابه «هؤلاء علمونى» عن عشرين علما من أعلام الفكر ، قرأ كتبهم فاستوعبها وتثقف بها .. وكان أكبر جزء فى مشروع حياته ـ كما قال ـ أنه احترف الثقافة !

ولكن هؤلاء المفكرين العشرين ليس بينهم ـ كما أسلفنا ـ مفكر واحد من مصر أو البلاد العربية قديما وحديثا ، مع أن سلامة موسى ـ وبخاصة فى أخريات حياته - كان يذكر فى كتاباته الصحفية أحيانا بعض مفكرى بلاده .

وغاندى هو المفكر الشرقى الأوحد بين أولئك المفكرين الغربيين الذين جعل فى مقدمتهم ڤولتير ووصفه بأنه «محطم الخرافات» .. كأنما أراد سلامة موسى أن يقول إنه لم يتعلم شيئا من أساتذة التراث العربى ، ولم يأخذ قليلا ولا كثيرا من الأدب العربى ، ولكن قلمه يشهد بأنه تعلم من هؤلاء الأساتذة شيئا خطيرا ، هو الكتابة باللغة العربية ، فإن أسلوب سلامة موسى بعباراته الدقيقة الواضحة ، لم يكن ليتاح له بغير قراءة طويلة مستوعبة للأدب العربى مع أن كتاباته لا تعد فى الكتابات الأدبية العالية.

ولكنه كان يحب أن يحدد مكانه بين مثقفى عصره فى مصر والبلاد العربية تحديدا خاصا . فكان يؤكد دائما أنه أوربى العقل ، وأن مصر يجب عليها أن تفكر كما تفكر أوربا ، أى تنتقل بفكرها

الى العصر الحديث .. فماذا كان يحدث لمصر لو أنها اعتنقت أفكار «فيسمان» أربعين عاما ، كما اعتنقها سلامة موسى ؟ .. هل كان المواطن المصرى ينتقل حينئذ الى حضارة أوربا ، أو ينتقل الى وحشية الغابة ؟! ..

لا نناقش اغفال سلامة موسى للسمات القومية الخاصة التى لا يصح إلغاؤها ولا يمكن أن يكون إلغاؤها مرادفا للتطوير أو دليلا على التغيير ، فإن هذه المسألة لم يكن لها مكان بين «اهتمامات» سلامة موسى الذى كان يريد لبلاده أن تصبح أوربية والسلام ، دون أن يحدد ما تعنيه كلمة «أوربا» . وكان يبدو كأنه يناقش أبسط الأمور من وجهة نظر «كونية» شاملة، ولو صحت هذه المناقشة على مستوى الكون فإنها لا تصح على مستوى الكرة الأرضية الصغيرة ، فضلا عن المستويات الأخرى الأقل التى يجىء الإنسان فى آخرها أو فى ذيلها !

لقد قرأ سلامة موسى كل شىء ولكنه لم يقرأ الناس ولا قرأ البلاد التي عاش تحت سمائها فوقع فى التناقض بين العلم بالكتب وعدم العلم بالبلاد والعباد .. وكان يسمي موقفه هذا استقلالا فكريا ، حارب فى سبيله بلا هوادة ، وخاصم أدباء التجديد فى عصره كالعقاد وطه حسين ، كما خاصم الأدباء السلفيين كمصطفى

صادق الرافعى ، برغم أن المجددين والسلفيين كانوا على خلاف شديد فيما بينهم ، ولكن سلامة موسى كان يرى أن أولئك المجددين أيضا كانوا سلفيين ولكن بطريقة جديدة !

والتناقض فى كتابات سلامة موسى بحر لا ساحل له ، ولكن البحر دائما لا يخلو من النفائس .. وهكذا كان هذا الرجل .

وكتابه «هؤلاء علمونى» جمع بين المتناقضات .. تلتقى فيه بنيتشه الذى يعد رائدا للفكر الفاشى ، كما تلتقى بجوركى الماركسى ، وبرناردشو الاشتراكي الفابى وغاندى المتصوف المسالم وتولستوى عدو الرق والجشع ، وجون ديوى فيلسوف المجتمع الأمريكى ، وفرويد الباحث فى النفس البشرية ، وسارتر الوجودى الذى يرى أن «الاخفاق» مصير جميع الأعمال الطيبة والرديئة .. ولاتنس المفكر الألمانى فيسمان الذى أفسد ذهن سلامة موسى أربعين عاما .. ولا يتسع مجالنا للأساتذة العشرين مجتمعين ! ..

وقد يدهشك ألا تجد بين هؤلاء العشرين الذين علموه الا شاعرا واحدا هو جيته الألمانى .. أما شيكسبير فلم يتعلم منه شيئا ، وكذلك بقية الشعراء المعروفين فى الآداب الأوربية كهاينى الألمانى وهوجو الفرنسى مع أن سلامة موسى لم ينس ابسن كاتب المسرح ، وديستويفسكى كاتب الرواية ، ولكنك حين تبحث

عمـا تعلمـه منهـما سـتجد أشـياء كثـيرة ، ليـس بينهـا المسرح ولا الرواية .

السبب فى ذلك أن سلامة موسى لم يكن يملك الطبع الأدبى .. كان عقلانيا بحتا .. ولو لم يكن كذلك لكان شيكسبير الشاعر ، أو بيتهوفن الموسيقار بين من ذكرهم من معلميه .

برغم ذلك كله لا ينكر المنصفون أن سلامة موسى قد أثر فى عصره تأثيرا واضحا ، كان رائدا لاينكر أحد جهوده الثقافية : علم نفسه بنفسه ، واستبحر فى القراءة والبحث عن كل معرفة صحيحة أو غير صحيحة ، وحاول دائما أن ينقل زوايا مختلفة من معرفته الى قرائه الذين تابعوه عشرات السنين حيا وميتا .

ولا غبار على دعوته الى ما كان يسميه «استقلال الفكر» و «أوربية العقل» الا تشدده فى هذه الدعوة الى حد الانفصال عن أفكار الناس ، والانعزال عن الحقائق التى يعيشونها ، وظنه بأنه فى الامكان استيلاد حل لكل مشكلة من الدماغ البشرى «المستنير» منعزلا عن الحقائق الصلبة التى تكتنفه من كل جانب .

وكان يقول إن الأدب يجب أن يصور العصر الذى يعيش فيه ، وليس هذا كلامه وحده ، فالجميع يقولونه .. ولكن سلامة موسى لم يصور فى كتاباته عصره ، بل صور العصر الذى كان يحلم به ولا يرضى بغيره

بديلا ، وهو عصر معلق في الفضاء ، لا ينتمي لغير الأوراق والأقلام التى استعملها سلامة موسى فى تصويره .

وكان يندد بالبقايا الفكرية القديمة فى اذهان أدباء بلاده ولكنه لم يسائل نفسه عن البقايا والاخلاط الفكرية التى استعارها من العصور الماضية .

إلا أن اجتهاده في الرأى يدعو الى الاعجاب والتقدير ، مهما كانت بواعث آرائه ، ومهما كان حظها من الخطأ والصواب .. لقد كان سلامة موسى ومازال متعة لمن يقرؤه ولو كان من مخالفيه أو ناقديه ، أو حتى من الساخرين منه أو الطاعنين فيه .

أسرار من حياة شاعرة

فى سلسلة «كتاب الهلال» قرأنا كتاب «صفحات من حياتى» للشاعرة المصرية المشهورة السيدة جليلة رضا.

عرفت الشاعرة منذ أربعين عاما، أو أكثر قليلا، عندما أخذت تتردد على مجلة «العالم العربى» بعد انتقال رئاسة تحريرها من الأديب الشاعر الأستاذ سيد قطب الذى صار داعية دينيا بعد ذلك، إلى الصحفى المعروف الأستاذ أسعد حسنى.

ولما عرفنى بها أسعد حسنى قال مداعبا إياها : هذه شاعرة «ناشئة» سارت خطواتها الأولى فى الشعر على يد صديقنا الدكتور إبراهيم ناجى رحمه الله.

كان ناجى يتحدث عنها حين كان يعمل معنا سنتى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ فى جريدة الجمهور المصرى، بعد عزله من وظيفته بوزارة الأوقاف فى «حركة التطهير الكبرى» التى أجريت فى المناصب الحكومية حينذاك وكانت التهمة التي عزل بسببها هى «قلة الإتاج».. وكان ناجى يسخر من «قلة الإنتاج» هذه ويقول : «أنا طبيب، فكيف أزيد من إنتاجى ؟ هل أنتج المرضى أو أزيد المصابين فى الحوادث ؟!».

وقد مات ناجى فى مارس سنة ١٩٥٣ من فرط تأثره بإخراجه من عمله الحكومى، وحزنت عليه جليلة رضا ووجدت نفسها فجأة بلا أحد يأخذ بيدها في بحور الشعر العاصفة!

كانت جليلة رضا حين رأيتها سنة ١٩٥٤ قليلة الكلام، تضع على وجهها ملامح اكتئاب فتبدو أكبر من سنها برغم جمالها الشركسى الواضح الخالى من كل تجميل.. وإذا تحدثت كان نصف كلامها عن ابنها الذى أصيب بمرض عقلى وأفسد عليها حياتها وهى مطلقة وحيدة فى الدنيا .

وكان من عملى الذى أقوم به مجانا فى «العالم العربى» نظرا للصداقة الحميمة بيني وبين رئيس تحريرها، أن أنظر فيما يرد إليها من القصائد قبل إرسالها إلى المطبعة. فكنت أجد فى شعر جليلة رضا موهبة شعرية ينقصها سعة العلم باللغة، ويعيبها أحيانا خلل فى بعض الأوزان.

كانت «ناشئة» فى الشعر على حد تعبير أسعد حسنى - رحمه الله - مع أنها كانت قد جاوزت قليلا سن الثلاثين.

ثم أدبرت أيام «العالم العربى» وانقطعت قراءتى لشعر جليلة رضا، إلا من قصائد ألتقى بها فى هذه المجلة أو تلك من حين إلى حين ، فيدهشنى أنه ينضج بسرعة وأن الشاعرة الناشئة قد اشتد عودها

ونبغت في الشعر كالنابغة الذبياني في سن الأربعين أو بعدها بقليل حتى صارت من أبلغ الشاعرات العربيات المعاصرات بيانا، وأصحهن أوزانا، وأصبحت أحسن الشاعرات المصريات بلا جدال .

وكتاب جليلة رضا الجديد دليل آخر على نضجها الشعرى والنثرى والفكرى، ولها فيه سطور، بل صفحات تعد من الشعر المنثور الفائق، ومن البيان البليغ الذى لا يتفق إلا لفحول الكاتبين.

وهذا أيضا يتفق لها في الشعر، فان في شعرها قصائد نادرة المبنى والمعنى، عميقة الشعور، بديعة التصوير، تستحق بها هذه المنزلة التى بلغتها بين شاعرات عصرها .

ويمكن القول بأن الشعر المصرى النسائى المعاصر الذى كانت بدايته عائشة التيمورية ، قد بلغ غايته عند جليلة رضا .

ولعلها أحست أنها بلغت غايتها في الشعر، وأنها توجت نفسها بعد هذا العمر الطويل في الشعر، فجلست على كرسى الاعتراف، تحكى شذرات من قصة حياتها أسوة بمن سبقنها إلى ذلك من شاعرات الغرب وأديباته وفناناته وما أكثرهن.

إن جليلة رضا توحى إلى قارىء كتابها بلهجتها الناعمة أنها تعترف له بكل شىء، مع أنها لا تخفى عنه أنه لا يمكن الاعتراف بكل شىء.

والحقيقة أن حياة جليلة رضا أغنى وأعمق مما روته فى كتابها ؛ ولو روت كل شىء أو شيئا من كل شىء، لكان كتابها هذا أحد الكتب العالمية فى باب الاعترافات.

ولكنها على كل حال امرأة «شرقية» بالمعنى الذى يعنيه الإفرنج من كلمة «شرقية» حين يتحدثون عن المرأة المصرية والعربية بوجه عام.

بدأت القلاقل فى دخيلة نفسها حين ألحقها أهلها بمدرسة داخلية للراهبات، فهذا جو غير طبيعى لتنشئة فتاة مسلمة ، زادها انفلاتا فى مشاعرها العميقة برغم احتفاظها بكل مظاهر السلوك الاجتماعى السوى، الذى يبلغ حد الوقار !

وراء هذا الوقار قصة حبها الأولى الصبيانية، والقصص التالية، حتى إذا دخلت مضمار الشعر ، صارت موردا عذبا كثير الزحام فى ذلك المجتمع الذى كان قبل أربعين عاما يبهره أن يرى المرأة فى الندوة الشعرية وبخاصة إذا كانت فى جمال هذه الشاعرة وخبرتها بمشاعر الرجال والنساء ولطف معاملتها للقريب والغريب.

وكنت أرى أسعد حسنى مشغولا بمحاولة تزويج جليلة رضا، فقال لى يوما : ما رأيك فى صديقنا الشاعر فايد العمروسى زوجا لجليلة ؟!.

كان فايد العمروسى قد أكمل بعثته فى باريس وعاد إلى القاهرة فى وظيفة كبيرة بوزارة المعارف، وكان شاعرا حسن الشعر درعميا قديما،

ساخطا على أيامه فى باريس لأسباب نضرب عنها صفحا.. فلما رأى جليلة رضا أعجبته وتكلم عنها مع أسعد حسنى، وخيل إلينا أنه سيتزوجها من فوره، ولكنه - فيما يبدو - لم يتم مشروع زواجه هذا ولعل جليلة رضا لم تشر إليه فى كتابها لأنها تراه حدثا عابرا فى حياتها .

وقد أشارت إلى الشاعر «م. ف. وهو صديقنا الشاعر محمد الفيتورى» الذى كان حريقا مشتعلا فى الحب، وكان له فى جليلة أشعار من نار، وقصص أكثرها من خياله، إذ كان شابا صغيرا مشبوب الخيال فى تلك الأيام.. وقد رأيت بعينى ومعى أسعد حسنى معارك الكر والفر، والشد والجذب فى محاولاته الزواج من جليلة ولكن كل شىء بينهما انتهى إلى لا شىء، وكان هذا اللا شىء بقية من رماد حب عنيف تحول إلى حقد أشد عنفاً !

أما الشاعر الدينى عبد الله شمس الدين - مؤلف نشيد الله أكبر - الذى تشير إليه فى كتابها بحرف «ع».. فكان من الجلى فى أمره أن حبه لها وزواجه منها إلى انتهاء عاجل .. وقد كان .

وقد أظهرت جليلة رضا مع زوجها الأخير الصحفى محمد السوادى - رحمه الله - فضائلها «الشرقية» فى الحفاظ على الزوج والبيت ، تلبية لداعى المروءة والوفاء بالرغم من زوال الأسباب التى قام عليها هذا

الزواج ، فلبثت ترعاه حتى وافاه الأجل المحتوم .. يرحمه الله !

لقد عاشت جليلة رضا حياة صعبة كان من الممكن أن تقضى على أحاسيسها الشاعرة، أو تمنعها على الأقل من الاستمرار فى قول الشعر، ولكنها خرجت من مأساة ابنها الذى مات أخيرا ومن مآسى أزواجها الثلاثة الذين رضيت أن تذكرهم فى كتابها، وقد ماتوا واحدا بعد الآخر.. خرجت من هذه المآسى كلها، ومعها عشرات من المآسى الأخرى، وهى محتفظة برغبتها الحارة فى الالتصاق بالشعر وعدم مفارقته لأنها وجدت فيه معنى حياتها ولا حياة لها إلا تحت جناحه .

وقد أخفت فى كتابها أسماء الرجال الذين التقت بهم فى حياتها بعد طلاقها الأول، ما عدا إبراهيم ناجى، أستاذها فى الشعر الذى استظلت به وابتردت من حرارة الخطوب .

وسمحنا لأنفسنا هنا أن نذكر بعضهم بالاسم، لأن من حق تاريخ الشاعرة أن يعرفهم قراؤها، وحسبها ما كتمت من الأسماء الأخرى.

ولن تكون اعترافاتها هذه اعترافات بمعنى الكلمة إذا قورنت باعترافات أترابها الأوربيات والأمريكيات. أو كانت «الحروف» هى كل حصيلتها من أسماء الرجال .. ولا شك أنها قرأت فى الفرنسية وغيرها الاعترافات التى لا تحصى للأديبات الغربيات اللاتى لم يتركن شاردة ولا واردة.

واعترافات جليلة رضا، تتستر وراء الحياء والخفر، برغم ما تتصوره من أنها قد هتكت كل الأستار ، ولكنها في الوقت نفسه – تعد أول «اعترافات» من نوعها تتقدم بها امرأة «شرقية».. ولن نجد في العالم العربي كله امرأة تجرؤ على مجاراة جليلة رضا في هذا المضمار .. بالرغم من جرأة الكثيرات على الادلاء بدلوهن في «الأدب المكشوف».. ولكنهن هنا يتحدثن بضمير الغائب ، وهن يقصدن أنفسهن، أما جليلة رضا فتحدثت بضمير المتكلم أو المتكلمة ، وهي تقصد نفسها، وإن كانت قد أسبلت سترا على ما كشفته من أسرار هذه النفس الشاعرة العميقة الشعور !

أبو نواس من سنتريس

الكلام عن الكاتب الكبير زكي مبارك يجتذب أسماع عارفي هذا الرجل الذى عرفه جيلنا وأحبه ؛ فإن زكي مبارك نسيج وحده بين أدباء جيله. تتمتع شخصيته بجاذبية خاصة ، ولا أظن أحدا قرأ هذا الكاتب أو جلس إليه أو عرفه، يستطيع أن ينساه، مع أن صوته - رحمه الله انقطع من هذه الدنيا منذ بضعة وأربعين عاما نسى فيها الناس الكثير وعرفوا الكثير، وتغير وجه الحياة والأحياء .

عاش زكي مبارك يهتف بحياة نفسه .. يسمع الناس يهتفون : «يحيا فلان» .. فيرفع عقيرته هاتفا : «يحيا زكي مبارك» .. كان يرى أنه أرفع شأنا ممن يهتف الناس لهم . بل كان يرى أنه أحق من هؤلاء بالمكانة الكبيرة فى الأدب .. وفى المناصب .. وفى المال !.

وثمة مقال كتبه زكي مبارك فى مجلة الهلال فى الثلاثينات عن الشاعر أبى نواس، لم يتنبه أحد إلى ما فيه من اعترافات زكي مبارك كتبها على لسان أبى نواس .

فمن قول زكي مبارك ان أبا نواس انما انهمك فى شرب الخمر

والغـزل بالمؤنث والمذكـر ومـا إلى ذلك ، لكي ينسي ضـيـاع حـقـه في مجتمعه.

كـان أبو نواس في رأى زكي مـبـارك يرى نفسـه حـقـيـقـا بمنصب الوزارة أو الكتابة، أو القرب الحميم من الخليفة هارون الرشيد، ولكن أبا نواس عاش حياته في عهد الرشيد صعلوكا .

ولا أتذكر الآن ما كتبه زكي مبارك بالضبط، ولكني أقول إنه لا يوجد في ديوان أبي نواس مـا يثـبت أنه كـان من حـاشـيـة الرشـيـد أو من شعرائه.. بل لا يوجد فيه ولا في كتب الأدب ما يقطع بأن الرشيد سمح لأبي نواس بالمثول في حضرته وانشاده شعرا، مع أن العامة يظنون أن أبا نواس كان من خاصة ندماء الرشيد.

والأصح أن أبا نواس لم يلتق بالخليفة الرشيد قط لقاء شاعر يعرفه الخليفة ويرتاح إليه.. ولم يجد أبو نواس حبا وكرامة في قصر الخلافة إلا على عهد الأمين الذى لم يعش في الخلافة إلا أربع سنوات كانت هي السنوات التي استمتع فيها أبو نواس وعاش كما تمنى أن يعيش .

وبعد ذهاب دولة الأمين وتربع المأمون على العرش، عاد أبو نواس إلى الصعلكة، ثم جنح إلى الزهد، ثم مات بعد قليل منسيا مطويا على أوجع الأحزان والأسقام البدنية والروحية !..

كان زكي مبارك - في مقالته التي أشرنا إليها - يتحدث عن أبي

نواس ، ويسقط الكلام بوضوح على نفسه.. كأنه يقول : أيها الناس : أحدثكم عن أبي نواس وأنا أعنى نفسى !.. فقد عاش زكى مبارك حياة تشبه في خطوطها العامة حياة أبى نواس، مع الفارق بينهما بطبيعة الحال في الزمان والمكان والخصال .

وفى كتابه «أفكار للكبار» يفرد الكاتب المرحوم فتحى رضوان مقالتين لزكي مبارك ، بين بضع عشرة مقالة عن طه حسين ويحيى حقى ومحمد كامل حسين والشاعرين شوقي ومحمد إقبال «الباكستانى» ومحمد صبرى السربوني ومحمود محمد شاكر ومحمد عبد الله عنان.

كان زكى مبارك من جيران فتحى رضوان في مصر الجديدة، فكانا يلتقيان كثيرا في المترو، في الغدو والرواح يوما بعد يوم وكانا يتزاوران، ثم تمت الالفة بينهما بعد أن صار فتحى رضوان من زعماء الحزب الوطني قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فمن مفارقات زكى مبارك، وهو الذى رفض أن يؤيد بالكتابة في الصحف أى حزب سياسي، مهما دفع له الحزب من أموال ، أو أهدى إليه من مناصب، أنه لبث يؤيد مبادىء الحزب الوطنى وأولها المبدأ الشهير : لا مفاوضة إلا بعد الجلاء !.

لم تأخذ الأحزاب المصرية بهذا المبدأ الذى أثبتت الحياة أنه غير واقعي - فقد تم الجلاء بالمفاوضة - ولكن زكى مبارك تمسك بهذا المبدأ وأقسم أنه لو سلم المصريون جميعا ، وخرج مصطفى كامل من قبره

ليصافح الانجليز لما كان في ذلك ما يزحزحه - أي زكي مبارك - قيد أنملة عن معاداة الانجليز حتى يكون الجلاء التام .

لقد كان زكي مبارك يرى نفسه خليقا بالجاه والمال والمناصب الرفيعة وينأى في الوقت نفسه عن الأسباب التي يبلغ بها مأربه هذا ، وكأنه كان ينتظر أن يجيء إليه أرباب الحل والعقد فيقدموا إليه ما يشتهي على طبق من الذهب ، وهو جالس على المصطبة في قريته سنتريس التي ملأ الدنيا باسمها وكأنها مدينة النور باريس !.

وكان يهاجم من بيدهم أن يلحقوا به الضرر ويمدح من لا مصلحة له في مدحهم،، ثم يقول : «تنصحني يا هذا بأن أنافق، ويحك ! .. انما ينافق الضعفاء .. ان الله لم يخلقني لأكون ألعوبة، أداري هذا، وأحابي ذاك.. أنا في نعمة من ذلك لا أبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم» !.

يقول فتحي رضوان تعليقا على ذلك «وتعجب كيف أفلت صاحب قلم كزكي مبارك من شباك الأحزاب التي كانت تجزل العطاء لمن يأخذ بناصرها، ويروج لمذاهبها، ويحارب بسيفها، ولو فعل ما فعل زملاؤه لتغير الأمر معه تماما، فاسمه كان سيزداد ذيوعا، ورزقه اتساعا ، ومقامه من أصحاب السلطة ارتفاعا ، ولما أمكن أن تمر البلاد على نبأ

وفاته فى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ كأنها لم تقرأ له شيئا من أدبه ، ولم تسعد به »! .

هكذا كان زكى مبارك .. أبا نواس عصرنا .. ولكنه اختلف عن أبى نواس فى أنه لم يجامل ولم ينافق ولم يزاحم لبلوغ باب ذوى السلطان وان كان يرى نفسه خليقا بمكان فى قمة المجتمع، غير متخذ ولو سببا واحدا لبلوغ هذه القمة.. فحقوقه ينبغى أن تجىء إليه بنفسها منقادة تجرر أذيالها، فلما لم يتيسر له ذلك صرخ : « لم يعان أحد من الظلم فى وطنه ما عانيت، فما زادنى ذلك الظلم الأليم إلا عرفانا بجمال وطنى .. وهل رأيتم جميلا غير ظالم ؟!».

هكذا .. مزج زكى مبارك الشكوى بالغزل الذى كان يمزجه بكل كتابته.. فالوطن هنا أشبه بجميل ظالم يحبه زكى مبارك ويشكو ظلمه وهجره !.. ويقول له : «وطنى .. إن لم أحمل السيف فى حمايتك، فقد حملت قلبى فى الدفاع عنك .. وطنى .. أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرنى فى العصبية لك، لأنك وطنى وحدى، ولأنى لا أسمح لأحد أن يسبقنى فى الوصول إلى مواقع هواك» !.

وفى السنوات الأخيرة من حياته - رحمه الله - رأى كيف أن الطريق فى المجتمع الذى عاش فيه ، لم يكن طريق الحق ، كان طريق القوة والتجارة بالمبادىء ، وقد نأى زكى مبارك عن هذا الطريق، ورفض

التعامل بقوانين النجاح فى ذلك المجتمع، فرسب فيه ونجح غيره ممن لا يبلغ بعضهم أن يكونوا تلاميذ يتعلمون فى مدرسته .

وانعكست فى كتابة زكى مبارك عندئذ حالته المعنوية ، فكان يكتب بلا روح، كأنه يئس من كل شىء ، وكنا نطالع مقالاته فى أخريات أيامه فنتساءل : هل هذا هو زكى مبارك حقا ؟! .. لقد اختفى الكاتب القوى القديم، وفارقت روحه حروف كتابته، فصارت كتابته بلا روح !

وكان هذا مما جناه عليه المجتمع الفاسد ، ومما جناه هو على نفسه، حتى صار فى أخريات عمره لا يبالى أن يراه الناس كل ليلة جالسا إلى مائدة صغيرة فوق رصيف مشرب بميدان التوفيقية يمزج ما فى كأسه بالماء، فيتحول لون ما فى الكأس إلى بياض يشبه بياض اللبن الصافى، ثم يتجرعه ، ويطلب غيره حتى ينسى نفسه ، ثم ينهض إلى المترو الذى كان حينذاك يبدأ من شارع عماد الدين فى ملتقاه بشارع فؤاد، وهى البقعة التى طالما تغزل فيها زكى مبارك وبالغ فى وصفها حتى زعم أنها أجمل مكان فى العالم، وأنه شاهد فيها أجمل جميلات العالم !.

مجنون سعاد

«مجنون سعاد» اسم كتاب مجهول للدكتور زكى مبارك .. أصله مجموعة من رسائل الحب كتبها فى الثلاثينات ونشرها فى مجلة «الصباح» التى كانت أكثر المجلات الشعبية رواجا فى تلك السنين .

و«مجنون سعاد» هو الدكتور زكى مبارك نفسه ، والفتاة التى جن بها لها اسم آخر لكنه اختار لها هذا الاسم ، وكتب إليها الرسائل الغرامية مصدرة به ، ثم نشرتها «الصباح» بتوقيع «بديع الزمان» لأن كتابة الرسائل الغرامية ونشرها على رءوس الأشهاد لم يكن يرتاح إليه معظم الأدباء فى تلك الأيام ، وان كانوا جميعا يشتهونه ، ومن بينهم من كتب رسائل ملتهبة تفيض حبا حقيقا ، ولم ينشرها .. وضاعت فى الأوراق التى أكلها الاهمال والنسيان !..

فى الثلاثينات استبدت الرومانتيكية بقلوب الشعراء والكتاب المصريين ، فكانوا يتنافسون على حب كل من تسمح لها ظروفها فى ذلك المجتمع المغلق بأن تجلس إلى الرجال وتناقشهم .. وتبتسم إلى هذا

وتعبس فى ذاك، وتنظر إلى غيرهما بعينين فارغتين من المعانى أو مليئتين بها .

كانت الأديبة الكبيرة «مى» - مثلا - تبرز فى ندوتها لعدد كبير من الكتاب والشعراء، أحبها الجميع، وليس فيهم من لم يكتب إليها رسائل غرامية، وزعم لنفسه أو للناس أنها تخصه بحبها دون أصحاب ندوتها كل يوم ثلاثاء .

ولما نظم الشاعر الكبير إسماعيل صبرى باشا هذين البيتين :

روحى على دور بعض الحى حائمة

كظامىء الطير رفافا على الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غدا

أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

كان يعبر فى الحقيقة عن مشاعر جميع الملتفين حول مى الجميلة من أدباء العشرينات، من خليل مطران إلى انطوان الجميل إلى مصطفى صادق الرافعى إلى ولى الدين يكن إلى العقاد.. إلى الآخرين الكثيرين، وفيهم باشوات وأثرياء أمثال إسماعيل صبرى باشا ، وفيهم أفندية وفقراء أمثال الرافعى والعقاد .

وما أظن أحدا من أدباء عهد مى نجا من حبها، إلا الأديب الساخر

الكبير إبراهيم عبد القادر المازني ، لأن مذهبه في الحب حماه من الوله والجنون ؛ كان يرى أن الحب جوع فإن ذهب ، لم يبق للرجل ولا للمرأة رغبة فيه !.

ولهذا أحب المازني عشرات وعشرات من الوجوه الجميلة ، حب يوم، أو حب ساعة، أو نصف ساعة، أو مجرد نظرة ، ومع ذلك كان تعبيره عن الحب بالغ القوة والطلاوة، وزعم في بعض كتبه أن قد كان له في صدر شبابه حب رومانتيكي عنيف، عبر عنه ببلاغة مؤثرة حقا ، ولكن هذا الحب، بعد انقضائه لم يعقب إلا السخرية اللاذعة والفكاهة البديعة .. هكذا كان المازني في سائر أحواله مع الدنيا وأهلها.. رحمه الله .

أما الدكتور زكي مبارك فكان رجلا قوى العاطفة ، إذا أتيح له أن يحب ولو من بعيد ، أو حتى في الخيال ، ملأ الدنيا حبا وكلاما عن الحب ، وأتى في ذلك بألطف الكلام عن أعمق مشاعر الحب، وربما أتى بأفظع الكلام دون أن ينتقص حبه هجر ولا خصام !.

تجد هذا - مثلا - في مطولاته الممتعة التي نشرها في مجلة الرسالة في الثلاثينات وسماها «ليلى المريضة في العراق».

الأصل في هذه المقالات الحب ، والكلام عن ليلى وظمياء والاخريات، ولكن الكلام عنهن تعطل وفرغ بعد حين، فلم يتوقف زكي مبارك .. واستمر يكتب تحت هذا العنوان المأخوذ من بيت الشعر القديم المعروف،

واختلطت فى كتابته السياسة بالحب بذكريات باريس، بالهجمات الأدبية، والطرائف والنوادر، والمدح والهجاء ، والزهو بالنفس، والتواضع لله فى وقت معا.

كانت العقدة التى تسللت إلى زكى مبارك فى وقت مبكر من حياته هى الشعور بالاضطهاد .. فقد اضطهده أهل النفوذ من معاصريه أعنف اضطهاد.

وكان كاتبا متميز الديباجة قوى الروح غزير المادة، متعلما فى الأزهر وباريس، ولكنه لم ينل حقه ولا بعض حقه كما نال الآخرون الذين حاربوه وذادوه عن حقه فأهدروه .. بدلا من أن يعينوه على بلوغه ، أو يسكتوا عنه على الأقل!.

ورسائل «مجنون سعاد» ليست أول رسائل غرامية فى الأدب المصرى المعاصر .. سبقتها رسائل للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي، ولا تشابه بين هذه وتلك، لا شكلا ولا مادة .

فإن الرافعى قد أحب «مى» حبا انتحاريا، فجاءت رسائله إليها أو رسائله عنها من أعجب الكلام وأعقده وأروعه وأكثره هدوءا وجنونا، وأحفله بفن الوضوح وفن الغموض !.

ولا تدرى حين تقرأ رسائل الرافعى فى فلسفة الحب والجمال على صفحات كتبه : «رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» و«أوراق الورد»

كم من الجميلات كان يحب الرافعي؟! .. فهن كثيرات الأوصاف .. ولو حازت امرأة واحدة كل ما ذكر الرافعي في كتبه من عظمة الجمال، لكانت من أهل الفضاء لا من أهل الأرض !..

ولكن هذا ليس بدعا في التعبير عن الحب الصادق ، فإن المرأة المحبوبة هي الكون الذى يعيش فيه محبها .. وان الكون لرحب إلى ما لا نهاية !.

وكان زكى مبارك أيضا يعيش في الكون اللانهائي لمن يحب من الجميلات اللاتي خلقهن الله ، أو خلقهن خيال زكى مبارك .

وله حبائب عجيبات حقا خلدهن في مقالاته .. فقد لبث في أواخر الثلاثينات يتغنى بما يسميه « ملتقى شارعي عماد الدين وفؤاد في القاهرة » .. كان لا يمل الوقوف في هذا الملتقى من العصر إلى ما بعد غروب كل يوم ليرى « الظباء » – على حد وصفه للحسان – وهو بطبيعة الحال لا يعرفهن ولا يعرفنه ، فإنما هن عابرات سبيل مع أزواجهن أو مع غيرهم أو مع أنفسهن فقط ولكن زكى مبارك كان يعتبر هؤلاء الظباء جميعا أسيرات هواه ، وملكا خالصا له ، بدون أن يبادلهن كلمة واحدة ..

وأسرف في التغنى بجمال ملتقى فؤاد بعماد الدين حتى امتلأنا تشوقا إلى هذا الملتقى ، ورؤيته ملء العينين ، وكنا حينذاك

صغارا فى الأرياف البعيدة من الصعيد ، فلم أكد أصل إلى القاهرة فى آخر الثلاثينات زائرا ، حتى هرولت إلى ملتقى عماد الدين وفؤاد لأراه ! ..

ورحم الله زكي مبارك لقد جعل من الحبة قبة ، ورسم لنا الجنة فى ذلك الملتقى المتواضع الذى لم يكن يمشى فيه عصرا ومغربا إلا بعض «الخواجات» مع ذويهن .. يونانيات وإيطاليات وفرنسيات ويهوديات ، وكانت اللغة العربية لا تكاد تسمع فى هذا الملتقى ، واللغة الغالبة هى الفرنسية ، وكان زكي مبارك يشنف أذنيه كل مساء برنين هذه اللغة على شفاه ظبائه السانحات فى ملتقى فؤاد وعماد الدين ! ..

ورسائل مجنون سعاد التي جمعتها ابنته الأديبة كريمة زكى مبارك، تسجل صورة من حلاوة أسلوب زكي مبارك وبساطة قلبه ومشاعره مع فورانها، وترينا كيف جعل من نفسه مجنون حب ، حيث لا جنون ، ولا أقول حيث لا حب ، فإن زكي مبارك كان محبا لا يخلو قلبه من الحب لحظة من الزمان .. ولهذا سمي نفسه في رسائل مجنون سعاد «بديع الزمان» .. ولم يكن يقصد استعارة اسم بديع الزمان الأديب القديم المعروف بل كان يقصد أنه بديع زمانه فى الحب .

ومن ظرفه البالغ أنه كتب لرسائله حين نشرها فى « الصباح » مقدمة تنم عليه ، لأنه مدح فيها نفسه ، ومن المؤكد أن المرحوم

. مصطفى القشاشى صاحب مجلة « الصباح » لم يكتب هذه المقدمة ، فإنه كان يترك الكتابة لغيره ، ووصف زكى مبارك قصة حبه الظريفة الخفيفة بأنها « أعنف مأساة غرامية عرفتها مصر فى العصر الحديث » .. وكذلك كانت مبالغاته المحببة إلى القلوب دائما .. ثم يصفها بأنها من «الأدب العبقرى» حتى يبلغ بيت القصيد إذ يقول ان صاحب هذه الرسائل لا يقل فى مواهبه الأدبية عن المازنى والعقاد وهيكل وزكى مبارك وطه حسين وتوفيق الحكيم .. « ولو وجد هذا الشاب من ينصفه لجعله إمام الكتاب فى هذا الجيل » ..

هكذا كتب زكى مبارك بأسلوبه الخفيف الظل ، المرح السهل الممتنع .. وقد صدق فى الموازنة بين نفسه وبين من ذكر من كتاب جيله ، ويلاحظ أنه وضع اسمه قبل اسم طه حسين ، وكانت العداوة بينهما فى وقتها مشبوبة الاوار ، وإنما أراد زكى مبارك أن يصرف الأنظار عن نفسه حين وضع اسمه بين تلك الأسماء .

ولما اعترف زكى مبارك بعد ذلك بأنه صاحب الرسائل قال : « أنا ذلك المجنون ، وأنا بديع الزمان .. كانت هذه الرسائل ترسل بطريقة سرية إلى صاحب مجلة الصباح لأننى كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ، ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال » .

الحق أن هذه الرسائل من أجمل ما كتب زكى مبارك ، ومن أحسن النماذج لبيانه ذى النكهة الخاصة التى لم يكن لها مثيل فى عصر ولا لها مثيل الآن ، فقد ذهب الرجل منفردا فى حياته وبعد مماته .

ورسائله هذه اثنتان وستون ، بعضها أسطر قلائل ، وبعضها صفحة أو صفحات ، وبما أنه كما قال فى مقدمة الرسائل كان من أكابر المفتشين فى وزارة المعارف ، فقد زعم فى رسائله أنه دكتور «طبيب» لا دكتور فى الأدب ، وأثمر هذا الزعم لمحات بديعة فى الرسائل عن الطب والأطباء ، والمرضى والأصحاء كأنما الكاتب طبيب فعلا ..

التقى زكى مبارك و« سعاد » فى سهرة أو عشاء بنادى القلم ، وهو ناد متحرر فى ذلك العهد المتحفظ ، وكان هذا اللقاء موضوع رسالته الأولى إليها ، ولكن زكى مبارك - فيما يقول - كان يحب سعاد قبل ذلك اللقاء فعمد محرر مجلة « الليبرتيه » الفرنسية إلى إجلاسه بجوار محبوبته .

يقول زكى مبارك فى هذه الرسالة : « وما أنكر غمزات محمد عوض «يقصد الدكتور محمد عوض محمد» والدكتور كامل حسين .. ولكن ماذا يعنينى ؟ .. المهم أنك أصبحت لى وحدى ، وأنى خرجت معك إلى

سينما البورتنيير يا سعاد .. خرجت من النادى وذراعك فى ذراعى ، وخرج الزملاء خروج المساكين فالشيخ مصطفى عبد الرازق «شيخ الأزهر فيما بعد» لم يكن فى صحبته غير نسخة من جريدة البلاغ ، والدكتور هيكل لم يكن يصاحبه غير عصاه » ..

ولن تجد فى هذه الرسائل إلا شذرات من قصة ، ولكنك ستقف عند وثبات بديعة من عاطفة زكى مبارك وفكره وستجد ملامح من حياته الصعبة الباسلة ؟ ..

النقاء اسمه فكرى أباظة

أكثر الذين عرفوا الصحفى الكبير فكرى أباظة - رحمه الله - يحدثونك عن عمله ونشاطه وكتابته وحياته جملة وتفصيلا ، فى شبابه وعنفوان نضجه بعد شبابه .. ويروون لك الكثير عن ذلك كله .. ثم يقولون : لو رأيته فى تلك الأيام ، لرأيت منه وسمعت ما لم تر مثله ولم تسمع قط فى حياتك ! ..

ولقد كان فكرى أباظة فى شبابه وعنفوانه كما يقولون عنه وأكثر مما يقولون عنه .. ولكنى كلما فكرت فيه - رحمه الله - تمثلت لى حياته وصورته العظيمة ، لا فى شبابه وعنفوانه ، بل فى أخريات زمانه .. ففى هذه السنوات الأخيرة من عمره اجتمعت فلسفة حياته كلها واحتشدت وتركزت ، كأنها السيل العظيم اجتمع فى ملتقى شعاب ممتدة طويلة ! .

وأضاءت الجذوة الأخيرة من دنياه وهى تنطفىء كما لم تضىء شعلة دنياه كلها من قبل، على شدة وهجها وقوة ضوئها .

فى السنوات الأخيرة من حياته كان فكرى أباظة يمشى متأبطا ذراع القضاء والقدر ، لا يدرى أين يمضى به ، ولا يزعجه أن يذهب به

هنا أو هناك ، أو يضعه فى موضع يحبه، أو فى موضع لا يراه أهلا للحب .

كان فكرى أباظة قدريا طول حياته .. ومنذ شبابه الأول أعلن فى كتاباته أنه يرضى بكل ما تجيء به إليه الدنيا من خير وشر، لأنه قضاء وقدر، ينبغي الخضوع له والرضا به وعدم الاحتجاج عليه بأية حال ! .

وعلمته هذه الفلسفة ، على امتداد عمره المديد أن يكون هادئا دائما حتى فى حالات غضبه القليلة، متسامحا حتى مع الأنذال والأوغاد من الرجال والنساء الذين اكتوى بنارهم فى دائرة عمله ، وفيما وراءها من دوائر هذه الحياة التى يطبق بعضها على بعض إطباقا عنيفا عجيبا، لا قبل به إلا لأولى العزم من الصابرين على تقلبات الحياة ..

كل شيء يقع له ، يلاقيه بصمت وامتثال للأمر الواقع ، وفوق ذلك ابتسامة ، وربما ضحكة أو نكتة ! .. لأن ما يقع له هو دائما قضاء وقدر، وقد راض نفسه رياضة تامة على التسليم به ، بل على الترحيب به ، كأنه ضيفه العزيز .

رأيت الاستاذ فكرى أباظة - رحمه الله - فى مكتبه بمجلة المصور وهو رئيس تحريرها فى أواخر الخمسينات ثم رأيته خارج هذا المكتب وقد أبعدته عنه السلطة ، فلما توسط له بعض محبيه وعارفي فضله عند السلطة ، وعاد إلى العمل ، وجد مكتبه قد شغله مرءوس له ، فظل فكرى

أباظة – وهو رئيس تحرير المجلة – عدة أيام يبحث عن مكتب آخر ، تحرجا من دخول مكتبه الذى تمسك مرءوسه بالبقاء فيه !..

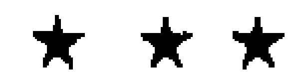
ولم تبدر منه ، فى أى حال آخر طوال اثنين وعشرين عاما رأيته وصحبته خلالها ، أية شكوى من أى شىء .. كان أقصى شكواه أن يتفكه بما يشكو منه ، أو يجعله مفتاحا لحديث شائق من أحاديث الذكريات فى الصحافة أو السياسة أو الحب أو كرة القدم ! .

وفكرى أباظة من أسرة غنية كبيرة العدد ، ولكنه لم يكن يملك مالا ولا جاها فى هذه الدنيا ، والناس يظنونه من كبار الاغنياء ومن عظماء ذوى النفوذ .. وكان فى مقدروه أن يكون كذلك لو سلك الطرق الصحيحة إلى مأربه ، ولو سلكها لنال الثراء والجاه وجلس على قمة من القمم . ولكنه تعفف وتخفف من عبء الدنيا ، واعتصم بمروءته وكبريائه وقناعته وبساطته المذهلة ، وقضائه وقدره ! ..

وهو فى ذلك نسيج وحده فى العصر الذى عاشه قبلنا ، وفى العصر الذى عشنا معه فى الصحافة المصرية وفى المجتمع المصرى .. فما رأيناه فى تعامله مع الناس يضع على كتفيه مقدار ذرة ولا هباءة من التكبر أو التعمل أو الاعجاب بالنفس أو الاعتزاز بجلائل

الاعمال .. فى حين رأينا الكثيرين سواه ينتفشون كالديكة أو كالطواويس ، لأدنى وأرخص شيء يتيسر لهم من زخرف الدنيا ، ووثارة كراسيها ، ونعومة ملمسها ! ..

وكان الناس جميعا في نظره أساتذة ومتفضلين عليه وهو أستاذهم والمتفضل عليهم .. فيقول مثلا : أستاذنا فلان قال كذا وكذا .. أو صنع كذا وكذا .. بل كان فكرى أباظة يكتب أحيانا فى مقالاته مؤكدا أستاذية بعض الناشئين عليه .. ولا تساوره خواطر الكبرياء الحمقاء وهو يقول ذلك أو يكتبه عن «زملائه» الأصغر منه سنا وعملا وسابقة في الجهاد الوطني والصحفى والادبي .. وفي كل شيء ! ..



سمعته مرة يتحدث إلي أحد الزملاء قائلاً :

- يا أخى .. ان الصداقة التى بيننا تجعل حسن الظن أقرب الينا دائما من سوء الظن ! .

وزميله هذا ، أو صديقه ، الذى يحدثه بهذه الندية التى لا زيف فيها ولا اعتمال ، لم يكن إلا انسانا عاديا ، قد لا يستطيع اقامة صداقة مع انسان عادى مثله ! .

كذلك ..كان فكرى اباظة .. أنقى انسان عرفته قط ، وأبسط إنسان

وأكثر من عرفت مروءة ومساواة لنفسه مع أصغر الناس .. في حين يضج الزمان من حوله بذوي العقد النفسية المتورمة المنتفخين بعزة المكانة أو سطوة المال أو الجاه أو التماع الاضواء حول أسمائهم ! .

ومع هذا الخلق السمح العبقري السماحة ، الذي يبدو صاحبه كأنه يفرط في حقوق نفسه ويتنازل عنها للناس .. كان فكري أباظة معدودا دائما من المعارضين ذوي الشكيمة والفتوة والثبات في معترك المعارضة ثبات المناضلين الراسخين في مواقف النضال والصيال ! .

ولقد عاش يقبض على الجمر بيديه ، ثابتا على موقفه هذا منذ طفولته في العقد الأول من القرن العشرين ، وهو تلميذ في المرحلة الابتدائية يؤيد الحزب الوطني وزعيمه مصطفى كامل .. إلى العقد الثامن الذي ألقى فيه على الدنيا تحية الوداع الأبدي ، وانصرف عنها هادئا وادعا ، لا عليه منها ولا له إلا ما سجله في الخلود من جهاده وسيرته .. متأبطا في خطوته الاخيرة ذراع القضاء والقدر ، حتى بلغ المثوى الاخير! .

كانت معارضة فكري أباظة التي استمرت سبعين عاما ، غير بعيدة ولا منفصلة عن شمائله التي تفرد بها .. فهو لم يتخل في معارضته التي لا تنكسر ، عن مروءته وبساطته وسلامة قصده ، وتسليمه بالقضاء

والقدر ، ونقاء سريرته نقاء سرائر الاطفال الابرياء .. وتقشفه العجيب كأنه زاهد أو متصوف .. وتفويضه أمره إلى الله فى كل حال ، وانطلاقه فى كل اعماله من فكرة بساطة الانسان لا من فكرة جبروته ، وغفلة عظموته ..

لهذا كان يبدو احيانا ، وهو المعارض القوى العارضة والمعارضة ، كأنه مؤيد على طول الخط .. كان بعض الناس يرونه ناقدا كمادح ، أو ثائرا كقاعد مصفق ، أو غاضبا كمبتسم بسمة الرضا والسعادة والاقتناع !.

لكنه فى الحقيقة كان إنسانا فولاذى الاحتمال متين الارادة ، بارع الذكاء ، عميق الفهم للدنيا ، لا يتقهقر الا استجابة لما وقر فى أعماق وجدانه من التسليم بالقضاء والقدر تسليم الانسان الذى خلق ضعيفا وان كان أقوى الاقوياء !..

وقد لمس زميلنا المفضال الاستاذ فاروق أباظة فى كتابه الذى سماه : «فكرى أباظة .. فارس المعارضة» جوهر الحياة السياسية والصحفية لهذا الرجل العظيم حين أدار كتابه كله حول مواقف المعارضة التى وقفها فكرى أباظة فى البرلمانات ، أو فى الصحف ، فلقد عاش هذا الفارس النبيل معارضا طوال حياته ، يريد بمعارضته أن ينشىء عالما أفضل من عالمنا ، ولكنه كان يتفهم جيدا

منذ بداية أمــره فى هذا المجال أن المعارضة هى واجب يؤديه استجابة لضـميره ومثله العلـيا ، أما «اصــلاح الكون» فإنه من اختـصـاص القضاء والقدر .

ولم يقع فى ضميره ولا فى نفسه أى تناقض بين ما يريده أن يكون وبين ما هو كائن فعلا ، فحسبه أنه نهض بواجبه فى كل موقف ، وليس عليه بعد ذلك بلوغ ما يريده أو ما يحلم به ! ..

رحم الله فكرى أباظة ، كان والله من أندر الرجال فى كل ما يتصف به الرجال من المروءة والأريحية وسلامة الصدر وسعة العقل ويقظة الضمير ، ونجدة الفارس الباسل ! .

ولعل هذا الكتاب الذى نشره زميلنا فاروق أباظة عن أستاذه وأستاذنا فكرى أباظة ، يفتح الباب لكتب أخرى كثيرة عن هذا الرجل العظيم ، الذى أوشك قومه أن يضيعوه حيا وميتا ، وهو من أجدر الناس بالتخليد .

وأخشى أن نسمعه ذات يوم من وراء الغيب يتمثل بقول الشاعر العرجى حفيد عثمان بن عفان :

أضـــاعونى وأى فتـى اضاعوا

ليـوم كريهـــة وسـداد ثغــــر !

المطربة
ورئيس الديوان

الكثيرون من محبى صوت أسمهان مازالوا يقولون : لو عاشت لملأ صوتها الدنيا وشغل الناس ، ومع أنى أقول مثلهم بأسف بالغ : ليتها عاشت .. لكنى أقول : لو عاشت اسمهان - رحمها الله - لما عاش صوتها، لأنها خلقت للمغامرات الكبرى لا لاحتراف الغناء !

فى أواخر سنة ١٩٤٣ كنت مع صديقين من صغار الطلاب نمر بشارع المساحة بالدقى، فتوقفنا عند مدخله فى ميدان عبد المنعم - لا أدرى اسمه الآن - وتعلقت أنظارنا على امرأة أنيقة رشيقة غضة الشباب، تخرج من قصر فى ذلك الميدان ..

هتف أحدنا :

- هذه اسمهان ! ..

رد الآخر :

- غير معقول ! .. اسمهان تركت مصر منذ سنوات ! ..

وتحركنا فى سرعة إلى باب حديقة القصر .. نسأل البواب بسذاجة عن هذه السيدة !

اتسعت عينا البواب دهشة وغضبا، ورمانا بنظرة تهديد ، ومد سبابته نحونا منذرا :

– إمش أنت وهو من هنا ... إمش !

أخافنا البواب النوبى الضخم فمشينا ، ولكننا توقفنا عند عمارة قريبة من ذلك القصر، وتقدمنا إلى بوابها نسألة بأدب جم واحتشام :

– ياعم .. من صاحب هذا القصر المجاور لعمارتكم ؟!

رد الرجل بسرعة وسماحة رد عليم ببواطن الأمور :

– هذا قصر حسنين باشا ..

– حسنين باشا من .. يا عم ؟!

– عجيب يا أخى أنت وهو .. حسنين باشا رئيس الديوان !

– الديوان الملكى .. ياعم ؟!

غضب بواب العمارة من جهلنا .. وتغير وجهه ، حتى ظننا أنه سيطردنا بغير اجابة عن سؤالنا كما فعل زميله بواب القصر، لكنه عاد إلى سماحته وقال بهدوء :

– نعم ، الديوان الملكى !

انصرفنا يسأل بضعنا بعضا :

- إذا كانت تلك اسمهان فمتى جاءت إلى مصر ولماذا ؟ .. وما شأنها بقصر حسنين باشا رئيس الديوان ؟!

ولبثنا مختلفين حول هذه الأمور ، حتى نشرت بعض المجلات حديثًا لاسمهان ، وزفت إلى القراء بشرى عودتها إلى عالم الغناء بعد ذلك الانقطاع الطويل ! ..

كان جيلنا معجبا باسمهان منذ شاهدناها فى فيلم «انتصار الشباب» مع أخيها فريد الاطرش سنة ١٩٤٠ ولما تركت مصر إلى فلسطين وسوريا ولبنان ، صرنا نتعجب من أمرها ونتساءل :

- كيف يكون لها هذا الصوت الرائع ثم تحتجب وتنقطع عن الغناء؟!

وظللنا بين الإعجاب بصوتها والتعجب من أمرها حتى طلعت علينا الصحف بنبأ عودتها ، ثم فاجأتنا بقصتها «البوليسية» المثيرة مع زوجها» أحمد سالم الذى أطلق عليها الرصاص فلم يصبها وأصاب نفسه .

نشرت الصحف هذه القصة فى أوائل يوليو سنة ١٩٤٤ بتوسع لفت الأنظار وأطلق علامات الاستفهام ؛ فالحرب العالمية الثانية محتدمة نارا .ما فى جبهتيها الغربية والشرقية ، لكن الرصاص الذى أطلقه أحمد سالم على اسمهان غطى على دوى القنابل التى تطلقها مدافع الجيوش

في ميادين الحرب ! .. و«المانشيت» الذى نشرت به «الأهرام» معركة اسمهان وأحمد سالم ، أكبر من المانشيت الذى نشرت به معارك المارشال جوكوف لتحرير بيلوروسيا وبولندا ، ومعارك الجنرال ايزنهاور الزاحف إلى باريس فى تلك الأيام التى كانت الأقدار ترسم فيها مصير الحرب كلها ! ..

كنا نجهل تماما ما وراء الستار فى حياة اسمهان المطربة ذات الصوت الملائكى .. ولا نتصورها إلا شعرا وخيالا وطيوفا ساحرة وحتى حادث اطلاق الرصاص عليها وما أثاره من غبار حولها لم يغير تصوراتنا الشعرية المحفوفة بالخيال !

ولما غرقت فى «ترعة الساحل» بعد أيام قلائل من اطلاق الرصاص هيلها بكاها عشرات الألوف من أبناء جيلنا ومن الأجيال الأكثر نضجا كذلك، وبعضهم شرع فى الانتحار وتم انقاذهم ، وآخرون انتحروا ولم ينقذهم أحد ..

وفى تاريخ الغناء العربى كله ، لم يكتب الشعراء والأدباء عن مطربة أكثر مما كتبوا عن أسمهان ، وشغلت مأساة حياتها وموتها كثيرين آخرين لم تكن لديهم موهبة التعبير عن احساسهم بشعر أو نثر .

وقد عشنا زمنا بعد رحيلها نترنم بقصيدة الشاعر اللبنانى بشارة عبدالله الخورى التى منها هذا البيت :

أضـــاع جبـريل من قيثاره وترا

فى ليـلة ضـل فيها نجمه الهادى

كانت اسـمهان فى رأى الشـاعر بشـارة الخـورى ، وترا من قيثارة ملائكية ضاع فى ليـلة حالكـة السواد حجبت السحب الكثيفة فيها ضوء النجوم !

أما الشاعر على أحمد باكثير ، فخلع رداء التحفظ وبكى اسمهان بقصيدة من عيون شعره ، قال منها :

غرقت .. كيف يغرق النور والحسن «م»

وفن الخـــلود فى شــــبر مـاء ؟!

ماتقـــولون ؟ .. هل تجـدون أو تلهون

أم هـــل يجـد صـرف القضاء ؟!

لو حـــواها البحـر العريض لضــاق ..

البحر ذرعـا عن روحـها الشـماء

أو حـوتها الصحـراء لا نتفضت ظـلا
ومـــاء فــى جنـــة خضـــراء

وقلنا نحن من قصيدة :

اســـمهـان .. أى طيـــر تعـــس
غـــال آهـــاتك لمـــا نعـــبا ؟!
طـــرق الســـمع فغشـــاه أســـى
وأتـــى النفس فشبت لهبـــــا
أين صـــوت كـان إن غـــنى لنـــا
وثب القلـــب اليـــه وصـــــبا
ذو أنـــين وحـــــــنين إن ســــرى
مـس دمعـــا جامـــدا فانسـكبا

لقد لفت صوت اسمهان أسماع جيلنا والجيل الذى سبقنا ، وأعجبتنا جميعا شخصيتها المشعة بالجاذبية الفائقة ، فلا عجب أن يتحزن لها شعراء كبشارة الخورى وباكثير ، ومعهما الشبان الصغار من أمثالنا فى ذلك الحين ! ..

كانت اسمهان صوتا دقيق الملامح ، فريد النبرات ، مطربا أشد الإطراب ، من أعلى جوابه إلى أدنى قراره ، وفى هذا الصوت البديع

امتزج صوت المرأة وصوت الكمان وصوت القانون وصوت الناى وصوت الحمامة المطوقة ، فى تركيب عجيب فاتن يكاد يجعل منه صوتا غير بشرى !

واكتملت له صفات القوة والوضوح وشدة الأسر ، فإذا استعرضنا الاصطلاح الأوروبى ، فهو صوت من قسم «السوبرانو» فى الأصوات النسائية ، غني بمقاماته ومساحته ، ولم يكن جماله خافتا كبعض الأصوات الجميلة ، بل كان عاليا متوهجا كعين الشمس .

ولكن اسمهان - رحمها الله - لو عاشت لفقدت صوتها وعاشت على ذكراه تتحسر بعد فوات الأوان ، فقد كان مذهبها فى الحياة يؤدى إلى هذه النتيجة الفاجعة .

لقد بدأت اسمهان تفقد صوتها فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها، وهى السنوات التى عرفت فيها محمد التابعى الصحفى الكبير، وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، ومراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية ، وعددا آخر من الوجهاء والاكابر .

ولما دخلت اسمهان فى خدمة الاستخبارات البريطانية منذ سنة ١٩٤١ كان ذلك ايذانا بخروجها من عالم الغناء ولو بعد حين !

ولكن هذا آخر القصة الذى عليه يسدل الستار فلنعد إلى بداية هذا الفصل الأخير كما رواه الصحفى الكبير محمد التابعى فى كتابه

«اسمهان تروى قصتها» ثم فى كتابه : « أسرار الساسة والسياسة» .

كان التابعى أستاذا من أساتيذ الصحافة المصرية ، أسلوبه فى الكتابة لا يدانيه أسلوب صحفى آخر فى سلاسته ولباقته وطلاوته، حتى عده بعض النقاد من الأساليب الأدبية الجديدة التى أدخلتها الصحافة فى عالم الأدب .

وفى كتابه الرائع عن «اسمهان» يروى قصتها معه، وقصته معها بحذافيرها ، ويطلعك على خفاياها بألطف بيان وأعف لفظ وأبرع إشارة بلا كلمة مباشرة أو تلميح جارح ، حتى تظن حين تفرغ من قراءة هذا الكتاب أنك رأيت كل شئ ، وأنت لم تر شيئا ، أو لم تر إلا القليل ، ولكنك على أية حال استمتعت وامتلأت دهشة وسرورا .

وفى كتابه ، « أسرار الساسة والسياسة » يكمل التابعى فى سياق الأحداث قصته وقصة أحمد حسنين باشا مع اسمهان .

رأى التابعى اسمهان لأول مرة فى بداية الثلاثينيات وهى تغني فى كباريه أو صالة الراقصة مارى منصور، وكان الأثر الذى تركته فى نفسه هو أنها - على حد تعبيره - «شىء صغير نحيل مسكين يبعث الرحمة فى الصدور» !

وفى سنة ١٩٣٢ جاء من سوريا أحد أقربائها وتزوجها ونقلها إلى السويداء أو إلى دمشق أو بيروت .

وبعد ست سنوات انفصلت اسمهان عن زوجها وعادت إلى القاهرة تجرب حظها من جديد ، ولم تطرق باب كباريه ماري منصور بل تلقفها الموسيقار عبد الوهاب ولحن لها ماغنته معه في قطعة من مسرحية «مجنون ليلى» ظهرت فى أحد أفلامه ومازالت هذه القطعة الرائعة متداولة فى الإذاعات مسموعة من الجماهير ، كأنها خرجت أمس من حنجرة اسمهان ، وكأن اسمهان مازالت فى ربيع الحياة .

وعن طريق عبد الوهاب عرف التابعى اسمهان ، وعقد عبد الوهاب بينهما التعارف ثم تركهما وشأنهما ومضى يتفرج ويتسلى بما يقع بينهما من شئون وشجون!

والتابعى هو الوحيد الذى كتب قصته مع اسمهان بين جميع من عرفوها ، من نجوم المجتمع المصرى، فى الثلاثينيات والاربعينيات، وليس فيما كتب مغالاة ولا خيال ولا إعجاب بالنفس ، فقد كانت تجاربه كثيرة ، أكسبته كثرتها تواضعاً ، وكياسة فى النظر إلى أشد الأمور إثارة ، فقد عرف الخبئ وراء كل بريق فى عينى امرأة جميلة .

ولو ذهبنا معه إلى كل مكان شهد فصلا من قصته مع اسمهان لمشينا حتى أعيينا، فقصته طويلة ذات فصول وهى فى الحقيقة أكبر القصص فى حياة اسمهان ، وأظن ظنا - غير مستيقن - أنها من أكبر

القصص فى حياة التابعى على ضخامة ما اضطلع به من بطولات قصص الحب فى عصر الرومانسية الباهر .

وإنما نريد هنا أن نلم بقصتين متداخلتين فى حياة اسمهان ،، قصتها مع حسنين باشا رئيس الديوان وقصتها مع وكلاء الجاسوسية البريطانية ، والفرنسية ، والألمانية خلال الحرب العالمية الثانية .

يحدد التابعى بدقة يوم عرفها حسنين باشا ،، ففى ٨ فبراير ١٩٤٠ التقيا فى حفلة اقامها التابعى بمنزله فى الزمالك، وكان كثير الحفلات ، ولم يذكر مناسبة الحفلة ، إلا أنها - على أية حال - كانت مفتاح التعارف بين المطربة الجميلة ورئيس الديوان .

ولم تمض على الحفلة أيام قلائل حتى دعا حسنين باشا صديقه التابعى مع اسمهان إلى الغداء ، ثم إلى حفلة ساهرة فى داره ، ثم توالت الحفلات والسهرات عند التابعى ، أو عند أصدقائه ، أو عند حسنين باشا، فتعددت فرص اللقاء بينه وبين أسمهان .

ولم يكن لاسمهان فى تلك الأيام عمل يدر دخلا كبيرا ولكنها - مع ذلك - كانت تقيم فى فندق ميناهاوس وهو أغلى الفنادق أيامئذ .

يقول التابعى : «دعتني مرة لتناول الشاى معها بفندق ميناهاوس، وبينما نحن جالسون نتحدث دخل علينا حسنين باشا ، وقالت هى بعد انصرافه إنها لم تدعه لتناول الشاى وإنه جاء على غير موعد، وقد تكون صادقة فى قولها هذا يومئذ» .

يتساءل التابعى : هل أحبت أسمهان أحمد حسنين وهل أحبها أحمد حسنين ؟

أما اسمهان فكانت لا تحب أحدا ، هكذا يؤكد التابعى فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكنها تأنس إلى هذا أو ذاك ، من الرجال أنسا مؤقتا ، ومع ذلك لم تستطع إلا أن تتريث قليلا عند حسنين ، لماذا ؟ .. يقول التابعي : لأن أحمد حسنين «كانِ رجلا ولا كل الرجال .. كان يفتن يسحر ويبهر ويستوقف النظر فى أية حفلة مهما اشتد فيها الزحام ! شكله .. مظهره .. أناقته .. رجولته .. اسمه المدوى .. تاريخه الملئ .. منصبه الخطير .. مغامراته المشهورة .. حديثه الساحر ، خبرته العميقة بالنساء ، فلا عجب أن بهرت به أسمهان ، ولأول مرة أحست بما يشبه لحب» .

ولكن هل أحبها حسنين باشا ؟

يجيب التابعى : «نعم .. أحبها وفى غير تحفظ إلا ما كان يفرضه عليه منصبه الكبير الخطير .. وكان حبه لأسمهان أمرا معروفا فى المحيط الرفيع الذى يتحرك فيه» .

وكان حسنين باشا متزوجا من السيدة لطيفة بنت الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد ، فكان بهذا الصهر يعد من أقرباء الأسرة المالكة ، وكان صديقا خاصا للملكة نازلى والدة الملك فاروق منذ عام ١٩٣٧ ، ثم

طلق زوجته بناء على طلبها بعد أن ذاع وشاع ما بينه وبين الملكة نازلى، ولم يطب له أن يكون مجرد صديق للملكة ، وعزم على أن يتزوجها ، فبدأ يبتعد عنها لتزداد ولعا به ، وطال ابتعاده عنها فذهبت إليه ، ودار بينهما الحوار التالى كما يرويه التابعى :

قالت نازلى لحسنين :

- أنا أعطيك إنذارا نهائيا ، اما أن تعاملني كامرأة أو سأقطع كل علاقة بيننا وأصبح حرة أفعل ما أشاء .

وأجاب حسنين وهو يتظاهر بالبكاء أنه لا يستطيع أن يقربها إلا إذا تزوجها على شرع الله وسنة رسوله ، ثم أسرع يقول :

- وغير معقول أن أتزوج الملكة .

وهنا صاحت الملكة نازلى :

- طظ فى لقب الملكة !

واشتد الجدال بينهما حتى قالت له نازلى ساخطة ثائرة :

- يعنى عاوزنى أعمل إيه ؟! .. زوجة .. لا ! . رفيقة .. ؟! .. لا ! .. عاوزنى أبقى إيه ؟!

ثم قالت :

- سأذهب إلى فاروق وأقول له إنى سأتزوجك !

قال حسنين :

- اذهبى .. ولكنه سيرفض !

وذهبت الملكة نازلى إلى ابنها الملك فاروق وعرضت عليه الأمر، تفكر مليا ، ثم قال لأمه بهدوء وسكينة :

- رافقيه أحسن !

قالت لابنها :

- إنه يرفض أن يكون عشيق الملكة !

قال الملك :

- سأصدر إليه أمرا ملكيا بذلك !

ولعل فاروقا - كما يقول التابعى - كان يسخر من أمه ! ولعله - كما يبدو الآن - كان جادا كل الجد !

وهربت نازلى سنة ١٩٤٢ إلى فلسطين وأقامت بفندق الملك داود فى القدس ، تراقص الضباط البريطانيين ، فاضطر الملك فاروق إلى مصالحتها والموافقة على زواجها من حسنين ، ولكنه اشترط أن يكون عقد الزواج عرفيا، يقول التابعى : «وهكذا كان .. تزوج أحمد حسنين ابن المرحوم الشيخ محمد حسنين العالم الأزهرى بالملكة نازلى أرملة الملك أحمد فؤاد ، وكان أحد شهود العقد المرحوم الأستاذ سليمان

نجيب مدير دار الأوبرا ، وكان حسنين يثق كل الثقة بحذره وكتمانه ، ومثله الملك فاروق ، أما الشاهد الآخر فلعله كان مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية أو لعله كان أحد خدم فاروق المقربين » !

ماذا كانت اسمهان تصنع عندما تم زفاف حسنين ونازلى زوجين سعيدين فى «سراى الدقى» التى ورثتها نازلى عن والدها المرحوم عبد الرحيم صبرى باشا .

إن حسنين باشا لم يتخل عن اسمهان ولكنها هى تخلت عنه وسافرت إلى فلسطين فى مهمة كلفتها بها الاستخبارات البريطانية .. يقول التابعى : « إن بريطانيا لجأت إلى المطربة اسمهان لتستعين بها على دخول سوريا ولبنان وطرد قوات حكومة فيشى الفرنسية التى كانت قد أسلمت زمامها للألمان ، وكانت بريطانيا قد نجحت قبل ذلك بشهر واحد فى القضاء على ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق ونشطت إلى تثبيت أقدامها فى الشرق الأوسط والقضاء على كل نفوذ لألمانيا فيه» .

كان الاتفاق بين بريطانيا واسمهان سهلا سريعا ، التقى المستر نابيير نائب مدير الدعاية فى السفارة البريطانية ، بالمطربة اسمهان فى حديقة سطح فندق الكونتننتال وقال لها : إنه يريد أن يحدثها فى أمر فيه نفع لها ولبريطانيا، فإذا وافقت فما عليها إلا أن تسافر إلى القدس وتنتظر قليلا بفندق الملك دواد ، وبعد ذلك تسافر إلى عمان ثم إلى

سوريا ومعها أربعون ألف جنيه ، تساوى أربعة ملايين الآن ، لتوزعها على رؤساء قبائل البادية وشيوخ الدروز في السويداء .

أدت اسمهان مهمتها على خير وجه ، ودخلت القوات البريطانية سوريا ولبنان وطردت ممثلي حكومة فيشي من هناك ، وعادت اسمهان من جديد زوجة لابن عمها حسن الاطرش ، ولكنها أقامت بمفردها فى القدس لا تبرحها إلا إلى تل أبيب أو حيفا أو يافا ، وأصبح بذخها واسرافها مثار الأحاديث .

ثم بدأ الانجليز يقبضون عنها أيديهم بعد انتهاء مهمتها ، وهنا هبط عليها وكلاء المخابرات الألمانية يعرضون عليها أن تعمل لحساب الألمان ، وأعدت كل شئ للسفر وركبت القطار من حلب قاصدة الحدود التركية ، ولكنه لم يكد يقترب من الحدود التركية حتى توقف ودخل ضابط بريطانى وطلب إليها أن تغادر القطار ، وكانت إحدى السيارات الحربية فى انتظارها ، وعادت بها إلى حلب .

هكذا عرف الانجليز أن جاسوستهم الحسناء قد أدارت ظهرها اليهم وتوجهت للألمان .

يقول التابعي : ولكن السلطات الفرنسية فى سوريا لم تلبث أن مدت يدها إلى اسمهان ، إلا أن فرنسا «الحرة» كانت فقيرة ولم يكن بوسعها أن تمنح عميلتها أكثر من ثلاثمائة جنيه فى الشهر ، فضاقت الدنيا

باسمهان ولم تعرف كيف تعيش بهذه الثلاثمائة بعد أن كانت تعيش بثلاثة آلاف .

وكان ينزل بفندق الملك داود بالقدس أحد كبار موظفى وزارة الخارجية المصرية فى تلك الأيام ، فأعجبته اسمهان كل الاعجاب وأقسم لها لئن عاد إلى مصر ليسعين فى عودتها بكل الوسائل !

وعاد الموظف الكبير وتحدث إلى صديقه حسين سعيد خال الملكة فريدة ، وأطنب له في وصف اسمهان وصوتها وسحرها وفتنتها ، وكان حسين سعيد يومئذ مديرا لستوديو مصر وشركة مصر للتمثيل والسينما التى أنشأها طلعت حرب، فسافر إلى القدس وجاء باسمهان ، بعد أن وقع بدوره أسير فتنتها وسحرها ، على حد تعبير التابعى .

وهكذا عادت اسمهان إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٩٤٣ ، عادت إلى أحمد حسنين باشا رئيس الديوان .

وكانت حين رأيناها تخرج من قصره – كما تقدم فى أول الكلام – لم تزل في بداية عهدها الجديد بالقاهرة .. وفى بداية عهدها الجديد كذلك مع أحمد حسنين باشا الذى كان قد أصبح زوجا للملكة نازلى منذ سنتين وكانت نازلى يومئذ فى الثانية والخمسين من عمرها، وكانت اسمهان فى الحادية والثلاثين .

ارتفع الستار عن الفصل الأخير ، واسمهان على خشبة المسرح ،

جاسوسة سابقة لثلاث دول ، وزوجة سابقة مطلقة أربع مرات ، مرة من زوجها الأول المطرب فايد محمد فايد ومرتين من زوجها الثانى حسن الاطرش ، ومرة من زوجها الثالث أحمد بدرخان ، ثم هى الآن زوجة شرعية لزوج رابع هو الوجيه أحمد سالم الذى كان صديقا لعدد كبير من الممثلات والراقصات .. وكان حين تزوج اسمهان فى القدس يصحب الراقصة تحية كاريوكا وهى فى جولة فنية هناك .

ومع كثرة صديقات أحمد سالم كان غيورا على أية امرأة تنتسب إلى اسمه بالزواج أو بالصداقة .

فلما علم أن اسمهان قد عادت إلى حسنين باشا كأنها لم تكن فارقته بضعة عشر شهرا ، ثار الدم فى عروقه ، واندفع يراقبها ، فرآها تدخل قصر الباشا وتخرج منه ، ورفع سماعة التليفون وطلب حسنين باشا :

- من حقى أن أسألك يا رفعة الباشا ماذا كانت زوجتى تفعل عندك ؟!

ورد حسنين باشا :

- عيب يا أحمد دا انت زى ابنى .. ومراتك زى بنتى وأنا كنت فاكر انها قالت لك ، وإنك عارف بزيارتها لى !

واستمر أحمد سالم يراقب اسمهان ويقف لها متخفيا على مقربة من قصر الباشا حتى أيقن أنهما على رباط وثيق ، فانتظرها في البيت وعاتبها واشتد بينهما العتاب فأطلق عليها رصاصة هربت منها إلى بيت الجيران .

ولما جاء إليه رجل البوليس السياسى المشهور حينذاك الاميرالاى إبراهيم إمام ليقبض عليها تلقاه أحمد سالم برصاصة أعقبها برصاصة أخرى استقرت فى صدر أحمد سالم نفسه !

كانت حادثة سياسية مائة فى المائة ، لا مجرد مشاجرة زوجية ، ولهذا انتدبت لها الحكومة أبرع ضباط القسم السياسى فى وزارة الداخلية .

وخرجت الصحف بالمانشتات العريضة تروى قصة المعركة .. كأنها من معارك الحرب العالمية الدائرة فى تلك الأيام .

وكانت اسمهان تعمل فى فيلمها «غرام وانتقام» فاستأذنت من مخرجه يوسف وهبى فى اجازة قصيرة تقضيها فى رأس البر للاستجمام .

وكان اسم الفيلم يلخص في سخرية عجيبة قصص «آمال أو اميلى الاطرش» الشهيرة باسمهان مع أزواجها الأربعة ، بل كان يلخص حياتها كلها مع الرجال ، من زبائن صالة مارى منصور فى بداية

الطريق ، إلى العلية والكبراء ورجال الدولة المصرية والبريطانية والفرنسية وكل من عرفوها وهى نجمة ساطعة !

وابتلعتها مياه الترعة الصغيرة فى طريق رأس البر ! غرقت فيها السيارة التى تقلها ونجا سائقها من الغرق .

وثارت التساؤلات والأقوال من جديد .. كيف غرقت هى وحدها وكيف نجا السائق وحده ؟!

انتهت قصة اسمهان فى مياه ترعة الساحل ، ولكن اسمهان كانت قد انتهت قبل أن تفتح لها ترعة الساحل ذراعيها وتأخذها إلى أعماقها القاتلة !

ولو عاشت اسمهان - رحمها الله - سنوات قلائل أخرى فى هذا الصخب الماحق ، لقتلت صوتها بالشراب ، والدخان ، وسهر الليالى .

وما كان شئ ليبقى من اسمهان بعد ذهاب صوتها !

زعامة سياسية
وزعامة غنائية

كانت تلك الحفلة فى مسرح الأوبرا «الملكية» أجمل حفلات سنة ١٩٢٥ على الاطلاق وأعظمها إثارة للتعليقات المختلفة فى الأوساط الفنية والأدبية والصحفية والسياسية وغيرها .

احتشد فى الحفلة كبار الممثلين والمطربين والمطربات فى تلك الأيام ، وكانوا مرشحين لجوائز قيمة أهدتها اليهم وزارة الأشغال العمومية .. وبينهم جورج أبيض ويوسف وهبى وزكى طليمات وعبدالله عكاشة وعبد العزيز خليل وزكى مراد وحامد مرسى وروز اليوسف وفاطمة رشدى.. وكانت منيرة المهدية نجمة الحفل المشار إليها بالبنان !

وأذكر أني كتبت منذ سنوات شيئا حول هذه الحفلة «التاريخية» فسأل بعض زملائنا شيخنا المرحوم الأستاذ فكرى أباظة عن صحة ما كتبناه ، فأبدى - رحمه الله - دهشته واتصل بى يسألنى : من أين جئت بهذا الكلام ، فلما أجبته تذكر واقتنع وزالت دهشته ..

ودعنا الآن نبدأ الحكاية ..

فقبل سبعين عاما كانت وزارة الأشغال العمومية تشرف رسميا على

الفنون المسرحية في مصر ، لأن هذه الوزارة - ومهمتها الأساسية الري والطرق والجسور - كانت مسئولة أيضا عن المحافظة على مباني مسرح دار الأوبرا ، فامتدت مسئوليتها إلى الفن المسرحي ذاته، واجتمعت في يد وزير الأشغال وموظفي وزارته مقاليد الري والمعمار والفن في وقت واحد !

وفي سنة ١٩٢٥ اعتمدت وزارة الأشغال العمومية ميزانية هائلة تبلغ ألفي جنيه بعملة ذلك الزمن ، تشجيعا للفن المسرحي ، وخصصت من هذه الثروة ثمانمائة جنيه جوائز للمتفوقين من رجال المسرح وسيداته وآنساته !

وكان لابد من حفل يناسب المقام توزع فيه هذه الجوائز الثمينة ، فأقامته الوزارة في دار الأوبرا ودعت إليه كبار موظفي الري وغيرهم من رجال الحكومة ، وبعض كبار الصحفيين والأدباء ، ومنهم الكاتب الشهير المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل وكان في ذلك الوقت رئيسا لتحرير جريدة «السياسة» لسان حزب الأحرار الدستوريين .

وبدئت الحفلة بخطاب رسمي ألقاه سعادة وكيل وزارة الأشغال العمومية عن الفن المسرحي وفوائده .

ثم أخلى سعادة الوكيل المسرح لسلطانة الطرب منيرة المهدية

وفرقتها الموسيقية ، فجلجلت تحت قبة الأوبرا حنجرة السلطانة وهزت الحاضرين طربا .

في سنة ١٩٢٥ كانت أم كلثوم قد استقرت في القاهرة منذ ثلاثة أعوام، وكانت تغنى كل ليلة تقريبا ، ولكنها كانت بالقياس إلى منيرة سلطانة الطرب ، مجرد مطربة ناشئة صغيرة السن ، متواضعة الشهرة - وإن كان صوتها عند كل من سمعه يبشر بأعظم الآمال ، وينذر منيرة بأن سلطنتها على وشك الانهيار !

وفي سنة ١٩٢٥ كان الصراع السياسي محتدما بين سعد زغلول باشا زعيم الأغلبية وبين منافسيه الذين لا وجود لأحزابهم فى الحقيقة إلا على اللافتات المثبتة على أبوابها ، فضلا عن وجودها اليومى فى الصحف التى تصدرها ناطقة بحالها ، وكانت جريدة السياسة ، ومجلة السياسة الأسبوعية من أحسن صحف مصر بغض النظر عن مواقفها السياسية والحزبية التى لم تكن تروق للأغلبية .

كان الأحرار الدستوريون الذين تنطق جريدة السياسة بلسانهم يتهمون سعد زغلول بالغوغائية وبما هو أغلظ من ذلك فى قاموس الهجاء السياسى القديم .. ويحصبونه بالشتائم الصريحة !

ولم تكن صحف الوفد المصرى تسكت على هذا الضيم ، فكانت تكيل الصاع صاعين لصحف الأحرار الدستوريين مباهية بأن ما تكتبه

هذه الصحف يقرؤه أعضاء حزب الأحرار الدستوريين وحدهم ، وهم أفراد قلائل .

كانت زعامة الأمة منقسمة على نفسها فى ذلك الحين .. فزعماء الأغلبية يطلبون حقهم الدستورى وزعماء الأقلية يتهمون الدستور بأنه ثوب فضفاض ارتداه أصحاب الجلابيب الزرقاء وحاولوا به فرض سيطرتهم على سادة البلاد ، وعلى رأسهم الملك والأمراء والباشوات وكبار المفكرين المتعلمين فى أوروبا أو الذين يتعلمون من أوروبا وهم مقيمون فى مصر !

وفى كلمات قصار : كانت الحياة الحزبية حينذاك تعطى الملك والانجليز فرصتهم الذهبية لتبديد حقوق البلاد !

ولم تكن الصحف الحزبية تترك فرصة تسنح لها دون اقتناصها فى الكيد للخصوم .. وهكذا خرجت جريدة السياسة تصف حفلة توزيع الجوائز على الممثلين والممثلات فى دار الأوبرا ، وتنوه بسلطانة الطرب، وتعقد مقارنة بين السلطانة وبين سعد زغلول باشا ..

كان كاتب المقال هو الدكتور هيكل ، وقعه باسمه .. وجعل أساسه التهكم على سعد زغلول وأنصاره ..

كتب الدكتور هيكل ستة أعمدة كبرى فى جريدة السياسة يصف فيها بأسلوبه المتميز البليغ حفلة الأوبرا ، حتى إذا تكلم عن منيرة

المهدية ، اندفع يعقد مقارنة أو موازنة بين مكانتها الشعبية العظيمة ومكانة سعد زغلول !

كانت منيرة المهدية في وقتها أشهر وأغنى وأجمل مطربة .. لا تنافسها مطربة أخرى ولا مطرب .. ولصوتها ببحته الساخنة العميقة سيطرة كاملة على الأسماع .. ولم تكن أم كلثوم - كما قلنا - قد برزت وأنزلت منيرة عن عرشها بعد !

وصف الدكتور هيكل بإبداع أدبي غناء منيرة في مقالته الطويلة قال : إنه يطرب الأذن المصرية إلى حد يسحر صاحبها عن نفسه .

ثم التفت إلى منزلتها الرفيعة وقال : «إذا كان لعامة الناس من أهل هذه البلاد زعيم محبوب يسيرون وراءه ، فقد كانت منيرة لهذا الجمهور الراقي - يقصد جمهور حفلة الأوبرا - زعيمة محبوبة ، وكان إيمانه بفنها أكثر من إيمان ذلك السواد بشعوذة زعيمه » !

مقارنة مضحكة بين مطربة وزعيم !

ولكنها مكتوبة بأسلوب بديع لاذع !

والمعنى الذي يقصده واضح ، فإذا كان لملايين المصريين زعيم اسمه سعد زغلول ، فان للجمهور المثقف المرهف الذوق ، جمهور حفلة الأوبرا ، زعيمة اسمها منيرة المهدية!

هكذا انقسمت البلاد في غمرة الصراع الحزبي قسمين في نظر

كاتبنا الكبير : سواد الناس - الشعب - بزعامة سعد .. وبياض الناس أو الطبقة الراقية بزعامة منيرة !

نكتة مضحكة ، ومقارنة كاريكاتورية ، نتأملها الآن مندهشين ، ولكن الناس في سنة ١٩٢٥ لم تكن تدهشهم هذه الأمور ...

كان الدكتور هيكل من أشد الكتاب حصافة ، ولكنه في مقالته هذه لم يلتفت إلى معنى كلامه الذى كتبه، فقد جعل حزب الأحرار الدستوريين وزعماءه مجرد مصفقين في سهرات منيرة !

وماذا قال الباشا رئيس الحزب يا ترى عندما وجد كاتب الحزب قد نادى بمنيرة زعيمة لأعداء سعد زغلول ، زعيم السواد أو الغوغاء أصحاب الجلابيب الزرقاء !

الحقيقة - كما تبدو لنا الآن من وراء سبعين عاما ، وبعد خمود الصراع الحزبى القديم - أن كل الأساليب كانت مستساغة في هذا الصراع ، وكل طوبة في اليد تصلح قذيفة في وجه العدو .

والعدو هنا لم يكن الانجليز الذين يحتلون البلاد ، بل الحزب الذى يحتل الحكم، أو يحتل قلوب الجماهير ..

لقد استطاع الملك بحقه المقدس في حل البرلمان أن يجعل من الأغلبية الحزبية لعبة في يده ، يستطيع أن يستبدل بها حين يشاء لعبة

الأقلية، وقد استظلت بقبة البرلمان أغلبيات جاءت من الأقلية الحزبية أكثر مما استظلت بها أغلبيات جاءت من الأغلبية .. وتاريخ ذلك كله مسجل معروف لنا الآن، وكان معروفا منذ ذلك الزمان .

وكل الذين تحدثوا عن أسباب فشل ثورة ١٩١٩ في طرد الانجليز من مصر عرفوا هذا السبب الرئيسي ، وهو الانقسام الحزبى الجنونى ، الذى جعل من منيرة المهدية زعيمة للطبقة الراقية ، ومن سعد زغلول زعيما للسواد والطبقة التى لا تملك إلا الأصوات الانتخابية .

وتتمة القصة – وقد حدثتك عما دار بينى وبين أستاذنا المرحوم فكرى أباظة – أن أستاذنا أنكر بشدة أن يكون الدكتور هيكل قد كتب مقالا كهذا ، فأحضرت لأستاذنا رقم عدد السياسة وتاريخه ونص كلام الدكتور هيكل ، وقلت له : إذا لم يكن هذا كافيا فاسأل الصحفى المخضرم الأستاذ حافظ محمود فلابد أنه يذكر هذا المقال ويعرف مكانه من مجلد سنة ١٩٢٥ من جريدة السياسة التى صار رئيسا لتحريرها بعد هيكل باشا .

ولست بهذا كله أنحي باللائمة على الدكتور هيكل ، ولا أسخر من أسلافنا الكرام، وإنما أقول : هكذا كان نهج الحياة الحزبية فى ذلك العهد عندما انقسمت البلاد إلى زعامة سياسية ، وزعامة غنائية .. على رأى الدكتور هيكل رحمه الله !

الارستقراطى ابن البلد

في مقالة تفيض حبا لمحمود تيمور وتقديرا لأدبه ، يسميه المستشرق الروسى أغناطيوس كراتشكوفسكى : «الارستقراطى الفلاح» .. لأن كراتشكوفسكى أتيح له فى العشرينات أن يشاهد «عزبة» أحمد تيمور باشا ويسمع الفلاحين هناك يصفون أولاد الباشا ، وبينهم «محمود» بأنهم ليسوا متجبرين ولا متكبرين كأولاد الذوات ، وإنما هم أشبه فى دعتهم وطيبتهم بالفلاحين ! ..

ولكنى أوثر أن أسمى محمود تيمور - رحمه الله - بالارستقراطى ابن البلد ، فهو قاهرى صميم ، عاش فى القاهرة طولا وعرضا أكثر من سبعين عاما ، منذ ولد فى «درب سعادة» سنة ١٨٩٤ ولم يغادر القاهرة إلا فى رحلات متفرقة غير طويلة إلى أوربا وأمريكا وبعض البلاد العربية ، وقد عاد من هذه الرحلات وهو ابن بلد لم يتغير فيه شئ ولا يمكن أن يتغير ..

قد لا تكون التسعة والسبعون عاما التى عاشها تيمور مدة مديدة فى صحبة القاهرة التى لا ملل فى صحبتها ، ولكن هذه

المدة كانت على أية حال كافية لتخلق من هذا الأديب الارستقراطى «ابن بلد» صحيح النسب إلى بلده ، فى الوقت الذى كان فيه انتسابه إلى الفلاحين صحيحا كذلك ولا مطعن فى صحته ، لأنه برهن على صحة هذين النسبين الأصيلين فى أكثر من سبعين عملا أدبيا بين رواية ومسرحية ومجموعة قصصية أو مجموعة مقالات وصور وصفية ، كتبها خلال أكثر من خمسين عاما منذ نشر قصته الأولى «الشيخ جمعة» فى العشرينات وأتبعها بقصة «يحفظ بشباك البريد» إلى آخر سطر خطه الفقيد ولم ينشر حتى اليوم ..

ولد المرحوم محمود تيمور وفى فمه ملعقة من ذهب - على حد التعبير الشائع - فوالده هو أحمد تيمور باشا ، وعمته عائشة التيمورية .. وأسرته المتحدرة من أصل كردى قد ورثت من أجدادها أرضا زراعية خصبة واسعة ، وورثت بيوتا وأموالا ، وعاشت فى هناءة الثراء منذ عصر محمد على باشا .

ولكن أحمد تيمور باشا «انحرف» إلى الأدب والعلم ، فكان من أشهر رجال العلم والأدب في الثلث الأول من القرن العشرين ، ومن أكثرهم اخلاصا فى حبه للأدب والعلم ، وقد بذل فى سبيله من صحته ومن ماله الكثير ، وقدم للأمة العربية خدمات

جليلة لا يقدمها إلا عظماء أهل الفكر من العروبيين الثابتين على الولاء لفكرة العروبة فى عصر لم تكن فيه هذه الفكرة قد نضجت بعد ..

وكان من عادة الباشوات فى تلك الأيام أن يلحقوا أولادهم بالمدارس الاجنبية فى مصر وأوربا . ولكن هذا الباشا الاسلامى العروبى ، ألحق ابنه محمودا بالمدارس المصرية الحكومية ليتلقى ما يتلقاه أبناء الشعب من التعليم ، ويعرف لغة بلاده .

وبعد أن نال محمود تيمور البكالوريا لم يرسله والده إلى أوربا كما أرسل أخاه محمد تيمور من قبل ، بل ألحقه بمدرسة الزراعة العليا . ولكنه اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة فيها لأن مرض «التيفود» أقعده مدة طويلة حتى خيف عليه الموت بهذا المرض الوبيل الذى كان عسير العلاج فى ذلك العصر ..

فلما شفي منه بعد شهور طوال ، كانت صحته من الهزال بحيث لا تسمح له بمواصلة الدراسة في الزراعة العليا .. فانقطع فى مكتبة والده - المكتبة التيمورية الشهيرة - للقراءة والتفكير ..

يقول تيمور فى بعض كتاباته عن تلك الفترة من حياته : «امتدت عينى إلى ما تحتويه خزانة أبى من روايات عصرية

مترجمة ، فوجدتني أجنح إلى ايثار القصص البوليسى ، أعنى قصص الحيلة والجريمة ، وأذكر منها الآن روايات نقولا كارتى وشرلوك هولمز وسنكلر ، ففتنت أيما فتنة بما يبديه الأبطال من ذكاء وسرعة خاطر» ..

ولكن قصص كارتى وهولمز وسنكلر لم تكن أول ما قرأ محمود تيمور من قصص فى حياته ، فقبل أن يقرأها بسنوات أهدى إليه والده مجلدا ضخما من كتاب «ألف ليلة وليلة» .. وفى أجواء ألف ليلة وليلة المضمخة بالعطر والخيال ، تفتح ذهن محمود تيمور على فن القصة ، وهو بعد طفل صغير ..

يقول تيمور : «لقد أثار كتاب ألف ليلة وليلة ميلى إلى قراءة أمثاله ، فأمدتنى مكتبة أبى بما أطمح إليه ، وأذكر أنه كان فيما قرأت يومئذ من كتب الأسمار ونوادر الأخبار ، كتاب «إعلام الناس ، بما وقع للبرامكة مع بنى العباس» .. وكتاب «نفحة اليمن ، بما يزيل الهم والشجن» وغيرهما من النظائر والأشباه» ..

ومن أطرف ما يذكره تيمور عن نفسه أن أول قصة كتبها فى طفولته قبل أن ينشر قصة «الشيخ جمعة» كانت قصة «هندية» .. تصف انتقام جماعة من الهنود لاحدى بناتهم من ضابط بريطانى اعتدى عليها ، وجعل عنوان قصته الساذجة هذه «الشرف

الرفيع» مستوحيا هذا العنوان الرنان من قول المتنبي الذي يحفظه الجميع :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ويعترف تيمور بصراحته اللطيفة أن والده - الأديب الكبير البليغ - اطلع على هذه القصة ورفض التصريح له بنشرها .. وطلب منه معاودة تجربة الكتابة ! ..

لكن إذا كان والده قد أتاح له القراءة ثم منعه أن ينشر ما يكتبه ، فإن أخاه «محمد تيمور» قد شجعه على الكتابة .. «إذ وجه موهبتي توجيها استفاده من ثقافته وخبرته وذوقه ؛ وكان يومئذ قد عاد من فرنسا بعد أن قضى فيها ثلاث سنين يتزود من الأدب العصرى الأوربى» ..

ولم ينصحه شقيقه بالاكتفاء بالأدب الأوربى ، بل نصحه بقراءة «حديث عيسى بن هشام» للمويلحى ، وقصة «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل ، فقرأ هذين وغيرهما إلى جانب ما قرأه من موباسان الفرنسى وتشيكوف الروسى ..

وفى سنة ١٩٢١ توفى محمد تيمور - رحمه الله - شابا صغيرا

مبكيا على شبابه ، وأوشك شقيقه محمود أن يكف عن الكتابة حزنا عليه، وذهولا لفقده ، ولكن عجلة الحياة - كما يقول محمود تيمور - «تدفع بي في طريقها الممدود ، لا يعنيها من الأمر إلا أن تستكمل دورانها ولا تبالي من انقطعت به الطريق ، فأخذت جراح الفجيعة تندمل رويدا رويدا» ..

وفي سنة ١٩٢٥كان محمود تيمور قد جمع من أقاصيصه عددا لا بأس به فجعله نواة مجموعته القصصية الأولى «الشيخ جمعة وقصص أخرى» التي صدرت في ذلك العام ،، ثم توالت أعماله الأدبية بانتظام حتى بلغت أكثر من ستين عملا .

* * *

ومحمود تيمور بدأ حياته الأدبية بمشايعة اللهجة العامية ، فكتب بها وتشيع لها وكأنها مذهبه الذى لا يحيد عنه ، ثم اختلفت به السبل فإذا به من أشياخ الفصحى ، ومن حماتها في مجمع اللغة العربية ، ومن دعاتها في بحوثه وكتاباته . وأصبحت رواياته وقصصه ومسرحياته ومقالاته معرضا للكلمات الفصحى والتعبيرات الضاربة بنسبها إلى الجاحظ وابن المقفع وعبدالحميد الكاتب .

وهذه من عجائب الأديب ابن البلد الذى بدأ حياته الأدبية يلهج في قصيصه بكلام أبناء البلد ، كأنه لا يعرف شيئا من كلام

سيبويه ، ولكن لا عجب فيما نعده هنا من العجائب لأن ابن البلد هذا هو أيضا ارستقراطي ، وهو لذلك ذو لغة ارستقراطية ، أي لغة فوق لغة أبناء البلد ، وهي اللغة الفصحى ، فلما وجد أن تطور حياته وأدبه يقتضي أن يلبس لهذه الحال الجديدة لبوسها ، قام بذلك الانقلاب اللغوي العام في حياته ، فخرج به من لهجة أولاد البلد إلى لهجة أدباء البلد ، وهم ارستقراطيته الفكرية واللغوية ، وهم - أغنياء كانوا أو فقراء - طبقة قائمة بذاتها تكتب لكل الناس ولكن قراءها ليسوا كل الناس ! ..

وما بي هنا أن آخذ عليه أنه انقلب من العامية إلى العربية ، فإني ممن يعرفون أن هذا الانقلاب كان خيرا وبركة عليه وعلى القارئ معا ، لأنه أخرج أدبه من دائرة العامية المصرية الضيقة إلى دائرة العربية الفصيحة ، اللغة القومية للعرب بين المحيط والخليج ..

غير أن المهم حقا أن محمود تيمور بقي بعد ذلك على ولائه لانتمائه البلدي - إن صح التعبير - فلبثت أغراضه في القصة والمسرح وغيرهما تدور حول أبناء البلد وبناته ، فضلا عن فلاحيه ؛ ولكنه كان يصور الفلاحين تصوير من يراهم من الخارج ، وعلى غير مقربة منهم ، بينما توغل في تصويره أولاد

البلد من العمال والكادحين من الفئات المتوسطة الصغيرة ، توغلا لا يمكن حسبانه تصويرا من الخارج أو تصويرا على غير كثب ممن يصورهم ، على الرغم من تسليمنا بما قد يراه بعض النقاد من نواقص هنا وهناك فيما كتب في هذا المجال ..

وبعض من كتبوا عن تيمور يحلو لهم أن يصفوه بالأديب الواقعي ، فهو في رومانسيته واقعي ، يصف واقعا من الحب يعيشه أناس في مجتمعنا .. وهو في واقعيته يصف الواقع كما يراه في الواقع ، ولكن ثمة سؤالا : ما الفرق في الواقعية بين كاميرا التصوير الصادقة الناطقة بكل التفاصيل الخارجية ، وبين فرشاة الرسام الهامسة بما لا يدخل في مجال كاميرا التصوير ؟ ..

وسؤال آخر ، أو صيغة أخرى للسؤال السابق : أيهما أحق بصفة الواقعي ، وصف لواقع الحال كوصف المتفرج ، أم وصف له كوصف المتعمق ؟!

وقد كان هذا السؤال أو هذان السؤالان محور الجدل حول أدب تيمور طوال حياته الأدبية تقريبا .. فالرجل غزير المادة ، متنوع الانتاج ، متعدد الاتجاهات ، وكأنما كان تيمور - رحمه الله - يرد على ذلك في حديث صحفي قال فيه : «الحق الذى أومن به أن

الأدب جوهر لا شكل ، وأنه إذا استوفى العمل الأدبى حظه من الجوهر - أعنى جوهر الحياة والمجتمع - فإنه سيأخذ نصيبه من الخلود على أى شكل يكون» ..

ويعتذر من مقاطعته للأشكال الجديدة فى صياغة القصة بقوله : «إن مثلى - وأنا قصصى مخضرم - لا يسرع إلى الأنس بهذه الطفرات التى تحاول المروق من الأوضاع الفنية» ..

وهكذا كان محمود تيمور بالفعل ، وبخاصة فى المرحلة الأخيرة من حياته الأدبية التى أصبح فيها عضوا فى المجمع اللغوى المصرى والمجمع اللغوى العراقى والمجمع اللغوى المجرى ، ومنح فيها جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ووسام الاستحقاق ووسام العلوم والفنون ، وصارت قصصه تترجم إلى اللغات الأجنبية بوصفها نموذجا للقصة المصرية وبوصف كاتبها بأنه من أبرز الأدباء المصريين ، ومن رواد القصة المصرية بعد مرحلتها الأولى فى عصر المويلحى ومن تلاه من أصحاب المحاولات فى هذا المجال .. وباختصار أصبح على حد تعبير للدكتور طه حسين «أديبا عالميا بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها» ..

ومهما تكن أقوال ناقديه ومقدريه فإن محمود تيمور أديب حقيقى تفرغ للأدب وأخلص له الاخلاص كله ، وامتلأت كتابته

بالعطف والحنو على الإنسان المصرى وغير المصرى ، وعلى ابن البلد وعلى الفلاح ، وكان في كل ما كتب لا يمسح عن جبينه ما ارتسم عليه من مسحة ارستقراطية موروثة لا حيلة له فيها ، ولا عيب فيها عليه ، ولكنه – مع ذلك – كان يتخذ الناس البسطاء موضوعات له ، يحاول أن يتعمقها وأن يقف منها موقف المتفهم لا موقف المتفرج ، ويرتفع فى كل ما يكتب إلى مستوى هموم الإنسان المعاصر ..

ولو لم يكن له من فضل إلا فضل الريادة فى فن القصة ، لكفاه هذا منزلا يتبوأه بين أصحاب الفضل فى الأدب العربى الحديث، فكيف إذا أضفنا إلى الريادة كل ما ذكرناه عنه هنا من أفضال ، وإنها لقليل من كثير طوق به هذا الارستقراطى ابن البلد جيد بلاده التى لم تنسه فى حياته ولن تنساه وقد أصبح من ذكرياتها وأصبح أدبه من ذخائرها !

الكاتب الجنتلمان

أكثر من عشرين عاما لبثت أبحث عن فرصة أكتب فيها شيئا عن هذه الشخصية الأدبية العلمية الاجتماعية التى لمعت فى عصرها ثم انطفأت ولم يعد يتذكرها إلا القليلون ..

ثم كتبت فعلا مقالة طيبة عن هذه الشخصية ، ولكنى أضعتها قضاء وقدرا ، فعزمت لأكتبن غيرها .. مثلها .. أو أحسن منها ! .. وها أنذا أفعل (!) ..

هذه الشخصية هي المرحوم الدكتور أمير بقطر الذى كان يكتب البحوث والمقالات ، ويؤلف كتبا عجيبة فى علم النفس وما يجرى هذا المجرى ، فكانت كتاباته هذه فى أيامه ممتعة للقراء ، من جميع البيئات والفئات .

كنت أراه من وقت إلى آخر فى الخمسينات ، يمشى وقورا مفكرا فى ردهات دار الهلال ، وأسمعه يتحدث بصوت ممزق يخرج بصعوبة من حنجرته .. كان مصابا بحبسة شديدة فى صوته لا يكاد المرء معها يسمع منه شيئا واضحا مفهوما ، أو هكذا كان يخيل لى فى تلك الأيام ويدهشنى أن أرى عارفيه وخلصاءه يتحدثون إليه ويستمعون فلا يفوتهم حرف مما يقول ! ..

كان الدكتور بقطر من ذلك الرعيل الأدبى والفكرى الذى اشتهر في الربع الثانى من القرن العشرين .. يتربع فى مكان بين «جنتلمانات» الكتابة والصحافة والمحاضرات الجامعية وغير الجامعية .. وقد وجد الناس شديدى الاهتمام بمسائل السياسة الداخلية والخارجية ، فصرف اهتمامه كله إلى الكتابة عن فوضى الأزياء وآداب المائدة في مصر ، كأنه لا يعرف شيئا عن السياسة .. وكان يعرفها ! ..

وتهش له ذكرياتنا الآن ، وربما تضحك ، إذا تذكرنا مقالة من مقالاته المدوية خصصها للاجابة عن هذا السؤال الذى كان يشغله طوال الثلاثينات والاربعينات :

- إذا كان الناس فى مصر يلبسون البدلة البيضاء فى مايو وربما فى أبريل ، فماذا يلبسون فى يوليو وأغسطس ؟! ..

كان صادقا جادا فى سؤاله هذا ، يعتبره من أكثر الأسئلة وجاهة وأهمية فى عصره .. فأين تذهب الأصول والاتيكيت إذا لبس الناس البدلة البيضاء فى الربيع ، وإنما هى للصيف دون سائر الفصول ؟!

وفى مقالته هذه التاريخية الممتعة ، دعا أهل مصر أجمعين إلى تنظيم اللبس صيفا وشتاء وربيعا وخريفا ، فلون البدلة مهم جدا

ولابد من موافقته للفصل .. دعك من قماش البدلة وربطة العنق والحذاء والجورب ، فهذه بديهيات .. ولكل حالة جوية لبوسها الخاص ، والدقة هنا واجبة على الجنتلمان ، بل حتى على العامة والسوقة والعيارين والشطار ممن تغص بهم الأحياء الشعبية ولا يراهم الدكتور ، ولا يتصور بحال وجودهم الفظيع المخالف لجميع قواعد الاتيكيت ! ..

كان الدكتور بقطر مثقفا واسع النظر فى الأبواب التى اختارها من الثقافة العالمية .. وله برج عاجى خاص يرى من فوقه شواهق الافلاك ، ولا ينظر منه إلى الأرض ! .. وكان هذا حال عدد غير قليل من مفكرى جيله ..

وكتابته العربية ذات لغة طيبة ، وديباجة حسنة ، لكنها كانت تمر على المراجعين ليعيدوا صياغة بعض عباراتها ، كما كانت تمر عليهم كتابات أدباء مشهورين كسلامة موسى وحبيب جاماتى ، واسماء أخرى .. ولم يكن فى هذا ما يغض من قدرهم فإن الصحف ، وبخاصة دار الهلال والأهرام ، كانت بالغة الدقة فى هذه الناحية ، فلم تكن مقالات أى كاتب تمر إلى المطبعة قبل أن تمر على من ينقحها ويراجعها من العارفين بالعربية حق المعرفة .. لا يستثنى من ذلك إلا الكتاب العلماء بالعربية كالعقاد وطه حسين

ومصطفى صادق الرافعى وزكى مبارك وأحمد زكى وأحمد أمين ومن إليهم ..

ذكرت ذلك كله إذ حصلت - مرة واحدة - على طبعتين جديدتين من كتابين للدكتور أمير بقطر صدرا عن سلسلة «كتاب الهلال» .. أحدهما عنوانه : «لا تخف» .. وعنوان الآخر : «إعرف نفسك» .. وكنت قرأتهما من سنين حين صدرا أول مرة ، ثم نسيتهما ولكن قراءتهما الآن عملت فى النفس والفكر عملا جديدا .

هذا النوع من الكتب ، يؤلفه أصحابه لأمور كثيرة ، وبواعث معقدة فى مجتمعاتهم وما يتعلق بها من مشكلات نفسية، واضطراب أهلها بين العقل والجنون ! ..

لكنها فى كل حال كتب مسلية مفيدة لمن تكون له بصيرة بقراءتها على وجهها الصحيح .. فمن الناس من يقرؤها فلا تعود عليه بعائدة ، ومنهم من يجدها ذات فائدة .. ومنهم من يخرج من قراءتها لا عليه ولا له ! ..

قديما - فى شبابنا الأول - كنا نقرأ بسرور كتابا عنوانه : «دع القلق وابدأ الحياة» ..

لم يكن بنا قلق فى شبابنا على أى شئ ، برغم افتقارنا إلى

كل شئ تقريبا .. وكنا لا نفهم أسباب القلق العنيف الذى يتحدث عنه الكتاب .. فالحياة فى نظر واحد من أمثالى هى بضعة قروش ، وجلسة على مقهى هادئ ، وورقة بيضاء ينشرها أمامه ثم ينهمك فى نظم قصيدة من الشعر ..

برع الكتاب الأجانب أصحاب هذا النوع من الكتب فى صياغة ما يكتبون ، لأنهم يعرفون من يخاطبون من مواطنيهم ، وفيم يخاطبونهم ، وكيف يكون الخطاب والتوجيه ومس الجراح النفسية برفق وكياسة !..

وكتاب : «لا تخف» قديم نسبيا ، ولكن طبعته العربية التى أحدثك عنها جديدة .. المؤلف طبيب أمريكى من أطباء النفس - وهم غير علماء النفس النظريين أمثال فرويد - وقد حشد الدكتور ادوارد كولز - مؤلف الكتاب - جهوده كلها لمحاربة «الخوف» عند جميع الناس فى بلاده وخارج بلاده .. وهى مهمة تبدو جسيمة وخيالية ! .

ولكن أى خوف يعنيه الدكتور كولز؟!

لكل إنسان فى الدنيا مخاوفه ، على حسب ظروفه المتشعبة فى مجتمعه وعصره .. فى مكانه وزمانه ، بقدر ما اجتمع له من المال والصحة البدنية والنفسية والعقلية ومئات وألوف أخرى من

تفاصيل الحياة ، ترتبط كلها بالواقع الصلب للمكان والزمان ، وكيان الإنسان ! ..

هذا كله ينطبع فى النفس فتتلون به ، ولا توجد نفس «بيضاء» لا تنطبع فيها صورة ما حولها ، ظاهرا وباطنا ، بألوان بيضاء وسوداء ورمادية وحمراء وصفراء لا تسر الناظرين ..

لهذا ترتبط الكتب من طراز كتاب : «لا تخف» بأهل زمانها ومكانها ، ولو قرأها إنسان من عصر الفراعنة أو عصر الرومان ، أو أى عصر مضى لأنكرها وعجز عن فهمها ، كما أن أبناء القرن الثلاثين أو الأربعين - مثلا - سوف يدرسونها مع بقايا «حفريات» القرن العشرين فى الأدب والفن والاجتماع والسياسة والعلم وغير ذلك ، وسوف يكون ذلك مسليا لهم وباعثا عندهم للدهشة والفكاهة معا ، إن بقى للفكاهة والدهشة مكان عندهم ! ..

لقد أنهك الخوف والتعب إنسان عصرنا ، ولكن الدكتور بقطر يقول له مترجما عن الدكتور كولز : اطمئن يا عزيزى وعش بلا مخاوف ! ..

فيا أيها الإنسان الخائف من دنياك المخيفة هذه ، حاول أن تكون عند حسن ظن الدكتورين الفاضلين ، وقل لنفسك كلما ساورتك

المخاوف : لا تخف ! .. فإن زمـاننا لا خوف فـيـه ، ولعلنا نخـاف من زماننا والخوف فينا .. منا وإلينا .. والزمان برىء ! ..

لا تخف أيضا عندما تقرأ هذا الكتاب بحثا عن مهدىء لأعصابك ، فتجد فيه أن ضعف الأعصاب معناه «النورستانيا» .. وأن النورستانيا تؤدى إلى «الملانخوليا» أو «المناخوليا» كما اعتاد الناس أن ينطقوا هذا الاسم العصبى المزعج .

لا تنزعج عندما يؤكد لك المؤلف أن من أعراض المناخوليا الهم والغم والقلق والصداع والأرق وسوء الهضم والامساك والاسهال .. ومن عواقبها وخواتيمها المحتملة .. الانتحار ! .

يقول المؤلف : «لعل الآلام العقلية والاوجاع النفسية التى يقاسيها المريض بالملانخوليا ، أشد ما يعرفه علماء الطب من الالام والاوجاع .. وما لم تشتد الرقابة على المريض أطلق على نفسه الرصاص ، أو قفز من النافذة ، أو جز عنقه ، أو شنق نفسه ، أو ابتلع سما زعافا» .. تعددت وسائل الهلاك .. والنهاية واحدة ! ..

لا تخف من هذا الكلام الفضفاض عن الانتحار ووسائله ، فالكتب لا تسجل إلا كلمات من اللغة السرية للحياة .. ومن قرأ هذا الكتاب وأمثاله ففهمه وأفاد منه ولم يداخله منه خوف ، سعد به فى حياته ، وأفلح بإذن الله ! ..

ثم يجيء كتاب «اعرف نفسك» للمؤلف نفسه والمترجم نفسه أيضا ، فيزيدك نورا في هذه الظلمات المطبقة عليك في الحياة والتي نرجو أن تسفر عن صبح مبين ، كما نرجو - عزيزي القارىء - أن تكون ممن أضاءت حياتهم بنور ربها ، فلا ظلام يغشاها ..

والاسم الأصلي لهذا الكتاب الثاني هو «التغلب على التعب والخوف» .. ولا نستبعد أن يختلط اسم هذا الكتاب الثاني عند القارىء باسم الكتاب الأول ، لولا أن الناشر العربي اختار أن يعفيه من اسمه الأصلي ويجعل عنوانه : «اعرف نفسك» ! ..

والمعنى واحد من العنوان الافرنجي الطويل ، والعنوان العربي المختصر ، فإنك متى عرفت نفسك حق المعرفة ، تغلبت على التعب والخوف ، وعرفت داءك ودواءك ! ..

والكتب الكثيرة التي تصف الأمراض النفسية للانسان في عصرنا - وهي أكداس بجميع اللغات - سوف تكون مرجعا عظيم الفائدة لمن يأتون بعدنا بألوف السنين .. إذا بقيت الكرة الأرضية في مكانها من الفضاء هذه المدة الطويلة .. ومن هذه الكتب سوف يعرفوننا على حقيقتنا تقريبا ..

ولا يمكن طبعا أن يعرفونا على حقيقتنا تماما .. وسوف يرون صورتنا الضاحكة وما وراءها من بواعث الضحك ، وصورتنا التعسة

بكل بؤسها وضياعها فى ظلمات القرن العشرين ، أو فى نور القرن العشرين المتلالىء فى جميع القارات كما نشاهده الآن ! ..

إن إنسان القرن العشرين ، وبخاصة فى هزيعه الأخير هذا – هو الإنسان الخائف الذى يقال له : لا تخف !.. يطارده الزمن ، وتطارده الأشباح ، ويطارد نفسه ، كما يطارده الناس جميعا ، الأوغاد منهم والكرام الأخيار ! ..

ومطلوب منه – وا عجبا – ألا يخاف ، بل يكون ثابت الجنان فى الغمرات والأهوال والمهالك وإذا ارتعد خوفا ، قيل له : عيب يا رجل .. لا تخف ! ..

كأنما هو سيف الدولة الذى قال فيه أبو الطيب المتنبى فى القرن العاشر :

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم

بل ان رجل القرن العشرين أعجب من سيف الدولة ، لأن سيف الدولة حين وقف فى ساحة الحرب كان – فى زعم المتنبى – يقف فى

جفن الموت ، والموت يغط فى النوم ، غير شاعر بشىء يقف فى عينه الواسعة التى أغمضها التعب من الحرب ! ..

أما رجل القرن العشرين فهو يتكوم فى قبضة الموت .. ولا أبطال تمر به جريحة مهزومة ، ولا هو يضحك وضاح الوجه يستقبل بشائر النصر كما كان يستقبلها سيف الدولة ! ..

ومع ذلك لا يمكن انكار شجاعة رجل القرن العشرين ، فلو لم يكن شجاعا لتمنى أن يصحو من نومه ذات صباح فيجد نفسه قد عاد القهقرى إلى القرن العاشر ، أو قفز إلى القرن الخمسين أو التسعين ، أو بعد ذلك إلى مليون سنة .. إن كان للكون عمر وعاش مليون سنة أخرى ! ..

حسب هذا الإنسان من شجاعة ، مصارعته مشكلات عصره ، وإن كان مكرها فى ذلك لا بطلا .. ولكن المكره قد يفوز أحيانا بإكليل البطل ..

ولو لم يكن شجاعا على هذا النحو أو ذاك لانطلق حانقا إلى مخازن قنابله النووية ، فوضع فى بضع دقائق حلا لكل مشكلة على وجه الأرض وعلى وجه القمر أيضا ، وأولها مشكلة بقائه هو نفسه ، فإنه سيتبدد مع الأرض والقمر نثارا فى الفضاء ! ..

ان انسان السنين الأخيرة من القرن العشرين قد يجن

خوفا ، فينسف كرته الأرضية التى لا يملك فى الوقت الحاضر غيرها ، فتذهب ذرات ويخلو مكانها كمكان عمارة قديمة هدمها صاحبها وباع أنقاضها وترك مكانها أرضا خالية ريثما يتهيأ لبنائها شققا للتمليك ! ..

ولكن الأرض حين يخلو مكانها ، لن يبنيها أحد للتمليك ولا للإيجار ! ..

ولا داعى عندئذ لنصائح الدكتور كولز ، ولن يقول للناس : لا تخافوا ! فلا خوف بعد أن تتهدم الأرض وينشق القمر ، وتفتح الجنة للمساكين والصالحين .. والنار للمجرمين والطغاة .

ساخر الحرافيش (١)

إذا قيل : من هو الكاتب الكبير الذى يتذكر الناس فى أيامنا هذه جميع الكتاب الكبار قبل أن يتذكروه ، قيل : محمد عفيفى عضو فرقة الحرافيش ذات الشهرة الأدبية والفنية العريقة .

وإذا قيل : من هو الساخر الكبير الذى يبدو كأنه جاد ، بل متجهم ، بل شديد المرارة ، فالجواب أيضا : محمد عفيفى ساخر فرقة الحرافيش ! ..

فإن محمد عفيفى كاتب كبير وساخر كبير ، اجتمعت له أداة الكاتب الساخر .. ولكن شيئا ما يجعل هذه الأداة الأدبية الساخرة الناضجة كأنها بعيدة عن الناس ، أو كأنما الناس أنفسهم بعيدون عنها ..

ونوشك أن نقول ان سرا من الأسرار يجعلها كذلك ، ولكن لا سر هناك عند التدقيق ، فإن محمد عفيفى المنطوى على نفسه ، الزاهد فى الكلام . بل الزاهد - أخيرا - فى الدنيا زهد المتصوفين إلى حد أنه سئل من أحد قرائه عن رأيه فيها فأجاب أن رأيه فى الدنيا جملة وتفصيلا يتألف من حرفين فقط هما «هـع» ! ..

---

(١) كتبت هذه المقالة فى أوائل السبعينيات ، وتوفى رحمه الله في أوائل الثمانينات .

و «هع» بالعامية المصرية الزاعقة ، معناها اللفظ المعروف : «طظ» .. وربما أقل منه كثيرا .. ومعناها بالعربي الفصيح : لا تساوى جناح بعوضة !..

وقد بلغ محمد عفيفى هذه «الحالة» النفسية والعقلية بعد حياة امتدت أكثر من تسعة وأربعين عاما – وهو لا يعترف بما فوق هذه السن – طال خلالها جداله مع الحياة علويها وسفليها ، وخاض من التجارب العملية والذهنية والنفسية ما يجعل كلمة «هع» كثيرة على الدنيا ! ..

مع ذلك ، فليس هو بالصخرة التى لا تحركها أغاريد الدنيا وكئوس «البلهنية» المترعة .. لأن المتنبى نفسه ، ذلك الرجل الصخرى الذى سمع عنه الكثيرون منا ، قد تساءل ذات يوم فى بعض شعره وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه : «أصخرة أنا ؟! .. ما لى لا تحركنى هذه المدام ، ولا تلك الأغاريد ؟! » ..

ان محمد عفيفى – وهو يختلف تماما عن المتنبى – قد لا يجد بينه وبين نفسه حرجا من التمثل بهذا البيت ، سواء نطق كلمة «المدام» بضم الميم أو بفتح الميم (١) .. ففى تعامله مع الدنيا ، يستخدم عفيفى كلمة «هع» أو مرادفتها الأخرى التى أشرنا إليها ، ولكنه أحيانـــــا

---

(١) «المدام» بضم الميم كلمة عربية معناها : الخمر وهى التى يقصدها المتنبى هنا .. أما المدام – بفتح الميم – فكلمة افرنجية معناها السيدة أو المرأة .

يخاطب نفسه همسا بكلمتين أخــــريين هما : «معلهش يا زهــر» .. وهما فى عاميتهـــما البليغة لا يقلان قدرة على تصوير ما وراء اللثام الفلســـفى الذى يضمه على وجهه حتى وهو جالس إلى المرآة متفرسا فى ملامحه ، مدهوشـــا أو غير مدهوش ، خاليا بنفســه على كل حـــال ! .

فهذا الكاتب الذى صفته أنه كبير بلا جدال ، وأنه ساخر من طراز رفيع ، يشعر أنه قد فاته الكثير من دنياه ذات التسعة والأربعين ربيعا حتى الآن ، والتى ستمتد أربعينات وتسعات أخرى إن شاء الله .. ولكنه لا يأسى على ما فاته ، فقد انتزع من الدنيا بسن قلمه كل ما أراد من ضحك ومتاع وحـــلاوة ! .. ولم يبق لديــــه إلا أن يقول لكـــل شيء فيها : «هع» .. علامة الارتواء إلى درجة السخر منها ، مردفا هذه الكلمة بما يكمل معناها ودلالتها : «معلهش يا زهر» .. إشارة إلى أن «جناح البعوضة» لا يمكن أن يكتمل لأحد ، بالرغم من أنه مجرد جناح بعوضة ! ..

كثيرون لا يرون فى محمد عفيفى إلا امتـــدادا للكاتب الساخر الكبير ابراهيم عبد القادر المازنى .. الملامح واحدة تقريبا فى الأسلوبين .. اللغة أيضـــا ، إذا أغضينـــا عن حجم التعبيرات العامية عند كل منهما ..

كلاهمـــا مثقف جدا ، نظــرته إلى الحياة والكون فلســفية شاملة ، ويكاد الأمر يشتبه على من يقرأ بعض كتابات عفيفى فيظنها من كتابات المازنى .. إلا أن لعفيفى شخصية فى الكتابة ذات استقلال معترف بــه ، وإن كان وجود التشابه الشكلى بينه وبين المازنى معترفا به كذلك ..

لقد تأثر عفيفى بالمازنى إلى درجة الحب والنسج على المنوال لغة وأسلوبا ونهجا وثقافة ، وسار وراءه زمنا ، ولكنه بعد مرحلة وجد نفسه يكتب ويسخر «منفردا» .. ولحسابه الخاص - إن كانت كلمة «الحساب الخاص» مقبولة لديه - .. وعلى مسئوليته وحده .

وكتابه «تائه فى لندن» مجموعة من اللوحات الساخرة «السياحية» .. فقد ساح فى لندن وليس فى جيبه إلا ما يعيش به على «السندوتشات» .. ساكنا فى «بدروم» منخفض جدا يرى من نافذته الأرضية منظر المارة من القدم إلى ما فوق الركبة بعشرة أو عشرين سنتيمترا على الأقل .. فإذا أراد أن يرى الوجوه أيضا فلابد له من مبارحة هذا الجحر .. عندئذ لا يرى الوجوه فقط ، بل يرى تحركاتها بعضها إزاء بعض فى لحظات الوجد السكسونى ، وما أكثرها وأطولها فى شوارع لندن ، وفى المترو ، وفى أى مكان ، برغم ما هو مشــهور عندنا من برود أولئك الناس !

يصف محمد عفيفى بداية دخوله لندن ظافرا فيقول : «ما كدت أبرخل بهو المطار حتى جلجل فى الميكروفون صوت نسائى يردد هذا النداء الغريب : مستر موهاميد أفيفى هوسين .. وحيث إن العبارة تبدأ بكلمة مستر فقد كان من الواضح أنها تردد اسم رجل ما .. ذلك الاسم الذى خيل إلى أنه ليس غريبا عنى تماما ..

– مستر موهاميد أفيفى هوسين .

«هكذا كررت نداءها ، ولم أحتج إلى أكثر من تكراره لكى أتنبه إلى أنه لا يخرج عن كونه اسمى الكريم ! .. فلماذا ينادون على ، وماذا يريدون منى ؟!

«هناك احتمال لأن يكونوا قد اشتبهوا فى أمرى وظنوا أننى حضرت بقصد إجرامى كسرقة جواهر التاج مثلا ، ولكنى رأيت أنه بالنظر إلى صحيفة سوابقى احتمال ضعيف جدا .. فلا يبقى إلا أن يكونوا متابعين لكتاباتى ، وأنهم ما برحوا ينتظرون وصولى لكى يحاولوا استدراجى للكتابة فى إحدى صحفهم .. الأمر الذى لا أظن أنه سوف يجعلنى أتزحزح عن مائة جنيه استرلينى كثمن للمقال الواحد !»

وبعد أن عرف أنهم لم يشتبهوا فى أمره ولم يخطر على بالهم أنه جاء لسرقة التاج ، وليس فى نيتهم استدراجه للكتابة فى صحفهم نظير مائة جنيه استرلينى للمقال الواحد .. بدأت جولته فى لندن .. يقول

عفيفى : «كذكر شرقى أعترف بأن أول ما لفت نظرى فى الشارع اللندنى هو المينى جوب ، مع ازدياد فى الاهتمام من ناحيتى عندما يتحول إلى ميكروجوب ، مرتفعا إلى أعلى حتى يصل إلى مستويات ينسى معها أنه كان فى أى يوم من الأيام عند الركبة ، وحتى يوشك أن يتحول مما فوق هذا إلى ما تحت ذاك .. ونسمة لندنية عابثة .. تعطيك فكرة عن حقائق الحياة ما كنت لتأخذها بغير شهادة من المأذون أو من كلية الطب» ! ..

ان محمد عفيفى وهو «تائه فى لندن» لم يشرع قلمه للفكاهة والسخرية كيفما اتفق ، فالواقع أنه - وهو «يرى حقائق الحياة» ويحلم بكتابة المقال نظير مائة جنيه استرلينى ، قد جال فى عصرنا كله جولة واسعة عميقة ، ونقد هذا العصر بل هجاه ، فى الوقت الذى لم تغب فيه عنه العوامل الايجابية فى كل شىء من حوله ..

وعاد من «التيه» اللندنى بهذه المجموعة الفريدة من الفكاهة المصرية المصوغة فى قالب يمكن أن يسمى عالميا .. فإن لم يعجبك التعبير فقل إنه عاد بفكاهة عالمية الطعم مصرية الصياغة .. والمهم حقا أنه استطاع برغم كل شىء أن يعود من ذلك التيه لينعم من جديد بعضويته فى فرقة الحرافيش برياسة نجيب محفوظ .. وإن كان يقال إنها صارت مجرد اسم بلا فرقة ، أو مجرد فرقة بلا اسم !

راقصة الامتحان

رأيت كثيرين ممن شاهدوا نبوية موسى أو قابلوها فى أخريات أيامها الحافلة يضحكون من قلوبهم وهم يقرأون فى الصحف أن بعض طلاب العلم وصفوها في اجابات امتحانهم بأنها كانت من أشهر الراقصات في زمانها ؛ فقد أتعبت المرحومة نبوية موسى معاصريها بنداءاتها الحارة ودعواتها المتصلة إلى الحشمة ومكارم الأخلاق ، دون أن يخطر على بالها - طبعا - أن اسمها المبجل الوقور سوف يدخل التاريخ من أبعد أبوابه وأعجبها ، فإذا به اسم لامع ذو رنين كرنين «الصاجات» بين أسماء بطلات الرقص الشرقى فى القرن العشرين (١) .

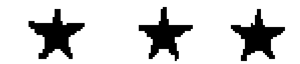
ولا شماتة فى السيدة نبوية موسى ممن ضحكوا .. فالمفارقة صارخة ، والنكتة لاذعة تضحكها هى نفسها لو كانت خطرت ببالها ، برغم ما اشتهرت به من التجهم الذى تضاعفه النظارة

---

(١) كان السؤال في امتحان طلاب العلم هؤلاء ، عن السيدة نبوية موسى ، وكانوا يجهلونها ، فأجاب بعضهم أنها كانت راقصة ، ولعل الأمر التبس عليهم بينها وبين الراقصة نبوية مصطفى التى كانوا يعرفونها ! ..

الطبية الغليظة فوق عينيها الذابلتين من سهر الفكر لا من سهر الأفراح والليالى الملاح !

وقد كانت نبوية موسى شاعرة غزيرة القوافى ، فلعلها لو عاشت حتى رأت اسمها يتلألأ بين أسماء الراقصات ، لنظمت ديوانا هائلا نصفه هجاء عنيف لمن جهلوا اسمها ، ونصفه الآخر رثاء شفيف لنفسها وقد صيرها الزمن الغادر مجهولة بين بعض طلاب العلم ، فما عساه يصنع بها عند الملايين ممن لا يقرأون ولا يكتبون ؟! »



تطغى على صورة المرحومة نبوية موسى ، أو على ما تبقى من صورتها فى أذهان أمثالنا ممن عاصروا الفصل الأخير من حياتها ، ملامح سيدة كهلة وقور اتخذت منها المجلات مادة للرسوم الكاريكاتيرية والنكات التى تقال - بلا رحمة - عند المقارنة بين الجميلات وغير الجميلات ! ..

فلم تكن السيدة نبوية موسى جميلة الملامح ، حتى بمقاييس جمال الشيخوخة .. وكانت فى الوقت نفسه داعية متحمسة من دعاة التقاليد ، ومن هنا نفذت إليها سهام رسامى الكاريكاتير ومؤلفى النكت الصحفية ، فى إيقاع ساخر لا ينقطع جعلها شخصية شعبية يلذ للقارىء منها جانب الفكاهة والنادرة

والمفارقة ، وكأنه نسي نبوية موسى الحقيقية الرائدة النسائية ، والأديبة الشاعرة ! .

ومن لم ير نبوية موسى فى حياتها ، أو فى صورتها ، ففى وسعه أن يراها فى ديوانها الذى صدقت فيه تعبيرا عن نفسها ، فجاء صورة منها بلا زيادة ولا نقصان .

كانت السيدة نبوية تتخفى وراء الطرحة السوداء والنظارة السميكة، ولم تخرج فى ديوانها على عادتها فى التخفى ، فلم تضع له اسما كما اعتاد الشعراء أن يضعوا أسماء لدواوينهم ، وحسبك منه ما هو مكتوب على غلافه : «ديوان السيدة نبوية موسى صاحبة مدارس بنات الأشراف .. الجزء الأول .. حقوق الطبع محفوظة» .. وكانت فى ذلك أكثر تشددا من أستاذة جيلها فى الشعر المرحومة عائشة التيمورية التى لم تر بأسا في أن تسمى ديوانها «حلية الطراز» .. وهو اسم نسائى كأنه مأخوذ من التطريز وشغل الابرة ! .

والسيدة عائشة التيمورية ، كما تصفها الأديبة المرحومة الآنسة مى – نقلا عن الزعيمة النسائية المرحومة هدى شعراوى ، كانت «سيدة تركية» .. أو كما قالت هدى شعراوى حرفيا : «كانت ست كدا ألا توركا» .. أى كانت من الطراز العثمانى المحافظ فى تفكيرها وطريقة حياتها ..

ولم تكن نبوية موسى تركية شركسية أو كردية عظيمة الثراء كما كانت عائشة التيمورية ، ومع ذلك اختارت نبوية موسى أن تكون «ألا توركا» كما كانت التيمورية . فإن نخبة سيدات القاهرة في ذلك العهد انقسمن طائفتين : ألا توركا ، وألا فرانكا ! أى «عثمانليات» و «متفرنجات» وكان طبيعيا أن تكون نبوية موسى التى نشأت فى حضن الدين «عثمانية» الفكر والحياة ، مع أنها حين دخلت المدارس واشتغلت بعد تخرجها بالتعليم ، وكتبت الشعر وتحدثت إلى الرجال ، كانت فى واقع الأمر تسلك طريقا لا تسلكه إلا سيدة «ألا فرانكا» وان لبست اليشمك التركى وترنمت فى شعرها بمدح خليفة آل عثمان !

وديوان نبوية موسى يقول لنا إنها نظمت الشعر منذ أواخر القرن التاسع عشر وإن كان يزعم أنها كانت فى ذلك الحين فى العقد الأول من عمرها . وقد دخلت المدارس وهى كبيرة السن ، فلما كانت فى السنة الثالثة الابتدائية نظمت قصيدة فى رثاء المرحوم الشيخ محمد عبده . ومن يتأمل هذه القصيدة لا يتصور أن نبوية موسى كانت دون سن العشرين عند وفاة الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ .

ويمكن أن يقال إن نبوية موسى كانت معاصرة للشاعرة ملك حفنى ناصف - باحثة البادية - يوما بيوم وان كانت باحثة البادية قد ماتت فى باكورة الشباب .

وهكذا تكون نبوية موسى - على حسب الترتيب التاريخى - الرائدة الثالثة فى الفكر والأدب والشعر بعد عائشة التيمورية وباحثة البادية ، ولكن الناس يذكرون التيمورية والباحثة ويؤلفون عنهما الكتب ولا يذكرون نبوية موسى ولا يكتبون عنها شيئاً ، مع أنها أضافت إلى النشاط الفكرى والأدبى نشاطا عمليا خلاقا يتمثل فى إصرارها على الاشتغال بالتدريس بعد تخرجها فى المدرسة السنية ، برغم ما لاقته فى هذا الطريق من صعوبات . وقد بلغت بجهدها الكبير منصب «كبيرة مفتشات وزارة المعارف» .. فلما تركت المنصب لم تتقاعد وتستسلم للشيخوخة بل أنشأت «مدارس بنات الأشراف» وواصلت فيها حياتها العملية إلى جانب حياتها الفكرية .

والعقلية التى كانت توصف بأنها «ألا توركا» تتجلى فى هذا الاسم الذى اختارته نبوية موسى لمدارسها ، فهى مدارس بنات «الأشراف» .. أى بنات السادة بلغة ذلك العصر . وقد اختلطت فى مدارس نبوية موسى بنات السادة «العثمانية» وبنات السادة «المتفرنجين» ، بعد أن قارب التطور وامتزاج المصالح الطبقية بين من كانوا «ألا توركا» ومن كانوا «ألا فرانكا» ! .

وقد وضعت نبوية موسى «مواصفات» للفتاة المهذبة التى تلتحق

بمدارس بنات الأشراف ، لم تشأ أن تكتب هذه المواصفات نثرا فنظمتها شعراً :

إن الفتاة تبدى حالة الصغر

كزهرة أينعت مجهولة الخبر

فإن تغذت بماء العلم نبعتها

أهدت إلى الكون طيب العنبر العطر

فلا يغر فتاة حسن منظرها

ليس التفاضل بين الناس بالصور

ومادام التفاضل بين الناس - وبين النساء خاصة - ليس بحسن المنظر ولا بالصورة الجميلة ، فلابد من الحشمة التامة والوقار الدقيق فى ملابس الطالبات بمدارس بنات الأشراف التى تملكها وتديرها داعية الفضيلة السيدة نبوية موسى .

والحق أن سياستها التربوية هذه القائلة : «ليس التفاضل بين الناس بالصور» قد أثمرت إقبالا منقطع النظير على مدارسها ، كما أثمرت تلك الحملة الصحفية الساخرة التى خاض غمارها رسامو الكاريكاتير ومؤلفو النكت اللاذعة ! .

وبرغم نجاح نبوية موسى فى سياستها التربوية ، كانت تشكو دائما من الحالة الأخلاقية فى المدارس ، فضلا عن تدهور التعليم .

هذى ديار العلم تحت عيونكم
فضل يموت وعفة تتعذب
فعسى يفيق المفسدون فإنهم
اخفوا بما فعلوا الكمال وغيبوا

وتقول :

إذا ألقت الأقدار يوما جواهرا
بأيدى وحوش ضاريات «كواسرا»
فقد خسر الدر النفيس فخاره
وصار حشيش الأرض أغلى وأفخرا
واكثر ما يأتيك فى الدرس لا يفي
بحاجة راجى العلم إلا تظاهرا

وكأنما كانت فى هذا البيت الأخير تسخر من بعض الطلبة الذين زعموا أخيرا أنها كانت راقصة شرقية يشار إليها بالبنان فى زمن بمبة كشر ، أو أيام بديعة مصابنى .

بقي أن نعقب بكلمة إنصاف على ما سلف من أنها كانت «ألا توركا» أو «عثمانلية» فى طريقة تفكيرها وحياتها ..

فقد نشأت نبوية موسى ومصر لم تخرج بعد من نير الخلافة العثمانية برغم الاحتلال البريطانى .. وكانت بحكم نشأتها فى تلك الأيام لا تستطيع أن تحرر فكرها ولا حياتها من طريقة الحياة السائدة فى الطبقة التي تتعامل معها ، وهي طبقة الأثرياء المنحدرين من أصول تركية ..

ولهذا نجد ديوانها غاصا بمديح الخليفة التركي والخديو عباس حلمى والسلطان حسين كامل وعدد كبير من باشوات وهوانم ذلك العصر .

وعندما بلورت ثورة ١٩١٩ شخصية الشعب المصرى الذى تحرر من خلافة العثمانيين ونهض ليتحرر من البريطانيين ، تغيرت النغمة فى ديوان نبوية موسى ، وظهر فى صفحاته سعد زغلول وغيره من المصريين البارزين .

صحيح أنها بقيت على ولائها للبيت المالك ، وحبرت فى مدائح فؤاد وفاروق صفحات غير قليلة ، ولكن هذا أيضا كان مبررا ومفهوما فى حينه ، ولا يقدح فى أن نبوية موسى كانت رائدة مصرية مكافحة قوية العزيمة شاركت فى إيقاظ المرأة المصرية

وتعليمـها وإخـراجها من عـهد «الحريم» إلى العـهد الذى كانت بدايته «ألا فرانكا» وكانت نهـايته شـخصية مصـرية عربية للمرأة كما نراها فى بلادنا الآن .

واعـتـذر من الوقـوف عند هذا الحـد فى الحديث عن هذه الرائدة الكبيـرة التى يتبسـع مجـال الحديث عنها ، ولعلى استطعت تصويرها لك من خـلال ديوانـهـا الذى لا يوجـد كـتـاب سـواه يمكن التـقـاط صـورتـها منه ، حسـبنا أن يعلم من يريد أن يعلم أن نبوية مـوسى - رحمـها الله - لم تكن تلك الراقصـة التى يتصـورها طلاب العلم فى الزمن الأخير.

آخر الزجالين الكبار

عاد الزجال الكبير أبو بثينة إلى بيته فى حى دير النحاس بمصر القديمة ، وهو يسكن هناك منذ أواخر العشرينات.ولم ينتقل من شقته القديمة جدا فى احدى عمارات هذا الحى إلا بعد أن هددها السقوط ، فسكن منذ الستينات فى شقة بالدور الثالث من عمارة صغيرة كان مالكها قد فرغ توا من بنائها حينذاك ! .

كان أبو بثينة حين عاد إلى بيته فى ذلك اليوم «٢ يونيو ١٩٧٩» قد أدى آخر عمل صحفى فى حياته، وهبط سلالم دار الهلال ببطء شديد كعادته منذ ضعف بصره واعتلت صحته.. وجيء له بتاكسى، ومضى إلى بيته بسلام !.

خلع بدلته وارتدى الجلباب ، واضطجع على سريره يستريح من عناء صعود سلالم العمارة ، فإن صعود ثلاثة أدوار ينهك قلبه العليل .. ولم يكد يضطجع مستريحا حتى أغمض عينيه .. ومات !.

مات الشاعر الزجلى الكبير هادئا فى لحظة خاطفة ، كما عاش هادئا طوال بضعة وسبعين عاما.. وانسدل الستار على آخر الزجالين

الكبار من عصر بيرم التونسى ومحمود رمزى نظيم وبديع خيرى وتلك الطبقة من فحول الزجل المصرى الكلاسيكى الحديث .

عاش أبو بثينة السنوات الثمانى الأخيرة من حياته بذبحتين فى القلب.. أصابته الأولى سنة ١٩٧١.. والثانية سنة ١٩٧٩ وقد غالبها فى المرة الأولى بروح معنوية عالية.. ثم توفيت زوجته فجأة وكانت رفيقة حياته وأحنى الناس عليه، وأصدقهم خدمة له، وأكثرهم سهرا على راحته، فى صحته ومرضه، وفى جميع حالاته على مر السنين .

فخلا البيت بموتها إلا من أبى بثينة وحده ، فقد فارقه الأولاد والبنات الذين كبروا وتزوجوا وصاروا آباء وأمهات ناجحين نابهين .

تماسك أبو بثينة تحت وطأة هذا الرزء، ولكن الحزن كان يقوده برغم تماسكه إلى الذبحة الثانية والأخيرة .

قال لى أبو بثينة بعد وفاة زوجته بقليل :

- اننى أتنقل بذكرياتى وأحزانى طوال اليوم بين حجرات البيت، أتذكر زوجتى التى فارقتنى.. أقف هنا وههنا وكأننى أقف على الأطلال كقدامى الشعراء.. أذكر ما فات من حياتنا فى هذه الشقة الصغيرة، ثم أتعب فأجلس أو أضطجع ، فإذا استرحت قليلا أخذت أكتب أو أنظم أزجالا أرثى بها فقيدتى وأبكى ما فات من حياتى معها وما بقى من حياتى بعدها ، وإنه لقليل هين !

وقد أسمعني أبو بثينة – رحمه الله – بعض هذه الأزجال.. ومن أسف أنني لم أسجلها، وذاكرتي لا تسعفني بشيء منها أرويه لك، ولعله تركها ضمن أوراقه وأزجاله التي لم تنشر .

ولكن هذه البكائيات الزجلية كانت على كل حال من نفس النبع الذي تدفقت منه أزجال أبي بثينة طوال حياته، وقلما نجد زجالا أو شاعرا مثله لم يتوقف عن النظم منذ كان في العاشرة من عمره إلى أن طرق أبواب الثمانين .. ومن يقرأ شعره الزجلي في سنة ١٩٧٩ يدهشه أن القوة الفنية لهذا الشاعر الزجلي المطبوع الموهوب ، لم تضعف حتى آخر يوم في حياته بالرغم من كل المثبطات والأدواء والأرزاء !.

وبعد أن مضت مدة على وفاة زوجة أبي بثينة – رحمهما الله – وكان قد مر على الذبحة القلبية الأولى بضع سنوات، تحسنت صحته تحسنا ملحوظا ، ومس الضوء وجهه مع ظلال خفيفة، وامتلأت وجنتاه قليلا ، وظهر فيهما أثر نشاط الدورة الدموية للشرايين التاجية والدورة الدموية في الجسم كله .. فقلت له مداعبا :

– ألا تدلني على الدواء السحري الذي تعاطيته فرد إليك شبابك وصحتك وروحك المعنوية ، لعلي أتعاطاه فأعود مثلك إلى الصحة والشباب وما يتلألأ فيهما من قوة المعنويات أو قوة الروح !

ضحك قائلا :

- لا دواء ولا حاجة، ولكنى تفكرت فى أمر هذه الدنيا فقررت ألا أبالي بها أدنى مبالاة ، ونفذت قرارى هذا تنفيذ التائب لتوبته أمام الله .. فصرت لا أحفل بما تذهب الدنيا به ، أو تجىء من قليل أمرها وكثيره ، وأتذكر دائما قول رسول الله إنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، فلا أفكر في شيء كسبته أو خسرته .. تساوت الأشياء عندى ، وتحررت من الأسى والأسف والغضب والتأمل فى خير يأتى من هنا ، أو التوجس من شر يأتى من هناك !.

ثم تفكر أبو بثينة قليلا وأنشد قول أبى الطيب المتنبى :

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعا

ولا أبيت على ما فات حسرانا

قلت له :

لعل المتنبى لم يقل هذا الا فى ساعة يأس عابرة لا تمثل مجمل أحواله فى حياته.. وإلا فإنه - كما تعلم - عاش حياته حتى آخرها مشرئبا من فرط الطمع، حسران من شدة الندم ! .

قال أبو بثينة وقد ارتسم على وجهه الرضا وصحة النفس:

- ولكنى أنا - والحمد لله - تحررت فعلا من كل أثقال الدنيا ،

وعلمت أني كنت منها في غرور.. فلم يبق لي في الدنيا إلا أنفاس الحياة ، وهذه الدماء تجرى في عروقي بأمر الله حتى يحين الأجل .

ثم لبثت بعد لقائي هذا بزجالنا الكبير الذى بايعه الزجالون في أوائل الثلاثينات - وهو في ريعان شبابه - بإمارة الزجل .. أفكر في كلامه وأقول لنفسي :

- وهل العيش إلا ذاك ؟! .. إن الإنسان لا يؤتى في صحته إلا من قبل «بكسر القاف وفتح الباء» التوتر الأحمق والقلق والحزن والغضب واللهاث وراء الدنيا .. فمن نأى بنفسه عن هذه المهلكات انتصر على الدنيا، فلا سلطان لها عليه بعد ذلك !

ثم انقضت أشهر قلائل، والتقيت بأبي بثينة عند مدخل دار الهلال، فلم أعرفه للوهلة الأولى والثانية.. تغيرت ملامح الصحة والعافية والحيوية فيه إلى ضدها، وانقلب كأنه جاوز سن المائة ، وكنت رأيته منذ أشهر في سن السبعين كأنه في الخمسين أو دونها !.

أذهلني هذا الانقلاب ، ولكني لم أسأله عن سببه، ولا بينت له أني لاحظته، ثم بادلته الفكاهات والمطايبات التي اعتدنا تبادلها بطريقة عفوية حين نتلاقى ، فهو انسان سمح تأنس إليه وإن لم تكن تعرفه، فكيف إذا عرفته ، أو كان لك صديقا مدة ثلاثين عاما ؟!.

ومضى إلى بيته في ذلك اليوم، ودخلت إلى عملي بالدار مغموما

أفكر فى سر هذا الانقلاب الصحى الرهيب.. لقد رأيته أيتها الدنيا المتقلبة فى غاية من الصحة منذ ثلاثة أشهر فقط.. فما الذى أحدثته به أيتها الدنيا ؟!.

وأخذت أسأل من يعرفون من خاصة أمره أكثر مما أعرف، فعلمت أن ذبحة قلبية ثانية دهمته فصيرته إلى هذه الحال !.

إن الذبحة إنما تجىء من توتر ساحق ، أو قلق مدمر، أو غضب عاصف، أو كمد شديد، أو خيبة مريرة .. فهذه الأفاعى النفسية المعنوية تحشد كل العوامل البيولوجية والفسيولوجية لتفجير الذبحة فى صدر الإنسان !.

وأعرف أن أبا بثينة – كما قال لى – قد صار حرا تماما من هذه الأدواء القاتلة ، فمن أين جاءته هذه الذبحة الثانية ؟!.

لم يقل لي أحد شيئا، ولا جرؤت أن أسأل أبا بثينة عن شىء حولها، ولكنى رجوت أن يفىء إلى فلسفته التى أوجزها فى بيت المتنبى الذى مر بك فى هذا المقال، فتعود إليه صحته ، أو بعض من صحته، ولو قليل !.

إلا أن الأقدار كانت قد قررت النهاية.. ففى صباح السبت الذى حدثتك عنه كان الشاعر الزجلى الكبير محمد عبدالمنعم الشهير بأبى بثينة ، يتجول بين مكاتب دار الهلال ، يسلم أزجاله ومقالاته الأخيرة ،

ويقبض آخر نقود مستها يداه في حياته ، ويتفق مع بعض زملائه على السفر فى اليوم التالى «الأحد» إلى السويس لصيد السمك بالسنارة ، فإن أبا بثينة من هواة الصيد بالسنارة ويمارس هذه الهواية بحماسة وصبر ولذة ، ويقص عنها الحكايات والنوادر.. وله فى عشق السنارة أزجال ، وله معها صحبة حميمة تمتد عشرات السنين بلا انقطاع .

ولكن الاتفاق على السفر إلى السويس حال دونه الأجل ، فلم تمض عليه ساعات حتى كان أبو بثينة فى جوار الله ، وفى سابغ رحمته وغفرانه ، وقد نفض يديه من دنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة !.

هكذا تمت فصول حياة هذا الفنان القدير المتواضع الذى عاش كادحا بمعنى الكلمة الحرفى، من طفولته إلى آخر يوم فى شيخوخته وقد شاهده معاصروه فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات وهو أشهر الزجالين فى مصر.. يناطح اسمه الشاب أسماء فحول الزجل وعلى رأسهم بيرم التونسى الذى كان فى ذلك الحين منفيا فى أوربا لأنه شتم السلطان وابن السلطان وامرأة السلطان .

ولعل عارفى أبى بثينة يومئذ ظنوا أنه سيبلغ بشهرته المدوية هذه كثيرا من الجاه والمال وترف الحياة وراحة البال والتقدير والتكريم . ولكن الرجل لم يبلغ من ذلك شيئا فى حياته ، على استحقاقه له .. وذهب مع النابغين الذين نبكيهم ونعرف قدرهم بعد ذهابهم !.

فمن أراد أن ينوه بقدر هذا الفنان الكبير فليتقدم الآن ، فقد مات الرجل ، والموت جواز المرور إلى التقدير والتكريم واطلاق الصواريخ الملونة فوق رءوس الراحلين .. لقد مات الرجل فأقيموا له إذن تمثالا كبقية الموتى ، وأزيحوا الستار عن تمثاله (١) .

إن أبا بثينة واحد من كبار الزجالين فى عصرنا ، ولسنا بصدد تقييمه هنا ولكنا نقول ونحن نلقي التحية على اسم هذا الراحل الكريم انه ورفاق جيله من زجالى مصر الكبار الراحلين ، لم ينالوا من الدراسة الجدية شيئا بعد ، مع أن أزجالهم ترسم صورة لمصر أشمل وأصدق فى بعض خطوطها وألوانها وظلالها من صور أدبية أخرى فى الشعر والنثر باللغة الفصيحة ..

وما أكثر وأطيب ما أنجبت مصر من النابغين ، تنطوى صفحاتهم فينشرها بعد موتهم عشاق النبوغ الدفين.

وسلام عليك أيها النبوغ الدفين في الرجام .. سيذكرك قومك غدا في تمثال من حديد أو رخام !.

---

(١) كتبنا هذه المقالة عقب وفاة أبى بثينة ولم يتحرك أحدلتكريم ذكراه .

رومانتيكيات كاظم

أعرف صافى ناز كاظم من صوتها (١)

عندما أسمع من أقصى دار الهلال زعيقا مرحا، أعرف أن صافى ناز كاظم قد وصلت ..

وعندما يرتفع الصراخ الاوبرالى إلى طبقة السوبرانو الحادة كنصل السكين، لا يبقى عندى شك فى أن صافى ناز تقف أو تجرى فى مكان مجاور للمكان الذى أجلس فيه ..

ولما شجعني زميلنا الرسام بهجت ذات يوم على سماع صوت صافى ناز وجها لوجه أصغيت إلى صوتها باهتمام صادق، لأنى لا أستطيع مواجهة أى صوت أسمعه لأول مرة إلا باهتمام صادق.

فو الله لقد أدهشني أنه صوت غنائى فعلا، وأنه سوبرانو فعلا.. يمتد ديوانين - أو كتافين - ويشغل ست عشرة درجة موسيقية سليمة، أو ستة عشر مقاما .. بلغة سادتنا الموسيقيين العرب.

صوت قوى واسع المساحة بحساب الدرجات الموسيقية أو المقامات، ولكنى صارحتها :

---

(١) كتبنا هذه المقالة فى الستينات .

– صوتك غير عربى .. لو غمست روحك فى الغناء العربى ، ودربت نبراتك على ثلاثة أرباع الصوت لأصبحت أشهر مغنية مصرية انتقلت من الاوبرا إلى السيكا والبياتى والراست !

قالت بحرارة : سأتدرب ..

ولكنها لم تتدرب، واكتفت حتى الآن بالزعيق الاوبرالى ، تعلن به حضورها وانصرافها ، وتثبت به انها لو شاءت لاحترفت الغناء ولكنها تشفق على مصير المطربات ولا تريد أن تخرجهن من ميدان المنافسة الفنية مقهورات محسورات !

وصافى ناز تغنى بصوتين، صوت حنجرتها، وصوت قلمها ..

وإذا كان صوت حنجرتها لم يستعرب بعد ، فإن صوت قلمها الذى كانت نبراته غريبة أو غربية قد استقام مساره أو كاد فأصبح يغنى بالعربى .

فكيف تغنى صافى ناز بقلمها وماذا يقول للمستمعين ؟!!

إن كتابها «رومانتيكيات» يسجل لنا بأمانة هذا الصوت الأدبى النسائى الجديد الذى يبالغ بعض سامعيه فى انكاره ويبالغ بعضهم فى الاعتراف به .. والحقيقة أن صافى ناز كاظم صاخبة غامضة جارحة مبالغة فى العشق والبغضاء والانفعال ، ولكنها ليست مشعوذة ولا دجالة

ولا كذابة حتى أن تجردها في الصدق يرسم لها عند بعض الناس صورة فتاة بلهاء تجهل مصلحتها ولا تبالي حقائق الحياة !.

وكتاب «رومانتيكيات» هو صافى ناز كاظم بلا زيادة ولا نقصان.. تركيبها النفسي والعقلي والبيولوجي والفسيولوجي والاجتماعي.. سراديبها الروحية وأغوارها الانسانية والوحشية.. تناقضها وانسجامها .. لونها ورائحتها .. كلها مسجلة على الورق، مطابقة تمام المطابقة ما في داخل ذاتها.. ولو شاءت لاستبدلت باسم «صافى ناز» اسم «رومانتيكيات» وأعادت تسجيل نفسها في شهادة الميلاد باسم «رومانتيكيات كاظم» بعد اتخاذ الاجراءات القانونية المعروفة فى السجل المدنى .

ويمكن أن يقال انه لم توجد كاتبة فى الأدب المصرى الحديث أصدق من صافى ناز كاظم أو رومانتيكيات كاظم، تعبيرا عما فى نفسها ... وليس صدقها هو الجرأة المبتذلة على اطراح الحياء التقليدى اطراحا تاما كما تفعل بعض الكاتبات فى لبنان مثلا ؛ فهذا أقل أنواع الصدق وزنا ، ولعل امرأة تتعرى للتجارة أو الاثارة فيراها الناس علانية ، أصدق جرأة من أولئك الجريئات على الورق!

وأساس الصدق عند صافى ناز كاظم أنها تخلصت من عقدة «الحريم» التى مست بدرجات متفاوتة جميع كاتبات مصر منذ عهد

عائشة التيمورية إلى عهد مى.. إلى عهد الكلمات النسائية التى نطالعها الآن .

فهى لا تخاف أن تعبر بصراحة ودقة عن كل ما يعبر عنه الرجل فى تمام قدرته على التعبير ، لأنها تشعر شعورا حقيقيا بأن الرجل والمرأة متساويان في حق التعبير تساويهما فى حق الحياة.. ولكنها لا تتخلى عن جنسها ولا تتمرد على أنوثتها، ولا تقول لنفسها : خلقني الله امرأة .. وخلقت نفسىَ رجلاً !.

وأول صدقها فى كتابها الجديد أنها اختارت له اسم «رومانتيكيات» لأنه حقا مجموعة أفكار وخواطر وهواجس وأحلام ولفتات فنية وذهنية ووثبات عبقرية وخبطات طائشة ، تنبع كلها من هضبة الرومانتيكية التى تسلقها في عصرنا الحديث عشرات ومئات من الكتاب والشعراء والفنانين الواقعيين والثوريين وأعداء الحرب وأنصار التقدم .. لا هربا من الواقع ، بل محاولة لتعميقه وتقريبه من روح الانسان المعاصر المأزوم ...

فالرومانتيكى الثورى الحديث هو أب صغير للبشرية المعذبة التى يهددها الفناء تهديدا مباشرا ماحقا لأول مرة منذ مشى الانسان على ظهر الأرض !.

والرومانتيكى الثورى الحديث فنان صوفى يلقي على الحياة والكون

نظرة فزع وجزع ولكنه لا يسقط فى اليأس النهائى ولا ينعى النوع الانسانى على صفحات المجلات والكتب وشاشة السينما والتليفزيون وخشبة المسرح كما يفعل بعض القانطين من أدباء وفنانى العالم الآن ..

وقد عاشت صافي ناز سنوات كثيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان ظن بعض الناس بها أن تعود من هناك متأمركة من فرعها إلى قدمها، ولكنها عادت فطرحت أثر السنين الأمريكية، وانهمكت فى تدريب قلمها على الغناء بنبرات عربية لا تخالطها نبرات الغربة الطويلة .

وكتابها «رومانتيكيات» هو ثمرة الغربة وعذابها الروحى والفكرى، وهو كذلك ثمرة العودة إلى الوطن والنظر من جديد إلى الأمور، وتبديل الرأى أو تعديله فى أمور، ومراجعة كشف حساب السنين بلا محاولة لاتخاذ موقف متكامل.. فالنظرة الجديدة والتبديلات والتعديلات والمراجعات كلها فى هذا الكتاب الجميل شذرات فكر لا فكر متكامل، وبراعم مواقف لا مواقف واضحة .

وبهذا يمتاز الكتاب ولا يعاب ، لأن الكاتبة صدقت فى التعبير والتقرير ، فلم تعبر عن شىء لم يتقرر لديها ، ولم تندفع وراء نظرة أو نظرية شاملة للإنسان والمجتمع والكون قبل أن تتبلور هذه النظرة أو هذه النظرية فى عقلها ووجدانها .

ولكن كتابها يخيل إليك بثراء تعبيراته ومعانيه وشاعريته وجدته وطلاوته وبلاغته العربية والمستعربة أنك أمام فيلسوفة أتمت شرح فلسفتها فى مقالات الكتاب الأحدى والعشرين، وقالت في كل شيء كلمتها المتكاملة .. وصافى ناز كاظم لا تزعم هذا كله لنفسها ، وتعترف بصراحة: «خطر لى فجأة أننى لا أريد أن أتزوج أبدا ، لا أريد أن أقيد خيمتى بأوتاد تشدها إلى أرض . إلا إذا قابلت مجنونا مثلى .. وماذا أريد أن أحققه أذن من الحياة ؟! اكتشفت أخيرا أننى لا أريد أن أحقق شيئا بالذات وأن كل ما أحققه سيكون بالصدفة، على الماشى . فى لحظة استراحة وأنا أتفرج . أنا ممتلئة بالاهتمام . هكذا يقول عنى الناس . وأيضا بالحيوية والطاقة والصراع . وأحيانا أبدو جادة الرغبة فى البناء وفى الوصول إلى حلول ، ولكنى لا أعنى فعلا أن أكون هكذا .. أحب أن أجلس وأمد ساقى وأسرح فى مناقشة قضية ما أو تخطيط ما سأفعله يوم الأربعاء ١٧ أغسطس سنة ١٩٩٠ عيد ميلادى الـ ٥٣ وماذا سيقول لى جعفر ابنى الذي سيكون .. أشياء هامة كهذه أرتب لها ساعة أو ساعات هنيئة لا يفهمها الآخرون .

وصافى ناز صاحبة هذا الخيال الرومانتيكي والواقع الرومانتيكى أيضا ، وصاحبة الثورة الرومانتيكية على كل شيء بدون تحديد شيء ،

كانت تشرب الحبر وتأكل الطباشير وهى تلميذة فى الابتدائية ، لتنفرد بأعجوبة خاصة .

وكتابها هذا يمتعك ويفتح لك آفاقا من الواقع والخيال والعقل والجنون .. رحبة مدهشة ، وربما قلت مفتونا : هذه الكاتبة أعجوبة .. ولكن الكاتبة الأعجوبة ستطل عليك من سطور كتابها وهى تشرب الحبر وتأكل الطباشير ، فإذا فرغت من مائدتها الشهية هذه ، لم يبق إلا أن تغني لك لحنا من طبقة السوبرانو الحادة كنصل السكين !.

الشاعر الطفل العنيف

هل من كلمة تقال عن الشاعر صالح جودت - رحمه الله - وقد مضت على مفارقته الدنيا سنوات ، فتوارى اسمه ، وهدأت الرياح التى أثارها طوال حياته فى وجوه شانئيه ومحبيه جميعا ، وأقصر عن الكلام فيه من كان يراه شاعرا لا يشق له غبار ، وانصرف عن ذكره من كان يراه شاعرا كثير الإغارة ، يأخذ من هذا الشاعر ومن ذاك ثم يدعي على الشعراء الزعامة والإمارة ، بلا جدارة ! ..

كان صالح جودت طفلا كبيرا اجتمعت فيه براءة الأطفال وعنفهم وطيشهم وحبهم لأنفسهم ، عاش حياة مفعمة شعرا ، لم ينقض يوم منها دون أن ينظم شعرا . أو يحياه ، أو يصحب واحدا من أهله أو واحدة ، وكان فى كل أحواله لا يفارق طفولته بريئا عنيفا طياشا ، وإن كان من أكثر الناس معرفة بالجانب العملى من الحياة ، فهو فى هذا الجانب خراج ولاج لا يضيع من يده شئ !

وكان إذا اتخذ موقفا عنيفا من أحد ، طلب إليك - إن كنت

صديقه – أن تؤيده فى موقفه ذاك .. فإن لم تفعل ، أحقده ذلك عليك، وربما نالك من عنفه ما ينال خصومه أو أشد .

إلا أنه لم يثبت قط على خصومة ، مع أنه ثبت على صداقات كثيرة ، أشهرها صداقته للشاعر أحمد رامى ، بالرغم مما وضعه رامى من عراقيل وحواجز تمنع شعراء عصره من تقديم أشعارهم إلى أم كلثوم رجاء أن تغنيها كما تغنى شعر أحمد رامى ، وكان من هؤلاء الشعراء المتعطشين إلى سماع أشعارهم بصوت أم كلثوم ، أصدق أصدقاء رامى وأكثرهم دفاعا عنه صالح جودت !

فكان صالح دائم الشكاة من موقف صديقه هذا ، ويقول بلا مداراة : «إن رامى يغار منى كلما قدمت إلى أم كلثوم قصيدة أو زجلا ، وقد حرضها على ألا تغنى من شعرى لأنه مستشارها الذى لا تصدر إلا عن رأيه» ! ..

ولم تكن غيرة صالح ممن يعتبرهم «منافسين» له فى الشعر أقل حدة من غيرة رامى ممن يحاولون – من وراء ظهره – تقديم أشعارهم إلى أم كلثوم ، إلا أن رامى كان يغار فيما يخص أم كلثوم فقط ، ثم يفتح صدره على مصراعيه لجميع الشعراء بعيدا عن هذا «الصرح الفنى» الذى يتولى سدانته !

أما صالح فكان لا يطيق أن يقال إن شاعرا يتفوق عليه أو يباريه أو يساويه ، ولعل هذا سبب خصومته فى أخريات حياته للشاعر نزار قبانى وشعراء آخرين من عارفيه وأصدقائه !

يذكرنى هذا بأول مرة رأيت فيها صالح جودت ، وكنت قبلها أقرأ شعره فى الصحف منذ سنة ١٩٣٥ ، بل أذكر أول قصيدة قرأتها من شعره فى مجلة «أبو الهول» عن العيون الزرق والشعر الذهبى ، وقد لبث عمره كله مفتونا بهذا اللون من الجمال ..

رأيت صالح جودت أول مرة سنة ١٩٤٨ ، وكان أستاذنا أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام ، قد توفي فجأة فنظمت قصيدة فى رثائه ؛ فقد كان هذا الباشا الأديب النبيل ، كثير العطف والحدب على شخصى الضعيف ، حفيا بما أنظمه من الشعر وأنا يومئذ فى بداية العشرينات من عمرى ، فكان ينشر كل ما أرسله إليه من شعر ولو بلغ ثمانين بيتا ..

وقد نشر إحدى قصائدى - وكانت عن فلسطين - فى يسار الصفحة الأولى الذى كان مخصصا منذ عهد سلفه داود بركات لنشر قصائد شوقى وحافظ .. ثم صار هذا الركن البارز من الصحيفة

وقفا على أشهر الشعراء بعد رحيل حافظ وشوقى أمثال على محمود طه وعلى الجارم وبشارة الخورى ومحمد الأسمر .

وأتذكر الآن أننى عجزت عن نشر مرثيتى تلك فى الأهرام بعد أن تولاه الاستاذان عزيز . ميرزا ومحمد زكى عبدالقادر ، وكلاهما بعيد عن الشعر ، فضلا عن أننى - فيما بدا لى بعد التفكير فى هذا الأمر - لم أكن أتكلف التقرب إلى أحد فى الأهرام أيام أنطون الجميل باشا ، فأبعدنى هذا عن عطف خلفائه !

ثم إن ناديا لا أتذكر اسمه الآن أعلن عن إقامة حفل تأبين لأنطون الجميل فقصدت النادى مع صديقنا عبدالعزيز عرابى - نجل عرابى باشا - الذى قال لى : إن صديقه الشاعر صالح جودت يشرف على الحفل ويقدم الشعراء لإلقاء قصائدهم .

فلما صرنا وسط المحتفلين تقدم عبدالعزيز عرابى - رحمة الله - فاستأذن لى صالح جودت فى إلقاء قصيدتى ، فإذا به يغضب وينتفض وسط الحفل قائلا بصوت حانق : «هذا حفل يقيمه أعضاء النادى ، ولا يسمح فيه بالكلام لغيرهم ، خصوصا من لم يكن مدعوا إلى الحفل» !

انصرفت بقصيدتى من الحفل وقد أذهلنى غضبه وزعيقه

وحدة كلماته ، فقد كان بوسعه إفهامنا ما يريده هامسا بلطف معتذرا أو غير معتذر .

وكأنما أرادت الاقدار أن تنصفني منه ، فلما تقدم وتقدمت إلى مباراة الشعر في مجمع اللغة العربية سنة ١٩٥١ فزت بالجائزة الأولى ، ولم يفز هو بشئ ، وكأنه عرف منذئذ مكاني ، فصرنا أصدقاء .

كان صالح جودت الشاعر الحالم ، غضوبا عصوفا ، لكنه حين يتقمص طفولته ينقلب عطوفا شفيفا يهمس بالحديث همسا ، كأنه يخشى أن يدمي بنان من يتحدث إليه !

وكان في كل حال يحب التعلم ولا يستنكف أن يصحح له أحد خطأ في اللغة أو الوزن - وقلما كان يخطئ فيهما - أو يلفت نظره إلى النطق الصحيح أو الإعراب المتفق وقواعد النحو ..

أذكر أنه كتب مرة في بعض شعره كلمة «الحكايا» - يقصد جمع حكاية - فقلت له : هذه غلطة يقع فيها الشعراء الشبان من التفعيليين ، وإنما تجمع «حكاية» على «حكايات» ..

فطفق يقرأ جميع قصائده الجديدة ليصحح فيها هذا الخطأ ، ويتجشم في ذلك تغيير الأوزان وتغيير المعنى والمبنى أحيانا ..

وسألني مرة : «أعندك ديوان زهير بن أبي سلمى ؟» .. ونطق السين مفتوحة في «سلمى» .. فقلت له : «بل عندي ديوان ابن أبي

سلمى» .. بضم السين .. فدهش وقال بتواضع وبراءة : «يا للعجب .. لقد عشت إلى سن الستين أنطق اسم هذا الشاعر المشهور بفتح السين ! .. وصدق من قال إن المرء يتعلم من المهد إلى اللحد» !

الذكريات عن صالح جودت كثيرة ، لكن المهم أن نتكلم عن شعره بما ينصفه ولا يسلكه فى الخاملين والعاجزين ، بعد أن عاش حياته كلها شاعرا مرموقا ، على اختلاف الناس فى النظر إلى شعره وشاعريته ..!

ربما جنى عليه أنه انحاز إلى فكر اجتماعى أو سياسى أو أدبى لم تكن تنحاز إليه غالبية نقاد الشعر والأدب فى مصر خلال الخمسينيات والستينيات ، فضلا عن السبعينيات التى عاش صالح جودت إلى ما بعد منتصفها لسانا من الألسنة الرسمية ، يضرب فى جميع الاتجاهات ، ويصيب عارفيه وغير عارفيه على السواء ، كأنه كان يحاول الثأر ممن تجاهلوه طويلا وأقاموا لشعره ميزانا اجتماعيا وسياسيا خدش جوهر شاعريته - وهو فى رأينا جوهر صحيح - وتحيف فنه الشعرى الرقيق المنغوم المتميز ..

ولم يكن يقبل هدنة فى هذا المجال .. أذكر أنه كتب عدة مقالات ضد كاتب معروف ، فأكثر فى مقالاته من كلمة «عملاق» وكلمة «قزم» .. وكأنه يقابل بينهما .. فقلت له يوما بين السخرية والدعابة : «أراك تفخر بطول قامتك ، ولا فخر» !

فغضب أشد الغضب وقاطعنى أشهرا وأمر فأنقصوا المساحة المخصصة لمقالي في مجلة المصور - وكان رئيسا لتحريرها - من صفحتين إلى نصف صفحة ولم تتعد مقالتى بعد ذلك نصف صفحة طوال رياسته التحرير .. يرحمه الله !

أما عن شعره وشاعريته فما من سبب يدعونى إلى التهويل فى شأنهما ، ولكننا نعرف أن النقد الحديث فى أوروبا وغيرها ، يحاول الآن ألا يدين الشاعر أو الكاتب أو الفنان بموقفه الفكرى أو الاجتماعى ، وألا يجعل تقييمه أو تقويمه رهنا بهذا الموقف جهة اليمين أو اليسار أو الوسط ، فإن الدنيا قد أظهرت لأهلها فى الزمن الأخير أنها أشد تعقيدا وتنوعا من هذا التبسيط ..

وقد نسمع الآن من يقول إن فلانا يمينى فى التفكير أو فى الموقف الاجتماعى أو السياسى ، ولكنه روائى موهوب .. ونسمع من يقول : هذا الرسام أو النحات يسارى الفكر لكن فنه ذو أبهة كلاسيكية ، ولا أثر فيه للدعاية الجوفاء !

فالأدب الحق والفن الصراح يوجدان عن يمينك وعن يسارك وأمام ناظريك ، وفى كل اتجاه لأن الدنيا واسعة يا صديقى وقد ضمت إلى مساحتها شطرا من الفضاء ، فلم تعد ذات جهات أصلية وفرعية فقط ، بل صارت ذات جهات يعييك حصرها !

وقد كسب الأدب والفن قيمة مستقلة ، وإن كان استقلالا ذاتيا ، أى متعلقا بذات صاحبه ووجدانياته ومدركاته ولمساته الخاصة وشطحاته ..

والحق أن الأدب والفن كان كذلك منذ أول الدهر برغم كل اختلال بين العصور والأجيال .. وقد يلتفت الناس إليك دهشة وذهولا ، إذا حدثتهم عن المواقف الاجتماعية والسياسية لهوميروس وشيكسبير وبيتهوفن والمتنبى وشوقى وأم كلثوم وسيد درويش ! ..

صحيح أنهم جميعا كانوا ذوى مواقف ، بحسب أزمانهم ، ولكن ماذا بقى منها للناس ؟! ..

وأنا كثير الإلمام بالأماكن الأثرية فى القاهرة ، فإذا مررت بجامع السلطان حسن – التحفة المعمارية المملوكية فى القاهرة – أقول فى نفسى : «ليت أحدا يخبرنا كيف كان الموقف الفكرى أو السياسى للمهندسين العباقرة الذين شادوا هذا الجامع الرائع» .

وفى ظل الأفكار والنظم جميعها من عصر العبودية الأولى إلى الاقطاع ، إلى عصرنا هذا بأنظمته التى عرفنا منها الرأسمالية والاشتراكية ، شيد أناس مجهولو المواقف أهرام الجيزة وآثار الهند والصين وبابل وآشور واليمن والاغريق والرومان وناطحات السحاب وسفن الفضاء ..

لكن المرء لا يفلت من موقفه فى حياته ، ولا يصح فى الذهن أن يقف أحد موقفا لا حساب عليه ، خيرا كان أو شرا .. وهذا ما حدث لصالح جودت ، فقد أضاعه عند نقاد عصره ، مواقفه التي أوجزنا الاشارة إليها ، وغلبه النقاد وأهملوه وشوهوا صورته .. وكانت بضاعته الفكرية متواضعة مع أنه كان يقرأ بالعربية والانجليزية والفرنسية ، فلم يثبت وسط المعمعة وخلال زحام «المدارس» التى استولت على ساحة الأدب والشعر وحاول برغم ذلك أن يعد نفسه فى الثوريين وأن يقيم الأدلة على ثوريته ، لكن خصومه نزعوا عنه هذا اللثام !

والمفارقة فى هذا : أن صالح جودت هو حفيد ثائر تركى شديد المراس اسمه اسماعيل جودت بك ، نجل جودت باشا .. كان من أحرار العثمانيين .. أديبا خطيبا مفوها ، ينظم الشعر بالتركية والفرنسية .. اضطهده سلاطين آل عثمان فلجأ إلى مصر وشارك في الثورة العرابية فقبض عليه الانجليز وأخرجوه منها !

وتاريخ صالح جودت الشعرى بدأ فى مسارح عماد الدين وروض الفرج بالقاهرة ، ولهذا ظل «الفن» يلازمه إلى آخر حياته ..

وبسبب علاقاته الحميمة بالوسط الفني ، أخرجته الحكومة من وظيفته بالإذاعة سنة ١٩٥٢ كما أخرجت صديقه الشاعر إبراهيم ناجى من وظيفته فى وزارة الأوقاف .

وإذا كان صالح قد بدأ حياته شاعرا رومانسيا أقرب إلى تهافت التعبير منه إلى جزالته ، فإنه اتسع بعد ذلك في الاطلاع على الشعر العربي واللغة العربية ، فطرأ على شعره الكثير من الرصانة ، وداخلته مائية الشعر الكلاسيكي الحديث كما نراها في شعر شوقي .. وقد تعلق صالح جودت بشوقي ، فجرى في آثاره ، وافتتن بأسلوبه ، حتى اختلطت الانغام الرومانسية في شعره بالأنغام الكلاسيكية وصار أعرب لغة مما كان في نشأته ، ولكن جوهر شعره بقي رومانسيا حالما مشبوبا ، يستمد الجاذبية من صدق تجاربه في الحب ، وما أكثرها ..

والشعر الرومانسي المصري لا تكتمل صورته إذا استبعدنا منها الخطوط المتميزة الزاهية الألوان التي أضافها صالح جودت إلى هذه الصورة ، وأودعها دواوينه الكثيرة التي أصدرها بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٧٥ .

وكلمتنا هذه مجرد إشارة إلى ذكراه ، وإيماءة بالتحية إلى شعره وشاعريته .. وعسى أن يتاح لنا أن نكتب عنه يوما ما نضع به حقه في نصابه ، فلا يضيع بين الذاكرين والناكرين .. ولا يضيع صوته واسمه بعد أن غنى للناس ما غنى طوال خمسين عاما ..

فكرة فى المنفى

. فى بعض كتـابات الأستاذ أنيس منصور قرأت أن الصحفى الكبير الأستـاذ على أمين يعمل وكـأنه يملك صحـة من حـديد، لا من لحم ودم، وأنه إذا سمع نصيحة ببعض الراحة، عدل عن كل راحة، كأنه فى مباراة عناد مع صحته، أو مع الناصحين المشفقين على لحمه ودمه وأعصابه !.

وعلى أمين عاش فى المنفى - بعيدا عن مصر أو مبعدا عن مصر - تسع سنوات .. خرج منها شابا ، وعاد كهلا ، لكن شـبابه وكهولته لم يشعر بهما وإن مرا بالأيام والشهور والسنين على شهادة ميلاده . وقد أقنع نفسـه أنه عـاد كما ذهب ، وأنه غـادر المنفى ولكنه لم يغـادر تلك السنين التسع وراءه بل جاء بها معه فأثبتـها فى مكانها الذى انتزعت منه وعاد شابا كما كان ، وكمـا ينبـغى له دائمـا أن يكـون !

وفى غمـرة التفـاؤل نسى تلك اللحظة الطويلة التى مقدارها تسع سـنين فى اللحـظة الخاطـفة التى لامسـت فيـها قدماه مطار القاهرة ..

ولكن الكتـاب الذى نشـر لعلي أمين (١) أكثر اعترافا بالواقع من على أمين نفسه ..

---

(١) نشره بعد عودته ، وقد توفي إلى رحمة الله بعد مدة قصيرة فى أواخر السبعينات ، وكتبنا هذه المقالة قبيل وفاته بقليل .

اسم الكتاب «فكرة فى المنفى» .. يضم أكثر من مائتين وخمسين صفحة ، وعدد الأفكار فيه أكثر من عدد الصفحات ..

وكيف بالله ينزع المرء من لحمه ودمه مائتين وخمسين قطعة فى المنفى ، ثم يوهم نفسه ، أو توهمه نفسه أنه مازال قائما بوزنه والمقاسات القديمة لثيابه وعدد الشعرات الباقية في رأسه ، ولونها .. برغم كل ما رسم الزمن تحت العينين من سهر وشجن ، وما كتب من سطور فى الوجه والجبين ، وما أضاف أو اختزل من خفقات الصدر ، طوال تسع سنين ؟!

لم أر على أمين منذ اثنى عشر عاما تقريبا، حين نقل من دار الهلال وكان رئيسا لمجلس إدارتها ورئيسا لتحرير المصور والهلال بها ..

وكان لحنه المتميز فى تلك الأيام ، دخان سيجارته ، متوهجة بين أصابعه دائما أبدا .. وكانت شبارته وطابع بريده إلى القراء ، كلمته الاسبوعية «فكرة» التى لم يكن يجد مكانا لها يوميا كما وجد فى جريدة الأخبار ، وكما وجد لها فى المنفى ، لأن دار الهلال تصدر مجلات فقط ..

وكان يرأس الاجتماع الاسبوعى الذى يسمى «اجتماع التحرير» ويضم صالح جودت ومرسى الشافعى وأحمد رجب وسعد الدين توفيق ومحمد حسن وكاتب هذه السطور .. ويستضيفنا جميعا فى حجرة

مكتبه ، الاستاذ الكبير فكرى أباظة غير باخل علينا بشئ من طرائف ذكرياته وسخرياته ، أو شايه وقهوته وسائر مظاهر كرمه الحاتمى ..

وكنا - أو كان بعضنا - يظن على أمين طفلا كبيرا ، يقال له : كذا .. فيوافق .. ولكنه فجأنا ذات يوم قائلا بكل صراحة :

- إنكم تظنون أنكم تنفذون ما شئتم من الاقتراحات والآراء ، ولكنى أقول إنكم مجرد مستشارين لى .. تقولون ما شئتم وقد أعمل بآرائكم ، وقد لا أعيرها أى اهتمام» !

ثم ضحك ومضى يدخن ويتحدث ، ونحن أيضا .. رحنا نتحدث ونضحك وندخن ، مستشارين لا أهمية لموافقتنا أو عدم موافقتنا .. فقد كنا واثقين بأن على أمين كان يريد امتداح آرائنا بتلك اللفتة الساخنة والذم المراد به المدح !

وعلي أمين بسيط الفكرة كبساطة تعبيره ولكنك إذا تأملت تعبيره البسيط وجدته من السهل الممتنع الذى يندر مثله فى الاساليب الصحفية ، بل والادبية الآن .. إنه بليغ ، وبلاغته هى لغة الصحافة الحديثة وإذا صح أن الاسلوب صورة من الفكر ، فإن فكر هذا الكاتب الذى يبدو بسيطا ، هو - كأسلوبه - سهل ممتنع ، بل لعله ممتنع فقط ، وإنما هو سهل فى الظاهر فقط ، وفوق ملمس قشرته ليس إلا ..

وظاهر فكره - كماتقدمه إلينا فكرته اليومية هنا أو فى المنفى -

أنه يؤمن بقوتين عظيمتين ، احداهما سماوية هى قوة الخالق .. والثانية أرضية هى قوة العلم ..

وبين قوة السماء وقوة العلم الحديث ، يتعلق علي أمين بشعرتين أدق من شعرة معاوية المأثورة وأشد منها متانة واستجابة لتطورات الدنيا وتحولات الناس ..

أما الشعرة الدقيقة الأولى وهى ذات سحر نفسى هائل عليه ، فهى «الدعاء» .. فإن على أمين لا تخلو له «فكرة» من دعاء .. يرفع كف الضراعة إلى السماء ويقول : يارب ..

والشعرة الاخرى ، ليست فى الحقيقة شعرة ، بل هى «زر» .. فإن الأزرار الساحرة التى اخترعها العلم الحديث وفتح بها أبوابا فى الارض والفضاء ، هى الفتنة الطاغية التى تأسر قلب على أمين ، وهى أبهى لديه من أجمل حسناء فى العالم ، ولو قيل له : هذه ملكة جمال العالم ، وهذه مجموعة أزرار اليكترونية حديثة ، لأشاح بوجهه عن ملكة الجمال ، وأقبل على الازرار الاليكترونية بالاحضان والقبلات !

إن أزراره الساحرة تعمل على ظهر الارض وفى اجواز الفضاء ، أما دعاؤه فإنه يسبح فى علياء السموات .. وبين الازرار السحرية والدعاء المستجاب ، يعيش على أمين ، وتمر به الأيام فلا يشعر بها ، ولكن الايام لا تنسى أحدا ..

وأول كتاب يجمع «فكرة» على أمين صدر فى القاهرة سنة ١٩٦٤ واختار له الناشر اسم «دعاء» وجمع فيه أكثر من ستين دعاء في مناسبات عديدة .. دعاء بعد تأميم قناة السويس .. دعاء لمصر .. دعاء لشارلى شابلن .. دعاء سنة ١٩٦٤ .. الخ .

ويومها كتبت اقول إن على أمين قد اسرف فى الدعاء ، حتى أحس هو نفسه أنه اسرف فقال : يارب إننى لا «أتعب» بإسرافي في الدعاء ، وأشعر بالراحة وأنا اتجه إليك .

ولو استجيب كل دعاء لعلى أمين فى كتابه الأول لكان ممن لهم قصور فى جنة الخلد مع الصلحاء والاتقياء وأهل الورع .. وكأنما اقتنع بعد طول دعاء أن له فعلا هذه القصور فكتب يقول : «أشعر أن سيدنا رضوان لن يتركنى انتظر فى طابور الواقفين امام باب الجنة .. لن يطالبنى بتقديم أوراق تحقيق الشخصية وشهادة حسن السير والسلوك».

ذلك هو على أمين ذو الدعاء ، وهذا رجاؤه فى السماء ، أما علاقته بالازرار فهى علاقة الرجل «العلمانى» المنغمس فى التكنولوجيا إلى الأذقان ، وحتى النخاع .

أن لدى هذا الكاتب التكنولوجى ازرارا سحرية لا تحصى ، مختلفة الألوان والاشكال والافعال .. زر يقدم الطعام .. وزر يحلق اللحية . زر

يشعل السيجارة - ولاشك أن سيجارته التي لا تنطفىء تحتاج إلى مجموعة أزرار لا إلى زر واحد - ثم زر يقود الطائرة أو ينشر الغسيل أو يجيء إليه بفكرة إذا استعصت عليه الافكار..

ولم يبق له من مطمع إلا زر عظيم القدر لم يخترعه أحد حتى الان ، هو الزر الذي يستطيع أن يحمل الدعاء ويطير به إلى الفضاء .. وهذا ولا شك مجرد حلم ، ودعاء غير مستجاب ، وليس يضير على أمين أن يسقط له دعاء واحد فلا يستجاب بين ألف دعاء استجيبت فعلا ، أو هي مرجوة الاستجابة إن شاء الله ..

قالوا إن على أمين ببراعته الصحفية التى يعترف بها الجميع قد أدرك أن للروحانيات جمهورا كبيرا ، وأن الدعاء الذى يكتبه يوميا ينتظره عشرات الالوف ليجدوا فيه الراحة .. ويجد هو فيه «التوزيع» .. وماذا فى هذا ؟!

فيما مضى كان الشعب لا يملك إلا الدعاء يواجه به طغيان سلطان مثل السلطان خوشقدم أو السلطان جقمق أو السلطان قنصوه الغورى .. وباشوات العثمانيين وبكواتهم من بعد ..

وكان الشعب لايملك إلا الدعاء فى مواجهة المجاعات والأوبئة والحروب وعنتريات البكوات المماليك فى العهد العثمانى الطويل .

وحتى فى زماننا الاخير ظل الشعب فترة يدعو أن يرفع الله عنه

العبء الثقيل حتى استجاب له ، ولكن عقابيل العبء تحتاج إلى مزيد من الدعاء .

فإذا جاء على أمين ودخل مع الشعب داعيا ضارعا ، فإنه لم يفعل إلا ما فرضته عليه طبيعته المتدينة برغم كل علمانيتها .. وقديما كان السلاطين الطغاة يخشون دعاء الزهاد والمتصوفين نزلاء الخانقاه ،لإنهم كانوا يطلقون على هؤلاء الظالمين صواريخ الدعاء كل ليلة ، وكثيرا ما أصابت هذه الصواريخ أولئك الطغاة !

ولكن حدث بعد ذلك أن السلاطين استمالوا إليهم بعض هؤلاء الداعين المنقطعين عن فتنة الدنيا وزينتها ، فألحقوهم بحواشيهم ، وكانوا يصحبونهم فى حروبهم ، لمهمة واحدة فقط هى الدعاء بالنصر للسلطان .. مع دوام العز والتأييد !

وكان أكثر هؤلاء السلاطين ينهزمون ، وآخرهم قنصوه الغوري الذى أسفرت هزيمته فى مرج دابق عن أسر جميع أصحاب الدعوات الصالحة الذين كانوا في معيتة السنية ، ووقوعهم فى قبضة السلطان سليم العثمانى الذى كان له هو أيضا فرقة من أهل الدعاء !

ولكن حرفة «الدعاء» القديمة قد بطلت حديثا .. والدليل على ذلك أنها – كما نرى – قد أصبحت كلاما يوميا ينشر فى الصحف ويجمع فى الكتب ، ولا يتقاضى صاحبه شيئا من السلطان ولا يدعو له بالعز والتأييد ..

إن صاحب «الدعاء» قد قذف به الزمن إلى المنفى ، وقذف معه الازرار السحرية أيضا .. وأصبحت «الفكرة» البسيطة التي تضع في يمينها مجموعة الازرار وفي شمالها مجموعة الأدعية ، مطرودة من بلدها، بأدعيتها وازرارها جميعا !

ولم يعد لصاحب الدعاء المستجاب ، والزر السحرى العجاب صوت إلا من وراء البحار .. وكان هذا أفضل بطبيعة الحال من أن يكون له صوت من وراء جدران السجن مع شقيقه مصطفى أمين !

وكأنما شعر على أمين بعدعودته أنه لابد أن يقدم نفسه من جديد للقارىء .. فقال : «عشت بعيدا عن بلادى تسع سنوات كاملة كنت خلالها أنتقل بجسمى بين لندن وبيروت وروما وباريس وميونيخ وعدد من بلاد أوروبا .. ولكن قلبى استمر يعيش فى مصر .. كنت طوال هذه السنين أعيش في مصر .. أرى مياه النيل تتراقص فى دلال وأرى عيون شعب بلادى الساخرة ، أكتوى بألامها واحس بجروحها ودموعها .. كنت اعيش مع هزائمها واحلم بانتصاراتها .. وتحملت مطارق السنين ، ولكن الله كان معى فى منفاى .. يزرع الامل فى صدرى ، ويرد الايمان إلي قلبى ، وكان معى قلمي ، ورفض القلم أن يستسلم للنفى والتشريد، وأصر على أن يكتب ويسجل كل نبضات قلبى وبعض نبضات عقلى .. وفى المنفى كتبت ٣٢٨٥ فكرة .. بعضها بدمى ، وبعضها بعرقى ،

والباقى بقلمى .. وإننى أقدم لك اليوم بعض ما كتبت فى المنفى ، أما الباقي فقد احتفظت به لنفسي قبل أن أقدمه لك» ..

بهذا الايجاز البسيط البديع حقا صور على أمين كتابه كله ، ورسم له فى أضيق حيز بانوراما لامعة ، ثم ترك القارى بعد ذلك يتفرج عليها من بعيد ومن قريب ، ويتأمل ظاهرها وباطنها ، ويقول فيها رأيه ، مع الكاتب أو عليه ، أو معه فى شىء وعليه فى شىء آخر ..

وأول كلمة يقولها على أمين لقارئه فى أول فكرة : «إن الشعب الذى لا يستخدم حقه الانتخابى يفقد فرصته فى أن يقول للحكام : لا .. ويفقد انسانيته وحريته ، لأن الانسان الحر وحده هو الذى يستطيع أن يقول :لا» ..

ويقول فى فكرة أخرى : «أتمنى أن أدير اسطوانة : «للصبر حدود» فى قاعة الامم المتحدة ! .. فقد ضاق صبرنا بعد أن سجلنا أرقاما عالمية فى الصبر لم يسجلها سيدنا أيوب .. لقد تآمر الأقوياء علينا ، وساعدوا اللصوص على احتلال وطننا وطردنا منه .. أصبحنا نعيش فى الخيام ؛ واللصوص يعيشون فى بيوتنا» ..

فى هذه المأساة لم يجد على أمين دعاء يصلح الحال ، ولا أزرارا تقلب الهزيمة نصراً .. ولم يجد إلا صوت أم كلثوم ، يحلم بأن تسمعه الامم المتحدة فى أغنية «للصبر حدود» !..

كامل الشناوى يتدحرج بخياله

كان القراء يتوقعون من كامل الشناوى كتابا عنوانه «لقاء معهن».. وأغلب القراء تسرعوا فى قراءة عنوان الكتاب.. انقلبت الميم فى عيونهم إلى «ن».. ثم فوجئوا فى أول الكتاب بأول لقاء لكامل الشناوى مع جمال الدين الأفغانى (١).

عندها فقط استيقظوا من حلمهم الجميل.. أدركوا أن كامل الشناوى يكتب فى هذه المرة عن الرجال، لا عن الفاتنات وغير الفاتنات اللاتى ملأ بهن الدنيا وشغل الناس.

يكتب فى هذه المرة عن ثوار ورواد ومفكرين وشعراء ورجال كانوا يطلقون لحاهم، ويضعون على رءوسهم عمائم الورع والتقوى.

رجال لا يمكن أن يعلق بهم أبدا حرف النون الذى برق فى عيون القراء وهم يطالعون بسرعة ولهفة عنوان الكتاب!

إن كامل الشناوى فى نظر القراء هو الكاتب الذى يستخدم نون النسوة أكثر مما يستخدمها أى كاتب آخر فى القاهرة.. فإن ثلاثة أرباع كتاباته نواح عليهن أو غزل فيهن، أو تنديد بهن، أو توسل إليهن..

(١) أول كتاب جمع فيه كامل الشناوي بعض مقالاته وصدر سنة ١٩٦٣ قبل وفاته بسنتين، عنوانه «لقاء معهم» .. وكلمتنا هذه نشرت وقت صدوره .

وهو يخرج من حب، ليدخل فى حب. ويقوم من عثرة ، ليقع فى حفرة.. ويداوي جراحه من معركة ، ليلقي بنفسه فى حرب طاحنة.

إنه الرجل الذى ينطبق عليه قول المتنبى:

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى

شـيئا تتيمـــه عيـن ولا جيـد

نعم .. لم يبق فى قلبه ولا كبده شىء لم يحرقه الحب أو حقد الحب أو الجرى وراء الحب.

لم يبق فى قلبه ولا كبده مكان خال.. كل الأمكنة مشغولة، أو مغلقة لأن أصحابها رحلوا ومعهم مفاتيحها.

ان قلبه وكبده يشبهان القاهرة والاسكندرية فى أزمة المساكن.. لا توجد فيهما شقة واحدة خالية..

ليس معنى هذا أن كامل الشناوى فاتك من طراز كازانوفا مثلا. فالحقيقة أنه بعيد تماما عن هذا الاتجاه، وإنما هو إنسان شاعر عميق الشعور بجمال الدنيا، وبخاصة جمال المرأة.

ومن هنا تكاثرن على قلبه، وتكاثرت عواطف قلبه عليهن.. واختلط الأمر ، حتى كأن معركة دائمة تدور بينه وبينهن.

وهو فى هذه المعركة الدائمة، دائم الهزيمة . مجروح فى كل لقاء،

يمارس عشق الجمال بطريقة فذة تكاد تشبه طريقة دون كيشوت فى حرب طواحين الهواء.

وحكايات حبه الدائم مباحة للأسماع والأنظار، فوق الورق الذى يملؤه بكتاباته وأشعاره، وفوق ألسنة الأصدقاء والصديقات التى تمتلىء دائما بالحديث اليه، وتفرغ دائما بالحديث عنه !

وهذا هو السبب في أن قراء كامل الشناوى، لا ينتظرون منه أن يحدثهم عن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمود سامي البارودى وأحمد شوقى وإسماعيل صبرى والدكتور مشرفة ولطفى السيد وأمثالهم.

إن قراءه ينتظرون منه أبدع ما فيه وأصدق ما فيه وأغرب ما فيه وأسوأ ما فيه.. ينتظرون منه اعترافات قلبه.

وكامل الشناوى الذكى المدرب الذى عاش فى أعماق الدنيا يوهم القراء دائما أنه يقدم اليهم اعترافات قلبه.. ولكنه لا يقدم إليهم شيئا.

فما من قارىء عرف اسم بطلة من بطلات كامل الشناوى من خلال سطوره التى يكتبها.. ولكن عشرات ممن لا يعرفون كامل الشناوى معرفة شخصية ، لا تفوتهم طائفة من أخص أسرار قلبه التى لم يكتبها على الورق.. لأن هذه الأسرار أصبحت مؤممة تقريبا بفضل ذلاقة الألسنة التى تتحدث عن كامل الشناوى.

وهو لا يتأذى من ذلك، فإنه صديق ملايين من الناس لا يعرفهم، ولكنهم يعرفونه، ويعطفون عليه كأنه ابنهم، أو كأنه والدهم، أو كأنه أخوهم.

فقد بلغ كامل الشناوى هذه المنزلة التى تصبح فيها شخصية الرجل اللامع معنى مجردا من الكيان المادى.. كأنه مجرد رمز أو ضوء معلق فى الفضاء..

فإذا قيل : كامل الشناوي .. لم يتبادر الي الأذهان رسم رجل فى الخمسين من عمره .. يحمل آثار بدانة أذاب أكثرها إعياء البدن والروح.. وانما يقفز إلى الخاطر معنى مجرد ، خال من صورته المادية .. كأنما كامل الشناوى اسم اسطورى قديم ، لم يبق فى أذهان الناس الا رمزه ومعناه .

لهذا صدم أكثر قرائه حين اكتشفوا ان عنوان كتابه «لقاء معهم» لا «معهن».. فإن نون النسوة هنا ليست مجرد وضع لغوى وانما هى أداة فعالة من أدوات الرمز الأسطورى الذى لم يترك الدهر من قلبه ولا كبده شيئا لوافدة جديدة تخلص إليه من الزحام الشديد!!

ومع ذلك فإن كتاب «لقاء معهم» تكتمل به الصورة الأسطورية لكامل الشناوى.

فهؤلاء الذين كان له مع كل منهم لقاء لم يبق منهم أحد فى دنيانا .. فرغوا جميعا من أمرها ورحلوا إلى آخرتهم.

ولكن كامل الشناوي... التقى بكثيرين منهم بعد رحيلهم ، وهو الذى لم يلتق بهم فى حياتهم!

لقد حملته قوة فى قلمه وبيانه تشبه القوة الروحية ، إلى هؤلاء الخالدين، فحدثهم وحدثوه من وراء الغيب، فكأنه استنزلهم أحياء إلى أرضنا يمشون بيننا ويتكلمون.

وبهذه القوة الروحية استطاع ان يلتقى بشخصيات من تاريخنا، كجمال الدين الأفغانى والكواكبى وقاسم أمين وسيد درويش.

وكان لقاؤه بهذه الشخصيات - كما يقول - من خلال آرائها وأفكارها وكتبها وتاريخ حياتها.. ولكن أقوى وسيلة من وسائل اللقاء كانت قوة الروح والشعور.. فهى القوة التى استحضر بها كامل الشناوى هذه الشخصيات الى صفحات كتابه ، قبل أن يستحضرها من خلال آرائها وكتبها وتاريخ حياتها.

حسبك شاهدا على ذلك، لقاؤه مع جمال الدين الأفغانى الذى رحل عن الدنيا قبل أن يولد كامل الشناوى.

كيف التقى به؟

«لا أدرى - هكذا يقول كامل الشناوى - كل ما أدريه أنى تدحرجت وتمرغت بخيالى ومعلوماتى خلال حلقة الزمن ، وانتقلت من مكانى فى

عام ١٩٦١ إلى مجلس العالم الثائر المفكر : جمال الدين الأفغانى فى عام ١٨٧٩».

إن كامل الشناوى يتدحرج بخياله ليلتقى بجمال الدين الأفغانى .

تأمل معى هذا التعبير - يتدحرج بخياله - فإن الخيال الذى يتدحرج عنصر أصيل من الفنان الكاتب الشاعر كامل الشناوى !

يتدحرج بخياله مندفعا إلى هدف من أهداف قلبه، او أهداف عقله.. لا يبالى عاقبة أمره، فإن الذى يتدحرج لا يستطيع أن يتوقف الا مرتطما او مصطدما او ممزقا او مفيقا في حضن حورية من حوريات الجنة !

ولقد عاش كامل الشناوى.. طوال حياته يتدحرج بخياله.. ويجفل من الواقع ويبكى منه ويتعذب في ناره.. فيلجأ إلى خياله يتدحرج معه إلى حيث تشاء الأقدار.

وليس كتابه إلا نوعا من التدحرج مع الخيال .. والإجفال من الواقع..

لقد أتعبه اللقاء الطويل مع بطلات قلبه ، فتدحرج عنهن بخياله إلى لقاء مع أبطال التاريخ ..

العاشق الأصم

الناس لا يعرفـونه الآن .. حـتى فى طنـطا ، المدينـة التى عـاش فيها ومات ..

مررت بطنطا.. خيل إلى أن أهلها يعرفون مصطفى صادق الرافعي كمـا يعرفـون السيـد البدوى، ولكن جـميع الذين سـألتـهم عنه هزوا رءوسهم، وسخر منى بعضهم، فقد سألتهم عن رجل مات فى مدينتهم سنة ١٩٣٧.

سألتهم عن الشارع الذى يحمل اسم الرافعى في طنطا فلم يعرفوه، ثم علمت أن بلدية طنطا أزالت اسمه من الشارع.

شيء واحد بقي يحمل اسمه : مدرسة مصطفى صادق الرافعى الثانوية..

وقفت على بابها وسألت أحد تلاميذها عن الرافعي، فأجابني ببراءة تامة، انه لا يعرف عنه شيئا الا اسمه.

كان الرافعي سوري الأصل ، مصرى المولد والديار ، عربى النزعة ، يرى وطنه فى كل أرض عربية .. فكان بذلك من الرعيل الأول لدعاة القومية العربية.

وكان صاحب أسلوب فى الكتابة لا يشبهه أى أسلوب آخر منذ عهد عبدالحميد الكاتب الى عهدنا الحاضر..

وانتاجه الأدبى مازال مظلوما ومفترى عليه من جيلنا ، ولو أنصفناه لانفتح لنا منه صندوق سحرى ، كصناديق ألف ليلة وليلة ، مترع باللآلىء والجواهر والذهب..

وقد مات الرافعى فى قمة عطائه ، ولم يقدره المجتمع الذى عاش فيه ، ولم يفهمه .. وورثنا نحن هذا الموقف القديم .. فمازلنا لا نفهم الرافعى .. ومازلنا لا نقدره !!

كان الرافعى - حتى يوم وفاته - كاتبا بمحكمة طنطا الكلية، فى الدرجة السادسة.

لم يكن يتقيد بمواعيد الوظيفة المفروضة على الموظفين، فقدم ضده أحد رؤساء هذه المحكمة شكوى إلى وزارة العدل مطالبا بفصله.. وكان الدافع لهذه الشكوى أن الرافعى لم يكن موجودا على مكتبه ولم يشترك فى السلام والترحيب بهذا الرئيس الجديد .. وانتدبت الوزارة يومها الشاعر حفنى ناصف - وكان موظفا كبيرا بها - ليحقق فى هذه الشكوى ؛ فكتب حفنى ناصف إلى وزارة العدل يقول :

«إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود.. ان له حقا على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية.. دعوه

يعش كما يشتهي أن يعيش واتركوه يبدع لهذه الأمة في آدابها مايشاء أن يبدع، والا فاكفلوا له العيش الرضى فى غير هذا المكان» (١).

وكان الرافعى رومانسى المزاج، كلاسيكى التعبير، ولكن كلاسيكية تعبيره كانت تتمثل في تمسكه باللفظ العربى الصحيح فقط ، أما جملته النثرية فكانت تشبه الجملة المترجمة أحيانا لفرط تحررها وامتلائها بالاحساس.

والحقيقة أن الرافعي المتزمت في الدين واللغة كان متحررا فى الذوق الأدبى والفنى.

كان يضع على مكتبه فى بيته صورة الشيخ محمد عبده وصورة الآنسة كريمان خالص، ملكة الجمال التركية التى زارت مصر عام ١٩٣٢ ورآها الرافعى فى حفلة تكريم أقيمت لها فى جريدة «السياسة» وقال عنها : « انى برغم نقمتي على سفور المرأة المسلمة، راض عن سفور هذه الفتاة لأنها أشبه بتسبيحة الهية فى شكل انسانى» !

وكان الرافعى أصم ، لا يسمع شيئا ، فانعزل عن الناس ، وعاش مع خياله كمن لا تجارب له فى دنيا المرأة. ولكنه كان متصوفا، استطاع اعلاء نوازعه الى سماء من الفن والشاعرية لا نظير لها فى السماوات التى رفعها الشعراء والفنانون العرب.

---

(١) هكذا روى الحكاية محمد سعيد العريان فى كتابه «حياة الرافعى» .

وقـادته صـوفـيتـه ورومـانسـيـتـه وقلـة تجربتـه الى الحب العـذري في تجارب حب كثيرة.

وكانت «مي» هي آخر حب كبير في حياة هذا المتصوف الرومانسي القليل التجربة في دنيا المرأة، على كثرة من تعلق بهن يوما أو يومين، أو ساعة أو أقل.

وعندما أحبها، كان أشهر الأدباء والشعراء في مصر يحبونها، ولكن الرافعي كان الوحيد الذي سجل حبه في كتب بأكملها .

وعندما وجد الرافعي قلبه متعلقا بـ «مي»، ووجد نفسه عاجزا عن الخلاص من حبها، قال لنفسه: «ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقي ويغلبني على ارادتي؟.. ان في بيتي زوجة أحبها وتحبني، وإن لها حقا علي ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة، إلا أن تأذن لي .. ماذا يكون من أمري وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذي حق حقه؟»..

ولم يهدأ الا حين صارح زوجته بحبه لـ «مي» واستأذن منها في هذا الأمر ، وأصبح لا يكتب الى «مي» رسالة إلا قرأها لزوجته قبل أن يلقيها في البريد !

ويقول مؤرخ حياته المرحوم محمد سعيد العريان وهو يصف هذا التناقض الذي عاش فيه: «هذا الذي يكتب عن اعجاز القرآن وأسرار

البلاغة النبوية ، ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة فتحسبه رجلا من التاريخ قد طوى الزمان ليعيش فى عصرنا .. هذا الرجل كان عاشقا غلبه الحب على نفسه ، وما غلبه على دينه وخلقه» !

ويصف سعيد العريان بداية حب الرافعى لـ«مى».. «فى أوائل عام ١٩٢٣ قصد الرافعى إلى ندوة الآنسة «مى» ، فى مجلس الثلاثاء المعتاد، حيث تستقبل الأدباء.. رآها فوقعت من نفسه موقعا فى أول لقاء.. وكانت هى فى منتصف العقد الثالث من عمرها.. مهيبة رزينة بديعة التكوين».

وكان الرافعى يسافر من طنطا الى القاهرة كل ثلاثاء، فإن لم يستطع كتب اليها من طنطا، وكتبت هى اليه ردا قصيرا أو طويلا ..

«كان يحبها حبا عنيفا جارفا، ولكن حبه ليس من حب الناس. انه حب فوق الشهوات والغايات .. لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح» !

وخيلت إليه سذاجته أن «مى» تحبه كما يحبها تماما، وانها يجب أن تترك الناس جميعا وتفرغ له، وتغلق ندوة الثلاثاء، أو تجعلها له وحده!!

«وراح الرافعى يوما الى ميعاده وكان في مجلسها شاعر جلست اليه تحدثه ويحدثها. ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثا بدأته ، وجلس الرافعى مستريبا ينظر – وهو لا

يسمع طبعا - وأبطأت به الوحدة . ونظر الى نفسه والى صاحبه .. وقالت له نفسه : ما أنت هنا ، وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ؟ فاحمر وجهه ، وغلى دمه، ورمى اليها نظرة أو نظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه الى الباب.. واستمهلته فما تريث، وكتب اليها كتاب القطيعة. وعاد البريد اليه برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب فى اسطر ثلاثة، ولكن الرافعى حين وجد كبرياءه نسى حبه، وكان هو الفراق» .

هكذا وصف محمد سعيد العريان آخر لقاء بين الرافعى و«مى» .. لقد قطع الرافعي علاقته بها لمجرد اهتمامها بضيف، وثار عليها كما يثور العاشق المراهق على محبوبته الصغيرة !

وخرج الرافعى من هذه التجربة بكتابه «رسائل الأحزان».

وقد وصف هذه الرسائل الحزينة بقوله: «هى رسائل الأحزان لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت .. ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة .. وكان كالحياة ماضيا الى القبر»!

وفى رسائل الاحزان قال عن «مى» : «عطر قلبها ينفذ الى قلبك من الهواء ، فإذا تنفست امامها فقد عشقتها».

ويقول سعيد العريان: «فلما استفرغ ما كان فى نفسه عن خواطر الحب المتكبر، ونفس عن غيظه بما ذكر من معانى البغض والهجر والقطيعة ليخدع بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه ؛

هدأت ثائرته وفاءت اليه نفسه فاستراح الى اليأس، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلىء من بعد بالشعر والحكمة والبيان»..

وبعد سنوات من الفراق، أخرج الرافعى «أوراق الورد» وهو كما يقول العريان: «طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الحب والجمال ، أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته، ويثبت تاريخا من تاريخه فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخا ولا من بعد».

والعريان مقتنع بأن أوراق الورد تحوى رسائل الرافعى الى «مى» فعلا.. أما الرسائل التى كان الرافعى يقول انه تلقاها من مى وضمنها أوراق الورد ، فلا يكاد القارىء يتبين موضعها بين رسائل الرافعى، ويؤكد العريان نفسه أنه لايدرى أين موضع رسائل مى من أوراق الورد «الا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتف من حديثها وحديثه».

وقد كان زكى مبارك يكتب رسائل «مجنون سعاد» ويرسلها الى مجلة «الصباح» لا الى سعاد نفسها، فتقرؤها سعاد منشورة فى المجلة، وكذلك كان الرافعى، فإن رسائله فى «أوراق الورد» لم يبعث بها الى «مى» وانما كتبها اليها ليقرأها هو نيابة عنها وبالأصالة عن نفسه بطبيعة الحال .. «إلا رسالتين أو ثلاثا مما فى أوراق الورد» أرسلها الى «مى» فى البريد ، ولم يتلق عنها ردا .

قد يدعو الى بعض الابتسام أن الرافعى لم يسجل فى «أوراد

الورد» رسائله إلى حبيبة واحدة هى «مى» .. بل أضاف إلى هذه الرسائل بعض ما كانت احدى حبائبه الاخريات قد أوحته اليه من معانى الحب والجمال .. وهى الحبيبة التى أدار حولها حديثه البليغ فى كتابه «حديث القمر» .. وهو كتاب عسر لم يفهمه عامة قرائه ..

وكما يقول سعيد العريان : «هما اثنتان لا واحدة ، تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذى أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالأمل» .

أما «تلك» التى يعنيها العريان فهى صاحبة «حديث القمر» التى عرفها الرافعى «فى ربوة من لبنان» ..كما يقول العريان .

وأما «هذه» فهى الانسة مى بعينها .. جارحة كبريائه وقلبه ، وصاحبة ذكرياته الأليمة ! ..

وببصيرة الناقد الذكي الدقيق نفذ العريان إلى حقيقة كتاب أوراق الورد .. قال : «هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ، ثم يصور فنه وبيانه في لغة الحب ، ثم لا يصور شيئا من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأني ليستخلص معنى من معنى ، على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء» ..

وهو «كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى كان يعشقها – أى

يعشق مى - ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الاديب وحيلة الفنان» .... والكتاب باختصار : «كان حبا فى الدم فصار حديثا فى الفكر ، ثم استتبع شىء شيئاً» .. على حد تعبير العريان وهو تعبير صحيح بليغ بلا جدال ، فى هذا المجال ..

ويكاد العريان ، وهو مؤرخ حياة الرافعى ، وكاتب وحيه ، وصفيه وتلميذه ، يلذع الكتاب بنقد يصدم عاطفة الرافعى ، وذلك حيث يقول العريان في لباقة لا تخفي ما وراءها : «وما قرأت من قول مزوق ، وبيان منمق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجر فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة، فهو من أداء الفن وولادة الفكر» ..

والعريان هنا يستعمل كلمة «ولادة» وقد استعملها طه حسين فى نقد الرافعى حين نشر «رسائل الاحزان» فرد عليه الرافعى ساخرا يقول : «لقد كتبت رسائل الأحزان فى ستة وعشرين يوما ، فاكتب أنت مثلها فى ستة وعشرين شهرا» ..

ولم يكتف الرافعى بتحديه هذا لطه حسين .. فمضى يتحداه قائلا :

«ها أنا أتحداك أن تأتى بمثلها أو بفصل من مثلها ، وإن لم يكن الامر عندك فى هذا الاسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلاما من آلام الوضع كما تقول ، فعلي نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله» ..

كان الرافعى على جده وتزمته وضخامة بيانه ، ساخرا من أبرع الساخرين وأحلامهم فكاهة ، وله فى ذلك ما لم يكن للجاحظ فى زمانه ! .. ولا للمازنى فى زماننا، ولكن الناس فى أيامنا هذه يجهلون الرافعى .

فانظر كيف غضب الرافعى من لفظة «الولادة» فى كلام طه حسين ، ثم جاء العريان تلميذ الرافعى المحب له كل الحب ، فذكر اللفظة ذاتها ، كأنه لم يقرأ ما كتب طه حسين وما كتب الرافعى عنها ، وما ثار حولها من غبار ! ..

ومما كتبه العريان عن أوراق الورد ، كلام يدخل فى باب السخرية غير المقصودة بسذاجة الرافعى ، فإنه لما نجح كتاب «أوراق الورد» وتداوله القراء ، وعاد بالربح على صاحبه فرح الرافعى وتعزى بنجاح الكتاب عن الفشل فى الحب ، مع أن هذا الكتاب الناجح هو كتاب ذلك الحب الفاشل !

يقول العريان تخفيفا للسخرية من أستاذه : «لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب» !

أما الرافعى فيقول عن أوراق ورده هذه : «لعمرى ، لئن كتب فى الحب والجمال بقلم ، لقد كتب صاحب هذه الرسائل بقلب» .

أما سبب تسمية الكتاب بالورد ، فإنه كما زعم الرافعى ، وأظنه خيالا جميلا منه لا أكثر : «دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى

عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتها رقيقة نادية في صدرى ، ولكن على معان في القلب كأشواكها .. فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوما معاني الأشواك فسمها : أوراق الورد .. وكذلك سماها» ! ..

ويخاطب صاحبته : «ان حقيقة الجمال الذى يغمر العالم أراها كأنها بجملتها مستقرة في الموضع الضيق الذى بينك وبين قلبى ، تملأ مع هذا الكون عالما آخر من شعورى بك» .

وأهدت إليه صورتها مرة - والعهدة فى هذا الخبر عليه - فكتب اليها : «هل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه ويتلألأ بنضرته ، حتى لكأنه خلق من نور الفجر ، وكأن علامة الفجر فيه انما هى هذا الروح الذى يحيط القلب من وجهك بمعان كنسمات الصبح، عليلة من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال ، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حى فرح لا نسمات فى الجو .. هذا الوجه الفاتن ما رأيته مرة إلا حسبتها أول مرة .. وجه الحبيب يطل جديدا على كل نظرة من محبه وإن طال ترداد النظر وتكراره .. وهذه الابتسامة الواقفة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة ، حتى كأنها وهى فى الرسم ، لون روحى ظهر يتموج على شفتيك ، فما أقلب فيه عينى الا شعرت أن روحى تذوب فيه كما يتمازج لونان فى السماء على الشفق الأحمر» ..

وما أظن الا أن الرافعى - رحمه الله - قد رأى صورة مى التى كثيرا ما كانت تنشرها الصحف ، وإنها لقريبة من هذا الوصف الذى يصفها به ، فلم تهد إليه صورتها ولا وضعتها في يديه ، ولكنه يصف صورة رآها فى جريدة ..

وقد بنى على هذه الصورة الباهتة هذا المعمار الباذخ من التعبير الجميل ، الذى يتراوح بين صدق العاطفة ، ووطأة اللغة والبيان كأنه يبنى من خفقات قلبه أهراما !

ان للرافعى رسالة اسمها «البلاغة تتنهد» وما أظن عنوانا أشبه بكتابه هذا من عنوان رسالته هذه ، فإن بلاغة الرافعى الضخمة المدوية تتنهد أحيانا فى هذا الكتاب ، وتفور أحيانا كالنار فلا يجسر أحد أن يقربها ، ولا يجرؤ أن يطالعها ! ..

وحين يبلغ الحب بالرافعى غايته يقول : «وقفت يوما على شاطىء البحر ، فخيل إلى أنه عين تبكى بها الكرة الارضية بكاء على قدرها ، وتأملت الجبال فحسبتها هموما ثقيلة مطبقة على صدر الأرض ، وفكرت في البراكين فقلت : لوعة أحزانها تثور وتهمد .. ثم رجعت بهذا النظر فى الانسان فإذا له على قدره بحر وجبال وبراكين .. عند الطبيعة لا ألم ولكنه نظام .. وعند الانسان : لا نظام ولكنه ألم» .

كذلك كان الرافعى فى الحب ، وما نقلنا إليك إلا قطرة من معانى حبه الذى تلاطم بشاطىء حياته كما تتلاطم الامواج بالصخور .

لقد كان الرافعى يابسا لا ينعصر ، ولكنه انعصر فى الحب ، فأخرج ذلك الرحيق ! .. فشكرا للآنسة مى ! ..

وكان الرافعى يعتقد دائما أن «مى» قد أحبته ، مع أنه كان واحدا من رواد مجلسها الكثيرين أمثال : ولي الدين يكن ، وانطون الجميل ، واسماعيل صبرى ، وخليل مطران ، وشبلي شميل ، وسلامة موسى ، ومنصور فهمى ، وعباس محمود العقاد .. فضلا عن جبران خليل جبران الذى كانت معجبة به ، مع أنها لم تره طيلة حياتها ..

ومات الرافعى ، ولم تعش «مى» بعد موته إلا أربع سنوات تقريبا بعد أن شيبتها مؤامرت أقاربها لاقتناص ثروتها ، حتى أدخلوها مستشفى المجاذيب فى لبنان ، ولم تخرج منه إلا بعد جهد كبير بذله بعض أصدقائها ...

وفى آخر أيامها ، رآها سلامة موسى فقال : «رأيت شخصا لا أعرفه .. رأيت سيدة بيضاء الشعر ، كأنها فى السبعين» ! ..

وانتهت المرأة الذكية الاديبة الفنانة التى فتنت عباقرة جيلها .

انتهت زينة المحافل التى قالوا عنها : «كانت تختصر للجليس سعادة العمر فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة» !

وبعد موتها انطلق الرواة يقولون : كانت تحب فلانا أو فلانا ..

ولا أحد يعرف الحقيقة .. ولن يعرفها أحد فقد أخذت «مى» معها قلبها إلى القبر .. ولم تترك وراءها إلا مزاعم الرواة !

ولم تترك مى وراءها أبلغ ولا أمتع مما كتبه عنها العاشق الأصم الساذج الذى كانت بلاغته تتنهد فى حب مى !

المهذار الجبار

أحمد رجب هو فى هذا الزمن الأخير ، أشهر مهذار جاد ، أو جاد مهذار .. لأن كتابته يمكن أن تؤخذ على أنها هذر فى هذر ، كما يمكن أن تؤخذ على أنها جد في جد .. وفى الحالتين تجد فيها حلاوة الفكاهة ومرارة الجد ..

فى كتابته اليومية يسجل بلا تعمد تاريخا موجزا لعصره يشبه من بعض وجوهه ما سجله الجبرتى فى تاريخه .. الصدق والتلقائية والتجرد من الهوى ، والرغبة فى إصلاح الحال ، والغيرة على مصالح الناس ، والسخط على العبث والفساد وخراب الذمة .

وكان أحمد رجب قبل أن يندمج منذ سنوات فى كتابة يومياته القصيرة ، يكتب مقالات طويلة ، بعضها تحقيقات صحفية ، وبعضها كتابات متنوعة الأهداف .. وبعضها فى الأدب والفن ، ولكنه فى كل ما كتب كان هو نفسه المهذار الجاد الذي يتفكه حين يجد ، ويجد حين يتفكه ، ويشعر بالمرارة فى الحالتين . .

ذات يوم - منذ سنوات - كتب مسرحية قصيرة وادعى أنها من تأليف الكاتب دورنمات ، وطلب إلى النقاد رأيهم فيها .. وانهال النقاد

كلاما عن مسرحية دورنمات المدعاة ، فارتفعوا بها إلى السماء ، حتى رأوا أحمد رجب يمد لهم لسانه مصرحا لهم بالحقيقة ، ساخرا منهم ومن مسرحيته هذه التى وصفها بأنها مجرد كلام فارغ انخدع به النقاد لمجرد نسبته إلى كاتب أوربى مشهور ..

وأحمد رجب هو صاحب أشهر المسلسلات الاذاعية الفكاهية الزاعقة ذات العبارات التى تجرى مجرى الأمثال الشعبية السائرة ، ومن المدهش أن هذه العبارات غير مفهومة ، وقد سألته مرة عن معنى إحداها فـفكر قليلا ثم اعترف بأنه مضطر إلى البحث عن معناها فى قواميس اللغة العامية !..

وقد اتخذ أحمد رجب الان فى الصحافة والكتابة وضعه النهائى ، أو شبه النهائى .. فهو الان كاتب فكاهى ، بل كاتب «هجاس» أحيانا ، ولا أعتقد أنه يريد العودة مرة أخرى إلى الكتابة باللغة العربية الفصحى فى تلك الموضوعات المتقعرة التى كان يكتب فيها قبل زمن طويل .

ومع ذلك فأحمد رجب من أرشق الكتاب باللغة العربية ، وقد قرأت له تحقيقات صحفية ومقالات ، نشر بعضها وبعضها لم ينشر ، وكلها باللغة الفصيحة ، ومن أجمل الكتابات حقا ، ولا يكتبها إلا قلم ذو موهبة صحيحة فى الكتابة !..

إلا أن أحمد رجب - كما قلنا - هو الآن ، وبعد الآن كاتب الفكاهة

الأكثر نشاطا والأعلى صوتا فى مصر .. ومجاله أوسع من مجالات غيره من الكتاب الفكاهيين ، وطريقته فى الفكاهة متفردة بأسلوبها وأن كانت تقلد نفسها أحيانا ..

وكتابه الذى نتحدث عنه هنا واسمه «توته .. توته» يمثل هذا الاسلوب الفكاهى أحسن تمثيل .. يجعل اللهجة العامية فى خدمة اللغة الفصيحة ، ويجعل اللغة الفصيحة في خدمة اللهجة العامية ، ويجعلهما معا فى خدمة هدفه الفكاهى النقدى اللاذع .

ويدعي أحمد رجب أنه خصص كتاب «توته .. توته» للدفاع عن المرأة .. يقول «إننى ضد كل أعداء المرأة .. ضد أى واحد يقول ان المرأة شر محتوم ، أو اغراء لا مفر منه ، أو مصيبة مرغوب فيها ، أو مرض مستحب !.. كل هذا تشنيع صنعه ضعف الرجل أمام المرأة ، لأن الضعفاء لا يملكون إلا الشتائم والتشنيعات» !..

ومعنى كلامه هذا أن «توته .. توته» هو مثل كتاب قاسم أمين مثلا عن تحرير المرأة .. دفاع عنها ودعوة إلى إنصافها وما إلى ذلك من دعوات أنصار المرأة !..

ولكن الحقيقة هى الحقيقة ، فإن أحمد رجب فى هذا الكتاب يسكب على نساء الدنيا كلها ، منذ أيام آدم وحواء إلى اليوم ، أكبر كمية من التشنيع ، مصورا المرأة بأنها شر محتوم ، واغراء لا مفر منه ، ومصيبة

مرغوب فيها ، ومرض مستحب .. ويصور الرجل بأنه شهيد طغيانها واستبدادها ومكرها وذكائها وأحابيلها التى لا أول لها ولا آخر ..

صحيح أنه يصوغ تشنيعاته على المرأة فى أظرف تعبير ، ولكنه يدس لها فى كل تعبير ظريف جرعة لا بأس بها من السم ، متمنيا لها أحسن التمنيات مع كل جرعة تتناولها من يده وهو يبتسم لها منحنيا كالخادم المطيع !

والفكرة الفكاهية الاساسية التى تدور حولها مقالات أحمد رجب فى «توته .. توته» هى أن المرأة ليست هى المخلوقة الأحلى والأجمل والألطف والأظرف فقط ، وانما هى - بوجه خاص - المخلوق الأذكى والأقوى !..

وبذكائها أدارت الرجل فى اصبعها كالخاتم وجعلته لعبتها ، وهو يتصور أنها لعبته .. فالرجل أقوى عضلا من المرأة ، وهو يظن أن قوة عضلاته تكفل له السيادة ، ولكن العضلات لو كانت من نصيب المرأة لا الرجل .. «لخسرت المرأة أقصر الطرق لتحقيق غاياتها وهو : هبالة الرجل . فضعف الانوثة أقوى بمراحل من عضلات شمشون الجبار» .. وبهذا الضعف امتلكت المرأة الرجل القوى وجعلته «أهبل» على حد تعبير أحمد رجب !

ومن مزايا ضعف المرأة ، أنهامضطرة - بسببه - إلى استخدام

ذكائها و«مسألة التفوق الذكائى للمرأة على الرجل مفروغ منها ، مهما كابر الرجل فيها وسفسط» .. هكذا يقول أحمدرجب ، متمثلا بما يجرى فى كل يوم بين الاناث والذكور .

مثلا :

«يظل الشاب يسخر من الزواج حتى يجد نفسه فجأة مربوطا من رجليه بحبل ، والطرف الآخر من الحبل فى يد المرأة ، والمرأة تسحله ، تجره على وشه إلى عش الزوجية السعيد ، وهذا السحل يتم عادة بدون ألم ، وذلك بفضل حقنه البنج أو حقنة الحب التي تحقنه بها قبل سحله»! وذكاء المرأة جزء من غريزتها ، وبخاصة غريزتها فى التعامل مع الرجل ، وبهذا الذكاء تعرف دائما كيف تربطه بعجلتها فلا يفلت منها حتى لو اكتشف أنه قد ربط نفسه فيها فى ساعة غفلة أو ساعة «هبالة» .. فلا يعرف التاريخ «اسم امرأة واحدة مرت بمراية دون أن تتوقف أمامها لتحييها بنظرة أو بالتفاتة من بعيد لبعيد .. فالمراية عند المرأة هى عين الرجل ، أو هى بروفة نهائية لعين الرجل وما ستراه . وهى تتميز عن عين الرجل بأنها عين مؤدبة ومهذبة ولا تعرف قلة الحيا» ..

ولكن المرأة تطلب عين الرجل لا عين المرآة ، لأن عين الرجل مرآة ناطقة .

«تتكلم وتبدى الرأى فى الحسن والجمال ، وهو رأى مخلوط غالبا

بالأكاذيب التي تثير ابتسامة المرأة ، فما حيلة المرأة وقد كتب عليها أن تعاشر مخلوقا كذابا ، ليس لها طبعا إلا أن تروض نفسها على الابتسام لأكاذيبه ، فهو يكذب أيام الخطوبة من باب الفشر ، ويكذب بعد الزواج من باب الخوف .. والمرأة تبتسم لاكاذيبه لا من باب الغفلة ولكن لانها تعرف أن الكذب سلاح الضعفاء ، فهي القوية وهو الضعيف» ..

هكذا يحاول أحمد رجب في كل مقالات كتابه أن يدور ويلف حول فكرته الاساسية التي جعلها محور فكاهاته الجميلة البارعة ، وهي أن المرأة أذكى وأقوى من الرجل ، وان خيل إليه غرور عضلاته في الساعات الجميلة انه هو الكل في الكل ، وأن الكلمة كلمته ، وأنه يقول فتسمع المرأة ، ويأمر فتطيع ، ويحكي لها فتبقى مرهفة اذنيها لكلامه الفارغ ، حتى ينهي حكايته ويقول لها : توته .. توته ، وتقول هي له : فرغت الحدوته (١).

---

(١) كتبنا هذه المقالة في أواخر الستينات ، ومازالت تنطبق على كتابات صديقنا الأستاذ أحمد رجب .

تاريخ لم يهمله التاريخ

هذه الشخصيات المثيرة اللامعة رآها بعينيه ، وذكرياته عنها مطبوعة في ذاكرته انطباع الحروف على أوراق جريدة أو مجلة عتيقة مهيبة المنظر ، أو عجيبة المنظر .. ولا غرابة ، فإنه صحفى طويل العهد بالصحافة ، اعتاد أن يتعامل مع « المطبوعات » بأنواعها وألوانها المختلفة ، مطبوعة على الورق ، ومحفورة فى تلافيف الذاكرة ! ..

الكتاب عنوانه «شخصيات وذكريات فى السياسة المصرية » .. مؤلفه شيخ من شيوخ الصحفيين المصريين هو المرحوم الاستاذ محمد نجيب الذى امتد عمله فى الصحافة أكثر من نصف قرن .

ومحمد نجيب دخل الصحافة فى العشرينيات ، من بابها الأكثر اتساعا وسهولة فى ذلك الحين ، وهو باب الأدب ، لأن لمحمد نجيب أسلوب أديب ، ولكن مهنة الصحافة أدركته سريعا فتحول من باب الادب الى باب الاخبار وما حوله من الشئون الصحفية الاخرى .. ثم انغمس فى العمل الصحفى الدءوب وراء «الكواليس » زمنا طويلا ، فلم يتح له أن يضع اسمه بين الاسماء ذات الرنين والوهج فى الصفحات الأولى أو الصفحات الاخيرة ، فى الوقت الذى كان يتعلم فيه على يديه ويتخرج أجيال من الصحفيين وحملة الأقلام ، قفزت أسماؤهم على

المسرح ، ويبقى هو قائما برسالته الصامتة فى ذلك المعترك السرى الصاخب وراء جدران الصحف ..!.

ليس معنى ذلك أن محمد نجيب جلس القرفصاء كالكاتب الفرعونى طوال حياته الصحفية ، فقد كان له فى المجال الاخبارى - خارج مكاتب الصحف - نشاط موفور مثمر ، التقى خلاله بالمشهورين وذوى الحظوة والأبهة من نجوم الادب والفن والسياسة فى عشرات السنين..

وعرف أخبارا كثيرة وأسرارا ذات أهمية فى تاريخ الصحافة المصرية ، بل فى تاريخ بلادنا كلها فى المرحلة التاريخية الهائلة التى شهدت نتائج فشل الثورة العرابية ، وارهاصات ثورة ١٩١٩ ، ثم هذه الثورة نفسها ، وما تلاها من أحداث كبيرة حملت على أمواجها العاتية زعماء حقيقيين وزعماء زائفين ، وغرق فى لجتها رجال حقيقيون ، وسبح الى شاطىء السلامة أشباه رجال وأدعياء .. !

وعاصر محمد نجيب حقبة مديدة ظهر فيها حق مصر فى الاستقلال واضحا ، ولكنه - مع ذلك - كان حقا زاهقا .. وواصلت مصر البقاء ومازالت ولن تزال .

يقول الأستاذ نجيب فى مقدمة كتابه : «تاريخنا القومى بعد نكسة الثورة العرابية ، حافل برجال وشبان لهم مواقف وطنية خالدة ، فقد أحبوا مصر حبا أسطوريا ، وضحوا فى سبيل إعلاء كلمتها ، وجادوا

بأنفسهم لتحقيق حريتها .. ولقد عاصرت بحكم عملى الصحفى وشهدت أحداثا اقترن بعضها ببعض هؤلاء الرجال والشبان .. ولما كانت هذه الاحداث تكشف عن أسرار وخفايا يجب أن يقف عليها أبناء هذا الجيل، فقد رأيت ان أسجلها فى هذا الكتاب .. » ..

وهذا الكتاب « شخصيات وذكريات فى السياسة المصرية » يبدأ بصاحب الدولة حسين رشدى باشا . ولعل مايعرفه عنه الكثيرون الان أنه كان يعقد مجلس وزرائه أحيانا فى عوامة سلطانة الطرب « منيرة المهدية » فى بدايات القرن العشرين ..

وقد كاد الرجل « يدخل التاريخ » بهذه الحكاية وحدها ، وأصبح اسمه يتردد فى التمثيليات والمسرحيات التى تمس حياة منيرة المهدية من قريب أو بعيد . وزاد الطين بلة - كما يقال - أن رشدى باشا كان رئيس الوزارة حين أعلن البريطانيون الحماية على مصر سنة ١٩١٤ فعده المصريون مواليا للأعداء ..

ولكن محمد نجيب يحدثك عن رشدى باشا حديثا آخر : « .. تم تأليف الوفد المصري برياسة سعد زغلول ، وكان حسين رشدى - رئيس الوزارة - على علم تام بخطوات تأليفه ، وكان يشجع هذه الخطوات.. وفى الخفاء كان حسين رشدى يغذى الثورة ويؤازرها ويشعل وقودها » ..

« وفى مفاوضات عدلى - كيرزن ، اعترض اللورد كيرزن على مطلب الاستقلال وتهكم على المفاوضين المصريين وقال لهم فى وقاحة : إن مصر لا تملك قوة تدافع عنها - اذا استقلت - بحيث ان أصغر دولة فى حوض البحر الأبيض تستطيع غزوها والاستيلاء عليها فى سهولة! .. وغضب رشدى باشا ، ورد على كيرزن فى انفعال شديد : لقد كان لنا قبل أن تحتلوا بلادنا جيش قوى ، وإن هذا الجيش هو الذى ألقى بقواتكم في البحر في معركة رشيد ! .. وما كاد حسين رشدى يكمل رده حتى سقط مصابا بالشلل لفرط انفعاله » ! ..

هذه هى شخصية تاريخية من الشخصيات التى حواها كتاب محمد تجيب .. لقد حبس بعض الناس حسين رشدى طويلا فى عوامة منيرة المهدية ، ولكن الرجل الذى كان - فعلا - يهيم بمنيرة وصوتها ، لم تكن معركته الحقيقية فى عوامتها ، ولهذا لم يرقد عند قدمى منيرة رقدة النشوة وعلى الدنيا العفاء ، بل سقط مشلولا من القهر والمذلة فى حضرة اللورد البريطانى الذى تهكم بالعجرفة والتعالى على استقلال مصر ! ..

وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى اعتبرت مصر بمقتضاه دولة « مستقلة » ذات نظام ملكى ، بدىء فى كتابة « الدستور » الذى عرف فيما بعد بدستور ١٩٢٣ ولم يكن محققا الا الحد الادنى من

الحريات الشعبية ، ولكنه - مع ذلك - لم يعجب الانجليز بسبب نص فيه على لقب الملك فؤاد ، فأرسلوا أسطولهم الى الاسكندرية مهددا ، وأرسلوا الى فؤاد إنذارا بحذف السطر الذى لم يعجبهم فى الدستور ..

يقول محمد نجيب : « كان الوزراء أضعف من أن يواجهوا الموقف مع الانجليز من جهة ومع فؤاد من جهة أخرى ، فوافقوا على الانذار ويبرروا موافقتهم بأن « فؤاد » قال لهم مستعطفا : ان كل واحد منكم سيذهب بعد استقالته الى عزبته يقيم فيها ، أما أنا فسيخلعنى الانجليز ولا أعرف الى اين سيذهبون بى على بارجتهم الراسية فى الاسكندرية .. ثم ارتمى على مقعده وتظاهر بالاغماء » ! .. وقابل الشعب موافقة الوزراء على الانذار البريطانى بمزيد من السخط .

وحاول توفيق نسيم رئيس الوزارة أن يبرر الموافقة ، فقال لأحد الصحفيين المعارضين فى ذلك العهد :لقد كنت مصمما على الاستقالة ، لكن حدث على أثر ارتماء الملك فؤاد على مقعدة ان تناول الوزراء وثيقة قبول الانذار ووقعوها واحدا واحدا .. وكنت أنا آخر الموقعين ! ..

يقول محمد نجيب : « .. من العجيب أن كل وزير من أعضاء الوزارة قال عن نفسه إنه كان آخر من وقع وثيقة قبول الانذار البريطانى » ! ..

وتوفيق نسيم باشا هو رئيس الوزارة الذى تم على يديه مسخ

دستور ١٩٢٣ ، ولكنه « استحق تقدير الوطن » .. وهذه من العجائب التاريخية التى يشير اليها محمد نجيب : بينما موجة سخط الشعب على موقف توفيق نسيم وتفريطه فى حقوق البلاد ودستورها تشتد ، اذا بسعد زغلول يبعث من منفاه فى جبل طارق برقية يعلن فيها أن توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن ..

«وقوبلت هذه البرقية بالوجوم والفتور ، ولكن تبين أنها كانت بمنزلة الخطوة الأولى فى سياسة التقارب بين الوفد والقصر وكان من آثار هذه السياسة الجديدة أن قابل سعد زغلول عقب عودته من منفاه مباشرة الملك فؤاد فى قصر رأس التين » .. « على أن هذه السياسة لم تستمر ، لأنها قامت على التناقض ، فسعد يطالب « فؤاد » باحترام الدستور ، وفؤاد يمقت الدستور ويعمل على حكم البلاد حكما أتوقراطيا » ...

ويمضى محمد نجيب فيحدثنا عن زوايا مجهولة من السياسة المصرية « العليا » فى العقود الماضية : مقتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان السير لى ستاك باشا « البريطانى » .. والانذار الذى قدمته بريطانيا واستغلال بريطانيا للحادث فى توسيع وتحقيق مطامعها ، واقتداء فؤاد بها فى استغلال الحادث لتحقيق أمنية عزيزة لديه وهى تعطيل الحياة النيابية ..

ويتحدث محمد نجيب عن « فدائى » من شبان الفورة الوطنية قبض

عشرة آلاف جنيه وصار عميلا .. وعن قضية الاغتيالات السياسية التى تفرعت من قضية مقتل السردار ، ولا تنقطع خلال أحاديثه سلسلة الأسماء التى كنا نراها عن كثب أو نسمع عنها فى صبانا وشبابنا الباكر : اسماعيل صدقى .. أحمد زيور .. حسن نشأت .. الدكتور هيكل .. حافظ رمضان .. أحمد ماهر .. النقراشى .. وغيرهم ممن لا يحصون لكثرتهم ..

وحول كل منهم سطر مجهول من التاريخ ونقطة ضوء أو نقطة حبر فى صفحته التى طوتها الايام ! ..

والكتاب شائق .. أسلوبه مصقول ممتع .. منهجه يذكرك بعنوان كان الصحفى الكبير حبيب جاماتى يكتبه دائما وهو : « تاريخ ما أهمله التاريخ » ..

فالصحفى الذى يرى الاحداث طازجة نابضة يعلم أن التاريخ يكتب ما يشاء أو يكتبه ذووه كما يشاءون ، ولكن ما أهمله التاريخ لا ينساه المؤرخون .. ولا تضيع الحقيقة ! ..

إعادة اكتشاف أحمد أمين

مرت ذكرى الأديب المؤرخ الفقيه الشيخ الدكتور أحمد أمين ، كما تمر كل عام ، فى صمت ، وبلا تحية أو زهرة توضع على اسمه الذى كان فى حياته مكللا بالأزهار [1]

لماذا لا نجد الآن أثرا لذكراه بين الذكريات المشهورة المحتفل بها دائما من عامة القراء وخاصتهم ، وقد كانت له يد طولى فى دنيا الأدب والفكر ؟!

الذين رأوا شهرة الشيخ الدكتور [2] أحمد أمين فى حياته ، لم يخطر ببالهم أن مصيرها إلى انتهاء ، وأن الصمت المطبق سيعاجل اسم هذا الرجل اللامع المشهور فيحجب آثاره الأدبية والفكرية التى كان لها فى عهدها القريب دوى بعيد ..

الحقيقة أن الرجل لم يدخل دائرة النسيان وحده ، فقد سبقه وتلاه إليها جماعة من أعز أدباء عصره انتاجا وأبعدهم

---

(١) كتبت فى مايو سنة ١٩٧١ لمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاته، ونشرت فى مجلة « الهلال ».. وقد استفاض الحديث بعد ذلك عن أحمد أمين ، وأصدر بعضهم كتبا عنه .. ولم يكن لذكراه أثر عندما كتبنا عنه كلمتنا هذه .

(٢) كان الشيخ أحمد أمين يحمل الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة .

صيتا ، وكان الظن أن يمتد الأجل بأسمائهم طويلا بعد حياتهم الحافلة ..

ولكن .. ألا نلتقى أولا بأحمد أمين ونتعرف عليه وعلى عمله خلال ثمانية وستين عاما عاشها بين الأزهر والقضاء الشرعى والجامعة المصرية والمجمع اللغوى والجامعة العربية ووزارة المعارف والجامعة الشعبية والصحافة الأدبية ، كاتبا فقيها مؤرخا محبا للحكمة ، ناطقا باللغة العربية واللغة الانجليزية ؟!..

رسم أحمد أمين بقلمه صورة «رسمية» لحياته عندما طلب منه مجمع اللغة العربية أن يكتب كلمة عن حياته ، قال أحمد أمين متحدثا عن نفسه بصيغة «المجهول» التى اعتاد المجمعيون أن يكتبوا بها كلمات عن حياتهم تحفظ فى ملفات المجمع :

● ولد بالقاهرة فى أول اكتوبر سنة ١٨٨٦ ، وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة ، ثم الأزهر ، ثم مدرسة القضاء الشرعى ، فنال العالمية سنة ١٩١١ وعين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى فى نفس السنة الى سنة ١٩١٣ فعين قاضيا فى محكمة أسيوط الشرعية ، ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجة وبقى بها ثلاثة أشهر ، ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء إلى سنة ١٩٢١ .

● عمل قاضيا فى محاكم طنطا وقويسنا وطوخ والأزبكية إلى سنة

١٩٢٦ حيث عين مدرسا فى كلية الآداب ، فأستاذا إلى أن أحيل إلى المعاش فى أول اكتوبر سنة ١٩٤٦ ، وفى أول يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للادارة الثقافية بالجامعة العربية .

● نال البكوية سنة ١٩٤٠ وفى نفس السنة عين عضوا بالمجمع اللغوى ، وفى سنة ١٩٤٨ نال الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الاول وفى أثناء أستاذيته بكلية الاداب اختير نحو عشر سنوات عضوا لمجلس جامعة فؤاد الاول ، وفى سنة ١٩٤٥ مديرا لادارة الثقافة بوزارة المعارف مع عمله فى الكلية .

● فى سنة ١٩١٤ أسس لجنة التأليف والترجمة والنشر ولبث رئيسا لها من يوم تأسيسها بلا انقطاع . وفى سنة ١٩٤٥ حينما كان مديرا للادارة الثقافية بوزارة المعارف فكر فى انشاء الجامعة الشعبية فأسست ، وكون لها مجلس ادارة كان رئيسه بعد ذلك التاريخ .

واختير سنة ١٩٣٩ عضوا للمجلس الاعلى لدار الكتب وفى سنة ١٩٤٥ عضوا للمجلس الاعلى للمعلمين . وابتدأ اتصاله بالصحافة سنة ١٩٣٤ فى الرسالة والثقافة – وكان مديرا لها – ثم مجلات داو الهلال ، وكذلك بدأ اتصالاته بالاذاعة المصرية واذاعات الشرق الادنى ولندن العربية ..

● فى سنة ١٩١٨ ترجم كتاب مبادىء الفلسفة . وفى سنة ١٩٢٢ ألف كتاب الاخلاق ، ثم فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام ، وله قصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة مع الدكتور زكى نجيب محمود ، واشترك فى كتب مدرسيه ، ثم اشترك فى نشر كتاب الامتاع والمؤانسة والعقد الفريد ، ثم ألف كتاب قصة الادب فى العالم مع زكى نجيب محمود ، ثم كتاب فيض الخاطر ثم كتاب زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، وحياتى ، وقاموس العادات والتقاليد وكتاب الشرق والغرب (١) .

هذه هى الصورة الوظيفية التى رسمها الشيخ أحمد أمين لنفسه بدقة وصدق وبلا تزويق . وتكتمل صورته الانسانية فى كتابه «حياتى» وفى شذرات أخرى من كتاباته ، منها قوله : «لم انتفع بزمن الصبا كما أود فلم يجد المرح والنشاط ولا اللهو ولا الحب لقلبى منفذا . ولم أكن محوطا بفرح وسرور فى المنزل . وانى أحس بميل إلى الحركة والنشاط على أثر درس اللغة الانجليزية على سيدة انجليزية عجوز كانت تصلح من نفسى كما تصلح من لسانى ، وقد تغير كثير من أخلاقى إلى خير ، ويرجع ذلك إلى عوامل أهمها تعلم الإنجليزية وما كان يدعو إليه من مخالطة إنجليزيتين إحداهما عجوز والاخرى فتاة متزوجة ، ومما أحس

---

(١) من كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه» . وقد اعتمدنا على هذا الكتاب فى مقالنا هذا وعلى بعض مؤلفات أحمد أمين ..

به أننى الان أكبر حرية فى الفكر ، لا أتحرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها » ..

كتب هذه السطور فى صيف سنة ١٩١٦ وختمها بقوله : «أنا الان مدرس بمدرسة القضاء مرتبى ١٣٢٠ قرشا ، وأنا أرجو من الله أن يعيننى على القيام بعمل عظيم لأمتى من الجهة الخلقية والاجتماعية».

وتبلغ صورة أحمد أمين غاية اكتمالها بما كتبه عنه خمسة عشر من زملائه الأدباء وأساتذة الجامعات فى ذكراه الأولى التى احتفلوا بها سنة ١٩٥٥ فكانت الاحتفال الأول والأخير بذكرى أحمد أمين منذ توفي إلى اليوم ..

قال الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فى تلك الذكرى : «إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبة المتعددة الألوان .. وهناك ناحية تعتبر نقطة البدء فى حياته العقلية كلها ، ونعنى بها التربية ، عن طريقها امتد به البحث إلى شتى النواحى . ولم يكن بد من أن يكون أحمد أمين مربيا ، فقد أخذ عن أبيه الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ، وهى إحدى وسائل التربية . ثم تتلمذ لعاطف بركات أحد أئمة المربين المصريين فى نصف القرن الأخير» .

نشأ أحمد أمين فى أسرة مصرية فقيرة . كان والده «فلاحا فقيرا

من مديرية البحيرة ، هجر القرية إلى القاهرة هربا من الظلم والسخرة والتحق بالأزهر ، ثم كان مصححا بالمطبعة الأميرية ببولاق ، وجعل ينسخ المخطوطات ويجمع الكتب ، فنشأ ابنه أحمد أمين بين الكتب والمحابر» (١) .

وفى شبابه اشترك أحمد أمين فى ثورة ١٩١٩ ثم فى الحركة الوطنية التي أعقبت الثورة بزعامة سعد زغلول باشا ، وكان من الثابتين على مناصرة «الوفد المصرى» عندما اضطهده الانجليز والملك فؤاد وتآمرت عليه الأحزاب الصغيرة .. وقد اغترف الكثيرون من خيرات الحركة الوطنية ، ذهبا وفضة ، بعد أن هدأت الروح الثورية وأصبح مجاهدو ١٩١٩ وزراء وحكاما فى العشرينات والثلاثينات وما تلاها ، ولكن أحمد أمين كان من القلائل الذين لم يغنموا لأنفسهم شيئا ، فلبث طوال عمره فى سلك القضاء أو التدريس .

ويبدو أن أحمد أمين لم يكن يشعر بتمام الرضا عن حظه فى الحياة برغم إعلانه الدائم للرضا ، فقد كان شديد الكتمان والكظم لما فى نفسه .. قال ابنه جلال أحمد أمين : «كان أبى من هؤلاء القلة الذين يطوون الآلام على أنفسهم ، ولا يشركون غيرهم فيها » ..

---

(١) من كلمة لمحمود تيمور فى تأبين أحمد أمين سنة ١٩٥٥ .

وقال الدكتور أحمد زكي :«ظن أحمد أمين – في أخريات عمره – أن الحياة قد عافته وأنها هجرته ، والحق أنه هو الذي عافها في أيامه الأخيرة واحتقر ناسها .. حضرنا حفلا في إحدى السفارات وهناك التقيت بأحمد أمين .. ظهر في هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه في هذه الحفلات : الذقن لم يحلق منذ أيام ، والقميص مفتوح صدره ، وليس بياقته رباط ، والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين .. ودلف إلي في الحفل صديق قال لي : ماذا جرى لأحمد أمين ؟! .. قلت : ذهب عنه احترام الدنيا ، فقال الصديق : بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع فلم يأبه فيه بما يصنع» !..

هكذا .. في النهاية انفجر البركان الكظيم الذي كان يبدو هادئا في كتابه «حياتي» مفتونا كالطفل بذكريات بيت أسرته القديم والكتاتيب وصحن الازهر ومدرسيه في مدرسة القضاء الشرعي وأساتذتيه البارعتين في اللغة الانجليزية ..

كان كتابه هذا قصة حب للناس والحياة في مطلع شبابه وأيام شهرته وصعود نجمه في التأليف .. ولكن هذا الحب لم يصمد إلى النهاية .. نهاية حياته ، فقد انحسرت أضواء الأيام الحلوة ..

وفي نهاية العمر قال لصديقه الدكتور أحمد زكي : «اليوم لا أرى شيئا عندي أكره من الناس ، ولا أصوب في هذه الدنيا من قطيعة ،

وأنا اليوم سائر فى سبيل والدك من قبلى» ..

وكان والد الدكتور أحمد زكى قد تحول فى شيخوخته إلى كاره للدنيا غير مؤمن بالناس .. وتم عزوفه عن الدنيا وعن الناس بأن «قطع علاقته بالناس ، وبأكثرهم قربا اليه» ! ..

وبرغم نجاح أحمد أمين موظفاً كبيرا ومؤلفا شهيرا طوال أربعين عاما ، كان يعانى عقدة الخوف من استبداد الأقوياء به وجورهم عليه وكان شعاره إلى آخر حياته أن الاستبداد «يجعل من النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفا ، والسفالة دماثة وظرفا»..

وقد أفضى به تمسكه بهذا الشعار إلى الشعور بالوحدة فى الحياة وسط حشود المنافقين والمحتالين والادنياء والانذال والظرفاء ، فكان عزاؤه أن يعمل ويكتب بلا انقطاع ، ففى العمل والكتابة ينسى هذه الدنيا من حوله ، ولو استراح من العمل والكتابة لانفتح له باب التفكير فيما حوله بما يجره عليه من الغيظ والاسف والكمد ، وكان يقول : لو استرحت من العمل والكتابة لمت كمدا ! .

هكذا نرى أحمد أمين شخصية تبعث الاحترام فى كل من يعرفها ، ولكنه - بعد وفاته - ذهب بلا ذكرى باقية يجدها الناس بين أيديهم

كما يجدون ذكرى هـذا الاديب أو ذاك المفكر ممن لا يتفوقون على أحمد أمين بأدب ولا فكر ، بالرغم من أن اسمه قد أطلق على شارع فى مصر الجديدة ، وخصصت له جائزة تمنح لخريجى اللغة العربية بآداب القاهرة كل عام ، وتشغل مكتبته الان مكانا فى إحدى قاعات «المؤتمر الاسلامى» بالقاهرة مذكرة كل من يغشاها باسم هذا الرجل الكبير ..

ولكن الذى حدث أن الزمن قد أحدث هوة مفاجئة بين أفكار الثلاثينات والاربعينات ، حتى بدا كثير من ألمع أدباء ومفكرى تلك الفترة كأنهم متخلفون فكريا أو واقفون ضد التقدم ، وقد أصاب هذا الرذاذ حتى عمالقة الشهرة فى الادب أمثال العقاد والمازنى وطه حسين ، فضلا عن الاخرين الذين لم يكونوا فى عصرهم دعاة تجديد كما كان العقاد وطبقته ..

وأحمد أمين – مع الأسف – اعتبر من هذا الطراز الذى حجزته عن الجيل الجديد تلك الهوة المفاجئة التى شقها زلزال الحرب العالمية الثانية ثم ثورة ٢٣ يوليو كما يشق الزلزال الأرض .. فأين يقع ميراثه الفكرى الان من الجديد الدائم المتجدد فى الشعر والقصة والرواية والمسرح والسينما والغناء والموسيقى ، فضلا عن الأفكار الاجتماعية والاخلاقية التى اتخذت مسارا لم يخطر على باله حين قال : «أرجو أن

يعـينني الله على القـيـام بعـمل عظيم لأمـتي من الجـهـة الخلقـيـة والاجتماعية» ؟! ..

مع ذلك ، مازال ميراث المرحوم الدكتور الشيخ أحمد أمين قادرا على العطاء وتفتيح أبواب لفكر الأجيال العربية الصاعدة ، ولو قيض له من يكتشفه من جديد ويعرف الناس به ، لبلغ أحمد أمين من التقدير والتأثير في غيابه ما بلغ منهما وهو في الاسماع والابصار طوال أربعين عاما ..

الخيط والجدار

رحلة طويلة قطعتها المرأة المصرية «المثقفة» منذ بدأت تتململ من طريقة الحياة الاجتماعية التي كانوا يسمونها منذ سبعين عاما «ألا توركا» أى طريقة الحياة «العثمانية» .. حتى بلغت عصرنا .. بل ان طريقة الحياة الاجتماعية التي كانت المرأة المصرية تسميها «ألا فرانكا» أى طريقة الحياة «الافرنجية» قد تجاوزتها حياة المرأة المصرية الآن ، فتم لها في زمن قصير نسبيا الانتصار على عقلية المرأة العثمانية وعقلية المرأة «المتفرنجة» معا كما كانتا معروفتين في الثلاثينات وما قبلها ، وبدأت المرأة المصرية تشترك في حياة المرأة «العالمية» كما هي معروفة اليوم على مستوى القارات الست !

وكتابات الدكتورة نوال السعداوى تكاد تقول لنا : فكروا في هذا الشوط الواسع الذى سجلته المرأة المصرية خلال هذه العشرات القليلة من السنين .. فإن الدكتورة نوال السعداوى تعيش بقلمها في أوربا وأمريكا واستراليا أيضا .. وتكتب كأديبات العالم ، ولا أقول «العالميات» فلست في مقام المبالغة .. وقد حررت قلمها حتى أوشك أن يقول ما يشاء كما تقول أقلامهن هناك ما تشاء !..

ونوال السعداوى ليست الأديبة المصرية الوحيدة في هذا المجال ..

عندنا أيضا غير واحدة .. هدفهن - كما يبدو لى - أن يتجاوزن مرحلة «الكسوف» من أنهن خلقن اناثا لا رجالا وأن تكون لهن من حرية القول والكتابة ما للرجال من هذه الحرية .

وفى بلد عربى شقيق كلبنان، كتبت الأديبات ما شئن، وتجاوزن ساجان وأمثالها من نساء باريس قولا وكتابة، ولا شأن لنا هنا بما تجاوزنه هناك فى القول من السدود الحاجزة بينهن وبين التساوى المطلق بالرجال على اختلاف فهومهن ومواقفهن حيال هذه السدود والحواجز..

وواضح الآن - بالبداهة - اتساع الشقة الفكرية والحياتية بين أديبات أيامنا وبين أول أديبة وشاعرة مصرية اشتهرت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهى عائشة التيمورية.. وقد جاءت بعد التيمورية الأديبة الشاعرة باحثة البادية.. ثم جاءت أخريات من أقربهن إلى عصرنا الشاعرة الأديبة نبوية موسى «صاحبة مدارس بنات الأشراف».. ولكنهن اتخذن شعارهن قول إحداهن فى شطر بيت من شعرها : «بيد العفاف أصون عز حجابى» .. وسار الجيل التالى لهن على حذر، حتى تخرجت الطلائع النسائية الأولى فى الجامعة، ثم توالت الأفواج.. وطوى الزمان صفحات وفتح صفحات، وانتهت تماما حكاية «ألا توركا» و«ألا فرانكا» واستقلت المرأة المصرية بشخصيتها، وفى

الوقت نفسه أصبحت «عالمية» التفكير والتدبير في عصر أصبح فيه كل شيء عالميا ولم تعد قومية الشيء تنفي عالميته .

صحبتني هذه الخواطر طوال قراءتي مجموعة قصص «الخيط والجدار» للدكتورة نوال السعداوي. فالمرأة المصرية المتعلمة المتحررة التي تمسك بالقلم ، تتمثل بلا خفاء في نوال السعداوي، أعني في تعبيرها عن النفس البشرية والجسد البشري .

طبعا .. ليست كل امرأة مصرية بقادرة أن تمسك قلما كما تمسك نوال السعداوي بقلم ، ولا هن قادرات حتى على الصمود أمام بعض تعبيرات الدكتورة ، وإن كانت تعبيرات جميلة لبقة، ولكن الدكتورة هنا تمثل حالة من التحرر الفكري يمكن أن نسميها - بحسب مقاييسنا في مصر - حالة فردية أو شبه فردية.. فهي في واد لم تطأه بعد فكر المرأة المصرية - في مجموعها ، وقد لا تبلغه قبل عشرات السنين .

هذا لا يعني أن نوال السعداوي سابقة لزمانها في كتابتها، فما من امرأة ولا رجل بقادر على أن يسبق عصره فيما يكتب. وكل مادة يخطها قلم انثى أو ذكر في عصر من العصور فهي من نتاج ذلك العصر بشكل من الأشكال، ولابد أن يكون العصر متضمنا إياها في زاوية من زواياه الظاهرة أو الخفية التي لا تقع تحت حصر .

وحين يقال ان لونا معينا من التفكير قد سبق عصره، فالمعنى أن العصر الذى ظهر فيه هذا اللون من الفكر قد بدأ فعلا يفسح مساحة ولو ضيقة ضيئلة لهذا الفكر.. ولا يمكن لأى فكر - مهما كان - أن يظهر قبل أوانه فى عصر يرفضه جملة وتفصيلا رفضا اجماعيا لا يشذ فيه عن الاجماع فرد واحد .

نقول هذا ولا نحاول أن نثقل مجموعة «الخيط والجدار» بما لا قبل لها باحتماله من سبق زمانها بأية حال. فهى مجموعة قصص قصيرة قد تبدو عادية لو كتبها رجل، ولكن حين تكتبها سيدة، فهنا قد يقال ان هذه السيدة لا تسير بدقة فى «الطابور» الاجتماعى النسائي بل تتمرد عليه بقدر ما تسمح الظروف !..

إلا أن نوال السعداوى طبيبة، تعرف الجسد البشرى بتفاصيله باطنا وظاهرا.. وهذا - فيما يبدو لى - يشعرها بأن من حقها أن تكتب عن الجسد البشرى كما يكتب الرجل عندما يكون طبيبا .. وكأنها - وهى تكتب قصة لا تشريحا - تضع القصة إطارا للتشريح، أو كأنها تكتب قصة وتشريحا فى وقت معا.

مع ذلك لا يعدو الحقيقة من يقول إن نوال السعداوى كاتبة قصصية ذات موهبة ، تملأ رأسها حياة مجتمعها ولكنها تكتب فيها بأسلوب قد لا يكون أسلوب مجتمعها فى غالبيته .

ولا تطالبني بعدذلك أن أنقل إليك هنا قصة أو بعض قصة من قصص النفس والجسد فى مجموعة «الخيط والجدار».. فأنت حر أن تقرأ كما أن من حق الدكتورة نوال أن تكتب، وستجد فيما تقرؤه لها الكثير مما يمكن أن تقرأه المرأة فى «خدرها».. والرجل فى مقهاه.. وستجد هذا وذاك.

موهوب والأسوار العالية

فوق «الأسوار العالية» رواية الأستاذ عباس الأسواني، الكاتب الساخر.. الجالس القرفصاء على مقهى «ريش» فى شارع طلعت حرب بالقاهرة جلسة الكاتب الفرعونى القديم فى المتحف المصرى.. يرفع صوته الأجش المطوط بالسخرية والتهكم والتهجم على أحوال الدنيا وأحوال الناس، كعادته منذ بدأ يكتب قبل ثلاثين عاما. ولكن أسلوب سخريته فى «الأسوار العالية» يختلف عن أسلوبها فى «المقامات الأسوانية» .. و «موهوب وسلامه» والفكاهات الزاعقة الأخرى التى قرئت له فى كتبه أو أذيعت له فى تمثيلياته الإذاعية الرمضانية (١) .

سخريته فى «الأسوار العالية» تشبه فى جوها - إذا كان لابد من البحث عن «مشبه به» كما يقول سادتنا اللغويون - سخرية نجيب محفوظ ، وان كانت سخرية كل منهما تنفرد بجوها وأسلوبها وسراديبها ، ولكن انفراد هذه بمزاياها الخاصة عن تلك، لايمنع وجود «مشبه، ومشبه به» بطريقة لا أدرى فى الحقيقة كنهها إلا أن التشابه هنا، يكاد يكون نوعا من «التشبيه البليغ» لأنه يجىء بلا وجه للشبه، إلا ما يتفق من الملامح على غير اتفاق !..

(١) كانت هذه ألوانا من كتاباته ، وقد توفي إلى رحمة الله فى أواخر السبعينات .

هذا تقريبا ما بدا لى وأنا أقرأ رواية «الأسوار العالية».. فإن عباس الأسوانى يكاد فى بعض صفحاتها يذكرك بنجيب محفوظ وسخريته الخالية من ظواهر السخرية، وحواره باللغة الفصيحة، ودقة نظره إلى ما يراه ويلمسه فى شخوصه وحيواتهم..

حتى الجو العام لرواية «الأسوار العالية» يهمس أحيانا أو يضج بموسيقى خلفية أو أمامية تكاد إذا أغمضت عينيك عنها وأرهفت لها أذنيك أن تقول : هذا صدى القلم الذى كتب به نجيب محفوظ «القاهرة الجديدة» و «بداية ونهاية» و «السمان والخريف» .. وأمثالها.

ولكن نجيب محفوظ لم يقف بفنه الروائى - كما نعرف - عند هذا الحد.. فبعد السمان والخريف جاءت روايات : اللص والكلاب، وأولاد حارتنا، والطريق، وثرثرة فوق النيل ، وميرامار .. إلى تهويماته القصيرة ونصف القصيرة فى «خمارة القط الأسود» و «تحت المظلة» و «حكاية بلا بداية ولا نهاية» .. وما توالى على تقلبات الأيام والأفكار والأحلام .

أيعنى ذلك أن عباس الأسواني - بعد «الأسوار العالية» سوف يسلك طريق نجيب محفوظ فى الرمز وما فوق الرمز وما تحت الرمز وكل الضروب الحديثة والصيحات البالغة التجدد فى فن الرواية والقصة التى جربها فى فنه ، ومازال سن قلمه يقطر منها بشح أو بسخاء حينا بعد حين ؟!

في الحقيقة لا أدرى.. لكنى أعتقد أن عباس الأسوانى ليس مقلدا بالمعنى الذى أرجو ألا يتبادر إلى بعض الأذهان. غير أنه متأثر – ولا خفاء – بنجيب محفوظ «القديم».. وان كان تأثره بنجيب محفوظ «الجديد» لا يخفى أيضا ، ولكنه أقرب إلى الخفاء، يثب هنا أو هناك فوق «الأسوار العالية» كأنه شبح لا تراه !..

لا أكتمك اننى فكرت كيف تأثر عباس الأسوانى بنجيب محفوظ .. فكان الجواب تقريبا : ان كلا منهما – على غير اتفاق – يجلس على مقهى «ريش» .. ولقاءهما فى هذا المقهى شبه دائم ، بل هو دائم ، لأن عباس الأسوانى هو الجالس رقم «١» فى مقهى ريش.. ومن أسراره العجيبة أنه يجد وقتا للجلوس فى هذا المقهى «الأدبى» كل يوم تقريبا ولكنه مواظب بدقة ونظام على الكتابة وأداء أعماله التى يعيش منها .. فما سر هذه المعادلة الصعبة : جلوس فى مقهى الأدب والأدباء يبدو لك أنه جلوس أبدى .. وعمل وكتابة لا يتوافران الا لمتوفر عليهما طيلة الساعات الأربع والعشرين بجهد جهيد ؟!.

المهم أنه إذا كان بين فن نجيب محفوظ، وفن عباس الأسوانى نسب أو شبه نسب أو شبهة نسب ، فإن مقهى ريش هو المسئول عن ذلك، وله الفضل فيه ان كان فضلا، واللوم عليه ان لم يكن كذلك .. ومن حق هذا

المقهى أن يدخل تاريخ الأدب المصرى بهذا الفضل - إن صح - أو بهذا اللوم، ان كان عليه ملام !..

في رواية «الأسوار العالية» إنسان فقير يشتغل بالتأليف المسرحي ، تخفضه الأيام ثم ترفعه ثم تخفضه وتذيقه الويلات .. وفي الرواية ممثل فقير أيضا ، ولكن هذا الممثل الفقير يرث تركة ضخمة فيقيم لنفسه مسرحا، ويتحول إلى ممثل عظيم ومخرج ومؤلف عظيم أيضا، ويحطم فى طريقه كل منافسيه ، ويزيح عن طريقه حتى يوسف وهبى ونجيب الريحانى - كما يتخيل مؤلف الرواية - ويشترى النقاد والمؤلفين والممثلين ويغلق المسارح التى تنافسه، ويدوس على الناس بلا رحمة !.. ثم ينتهى على يد صديقه المسرحي نهاية لا رحمة فيها !..

وفى «الأسوار العالية» صفحات ممتعة عن الفن والفكر والأدب والسياسة والحكمة والوظائف والصحف.. وعن القاهرة فى الأربعينات بخيرها وشرها وأفكارها الاجتماعية الفجة والناضجة وحياة الرجال والنساء فى كل درجات المجتمع وما فوق الأرض وتحت الأرض ! ..

وفى «الأسوار العالية» لغة روائية وأدبية عالية تدهش من لم يقرأ من قبل رواية لعباس الأسوانى ، فإنه روائى موهوب فعلا ، لم يدخل باب الرواية من باب مقهى ريش ، وان كان قد جالس فى هذا المقهى نجيب محفوظ ، كما جالس رواياته..

ويكاد يدهشنى أن رواية «الأسوار العالية» - وهى ذات طلاوة وخصوبة وقيمة حقيقية - لم تجد حتى الآن ما تستحقه من التنويه والالتفات .

ويدهشنى فعلا أن عباس الأسوانى وهو الكاتب الفكاهى الذى يكاد يكون مهذارا، والمتحدث العاشق للكلام حتى ليتكلم دون أن يشبع من الكلام منذ تغيب الشمس إلى أن تعود إلى الشروق.. هو نفسه عباس الأسوانى الذى كتب «الأسوار العالية» بكل ما تحويه من دهاليز وخفايا وتناقضات حياة الرجال والنساء والأطفال والمشاهير والصعاليك والشخصيات الخيالية والحقيقية سالكا فى الفن الروائى طريقا يسلكه الموهوبون وحدهم فى هذا الفن ، وان كان أسلوب فنه الروائى على خصوبته لا يحمل آخر البصمات العالمية - واغفروا لى كلمة «البصمات» هذه - ولا يحفل كثيرا برموزه وأعاجيبه وألاعيبه.

لقد بدأ عباس الأسوانى حياته الأدبية شاعرا، ولعله ترك الشعر زهدا فيه أو حزنا عليه لما أصابه فى الزمن الأخير على أيدى الكثيرين من الشعارير.. ثم كتب الفكاهات والطرائف والمطايبات والهزليات جريا فى تيار سفساف الأمور أو احتجاجا على هذا التيار.

أما فنه الروائى - ودعك من كل ما أسبغه عليه وأكسبه إياه الجلوس فى مقهى ريش - فإنه فن حقيقى يثبت به أنه فنان حقيقى،

ويغيظ به نفسه كما يغيظ الناس بأنه فنان حقيقي تطلب منه الحياة فنا قد لا يكون أكثره حقيقيا ..

ولكن يبدو أن عباس الأسواني - كما وصف طه حسين بعض الناس - يسخر من نفسه ومن كل شيء ، بل إنه يسخر من نفسه ومن فنه ، أشد مما يسخر من الناس ومن كل شيء !.

وأخشى عليه - بعد أن يطول جلوسه فى مقهى ريش - أن يجيء إليه بعض الناس ويشتروا منه قصصه وينسبوها إلى أسمائهم كما اشترى بطل روايته «الأسوار العالية» مسرحية صديقه «سامى» ونسبها إلى نفسه !.

ولكن سامى قال عندما عرض عليه صديقه بطل الرواية «زهران» أن يشترى منه مسرحية يضع عليها اسمه :

- لا .. ولو دفعت لى مليون جنيه !

قال زهران لسامى :

- كيف ستعيش إذن؟!

ولكنى لا أعتقد أن هذا سيحدث لعباس الأسوانى .. فلا «زهران» سيعرض عليه مليون جنيه، ولا هو ينتظر هذا العرض ، لأن ثمن القهوة فى «ريش» لا يتعدى ثلاثة قروش [1] .

---

(١) كان مقهى ريش حتي نهاية عقد السبعينات ملتقى كثير من الأدباء ، وكان من أشهرهم فيه بعد نجيب محفوظ بوجه خاص، عباس الأسوانى رحمه الله .

رقم الإيداع
٩٧ / ٣٤٦٣
I. S . B. N
977 - 07 - 0523 - 3

الفهرس

ص

الهــــلال

المجلة الثقافيـة الأولـى فى مصر والعالم العربى
مارس ١٩٩٧ .. تقرأ فيها .

فكر وثقافة

- العلم والدولة العـصـرية ...... د. مـصطفى سـويف
- مصر والدخول إلى القرن الحادي والعشرين..... د. محمد القصاص
- جواز المرور للقرن الحادى والعشرين .... د. سعيد اسماعيل على
- ابناء النيل المهاجرون (القفز على الاشواك) .... د.شكرى محمد عياد
- ماذا حدث للمصريين ؟ المصريون ضدالمصريين.... د.صبرى منصور
- السيارة الخاصة والحراك الاجتماعى فى مصر ...... د.جلال أمين
- من اليقين إلى الحيرة ومستقبل الصراع ...... محمد سيد أحمد
- (كتاب جديد) سير كارل بوبر أحد صناع القرن العشرين -.. .... ليلى الجبالى
- مـعـارك بلا ضـحـايا .... مـصطفى نبـيل
- فى ذكراه الخمسين - الشيخ مصطفى عبد الرازق فى آثاره الأدبية .... أحـمـد حـسين الطمـاوى
- السجن فى الخيـال القـصـصى .... إبراهيم فـتحى
- إلى الشباب الحائر «هذا هو الطريق» .... أمين محمود العقاد
- والأدب يعبد الشيطان ... ابليس .. معبودى الخائن.....محمود قاسم
- ٢٠ مارس ميلاد محمد عبد الحليم عبدالله .... صافى ناز كاظم

دائرة حوار

فنـــــون

شعر وقصة

التكويـن

الأبواب الثابتة

رئيس مجلس الإدارة　　　　رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد　　مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم



تأليف

صنع الله إبراهيم

كتاب الهلال يقدم

إلتقاء العمارة العربية بالشعر مع تطبيقات على الشعر الحديث

تأليف

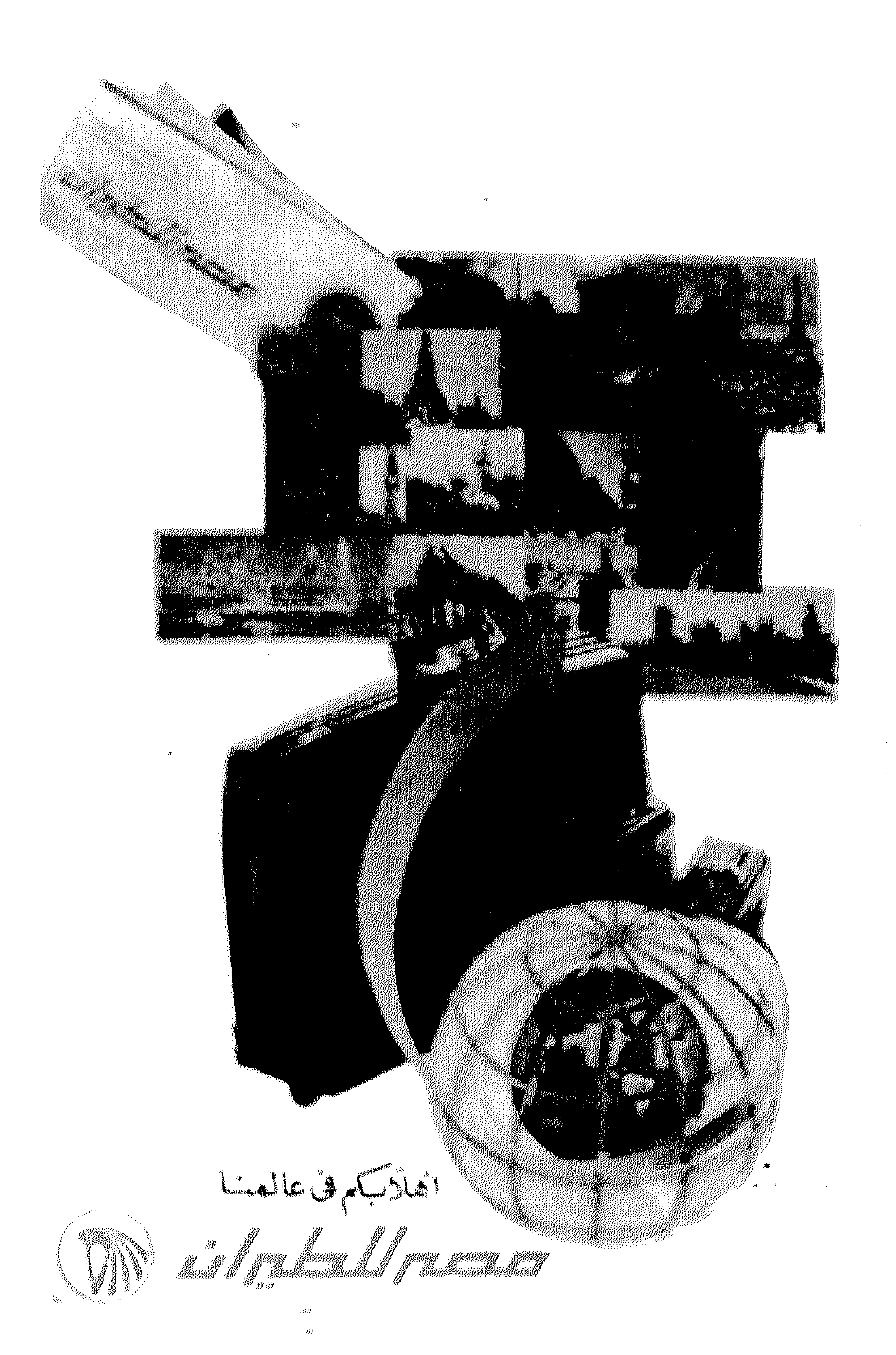
د . عبده بدوى

هذا الكتاب

تجئ مادة هذا الكتاب في أوانها وإن تراخت بها الأيام فلم تجتمع هنا إلا بعد أن تفرقت فى الصحف فترة تمتد بين الستينات والتسعينات، وإنما يجئ هذا الكتاب فى أوانه لأنه يضم طائفة من الأفكار مازال الكلام ساخنا حولها بين أهل الفكر وبين أنفسهم - على اختلافهم - أو بينهم وبين المجتمع المصرى والمجتمعات الناطقة - بالعربية بين المحيط والخليج ، بل إن بعض أفكار الكتاب تطالع آفاق الحياة وترمى كل أفق بعيد أو قريب بشهاب يضئ أو يخبو ، جاهدا فى الحالين أن يبلغ هدفه القريب أو البعيد .

وصورة القلم والأسلاك الشائكة ، هى - فى الحقيقة - صورة أى قلم عربى هنا أو هناك فى هذه المرحلة التاريخية التى لا يدرى أحد على وجه الدقة أين الصحيح فيها وأين الزائف ! ..

إن القلم ينشد الحرية وقد حاصرته أسلاك شائكة ، وأوضاع انقضى زمانها ، وإرهاب دموى قتل من حملة الأقلام العربية فى عصرنا هذا أكثر مما قتل فى جميع عصورنا ، ولهذا يقف القلم العربى عند حدود الأسلاك الشائكة وإن كان - كما فى هذا الكتاب - يحاول أن يجد ثغرة فيها ، فيقفز فوقها ، أو يتطلع إلى ما وراها ..


أهلاً بكم في عالمنا
مصر للطيران

